مع الشباب

في همومهم وتطلعاتهم

حسين أحمد الخشن

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين

مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم
حسين أحمد الخشن
المركز الإسلامي الثقافي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٥٥٧٠٠٠/ ٠١ ـ ٥٤٤٤٠٢/ ٠١

خليوي: ٥٦٥٠٧٤/ ٠٣

مع الشباب

في همومهم وتطلعاتهم

حسين أحمد الخشن

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقدِّمَةُ

الشباب نَبْضُ الحاضر وأمل المستقبل، هم عصب الأمّة وسرّ قوتها، فإنْ صَلُحَ الشباب فالأمّة بخير وعافية، وإنْ فسدوا فهذا مؤشر على أنّ الأمّة تعاني من مشكلة خطيرة، ولا يمكن أن تتعافى أي أمّة أو تتقدّم إلى الأمام أو تسير نحو الأفضل والأحسن إلا عندما يأخذ شبابها دوره الطليعي والطبيعي في عملية النهوض والتغيير. فإذا رأيت الأمّة قد انحدرت وتأخرت ففتشْ عن شبابها فستجده غارقاً في المتاهات ساعياً وراء الشهوات.

إنّ يقظة الأمّة وتجدُّدَها وتمدُّنها هو رهن في أن تعمل على تجديد شبابها باستمرار فتكون روح الشباب حاضرة فيها ونبضه حياً ومحرِكاً لها، وأركّز على كلمة «روح الشباب»، لأنّ الشباب روح ونَبْضٌ وهمّة، فإذا فقد الشاب الهمّة والحيوية فهو هَرِمٌ ولو كان في مقتبل العمر أو على صورة شاب، ولذا فقد ترى أمّة يشيخ الفرد فيها ولكنّها تبقى شابة، لأنّ نبض الشباب يسري في دماء أبنائها كهولاً وشيوخاً.

وانطلاقاً من هذا الدور المحوري الذي يقوم به الشباب في نهضة الأمة وتقدّمها كان لا بدّ من حديث وكلام مع الشّباب وعنهم ولهم.

والحديث مع الشباب وعنهم حديث شيّق وذو نكهة خاصّة وأهميّة استثنائيّة، وهو يفرض عليك اعتماد خطاب مرنٍ يحمل حيويّة الشباب ونبض أحاسيسهم وحرارة عواطفهم ومشاعرهم، ولن يكون ذلك أمراً سهلاً ما لم يدخل المتكلّم أو الكاتب إلى حياة الشباب ليعيش همومهم وتطلّعاتهم، ويتحسّس آلامهم وآمالهم، ويعرف ما الذي يشغل بالهم وبماذا يفكّرون ويحلُمون؟

كيف ينظرون إلى الحياة والمستقبل؟

كيف يستثمرون طاقاتهم؟

وبماذا يشغلون أوقاتهم؟

وكيف يتعاملون مع غرائزهم وعواطفهم؟

ولن يكون الحديث مكتملاً ما لم نتعرّف على مسؤوليات الشباب وواجباتهم، ودورهم الطليعي في عملية التغيير.

وهذا الكتاب الذي نقدّمه لأحبتنا القراء هو ـ في الأصل ـ كلمات متفرقة تختزن أفكاراً ومشاعر، تحتضن هموم الشباب وتحاكي آمالهم وتطلّعاتهم، وتجيب على أسئلتهم وهواجسهم، أجل، هي كلمات، أو محاضرات، أو كتابات، أُلقيت أو كُتبت في مناسبات شتى وأوقات مختلفة من وحي الواقع وتحدّياته وأسئلته، وليس من خلال تخطيط نظري مسبق انطلق به كاتب يعيش في البروج العاجية أو منعزلاً عن الواقع وهمومه. وعلى تعدّد هذه الكلمات والمحاضرات واختلاف أوقاتها ومناسباتها فإنّ محورها وجوهرها يبقى واحداً، والمخاطَب فيها يظلُّ أحداً، وهو الشباب، وَهْج الحاضر وأمل المستقبل.

وقد ارتأينا ـ وآمل أن نكون صائبين ـ جمع هذه الكلمات والمحاضرات وتنسيقها ونظمها في قالب كتابيّ واحد ومترابط وذلك قدر المستطاع، ومن

ثَمَّ وضعها بين أيدي القراء الكرام وخصوصاً الجيل الشاب، تعميماً للفائدة، وإسهاماً منّا في رفع مستوى الوعي لدى هذا الجيل، وتسليط الأضواء على مشكلاته المعاصرة، وأسئلته القلقة، آملين أن يجد فيها الشباب شيئاً ممّا يروي غليلهم أو قليلاً ممّا يشفي عليلهم ويجيب عن أسئلتهم.

وقد وزعنا محاور هذا الكتاب على الشكل التالي:

المحور الأول: يدور الحديث فيه عن مزايا مرحلة الشباب وأهم خصائصها.

المحور الثاني: وهو مخصّص للحديث عن أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الشباب في الحياة.

المحور الثالث: وهو يحمل عنوان الشباب والعلاقة مع الله، حيث يدور الحديث فيه عن علاقة الشباب بالله تعالى، وما يعترض هذه العلاقة من مصاعب ومشكلات.

المحور الرابع: ونتحدّث فيه عن دور الشباب في عمليّة التغيير والنهوض، وعن ركائز هذه العملية وأهم شروطها.

المحور الخامس: وهو مخصّصٌ للحديث عن الغريزة الجنسيّة وكيفيّة تعامل الشباب معها، وما هي الحلول الشرعيّة الواقعيّة لمشكلة غليان الغريزة وسبل ضبطها؟

المحور السادس: وهو بعنوان: «الشباب والعلاقات الاجتماعية»، ويدور الحديث فيه عن تواصل الشباب مع سائر أبناء المجتمع، وعلاقاتهم بالآباء والأمهات، مع تسليط الضوء على مجالس الشباب وما يدور فيها، ولا نغفل الحديث عن وسائل التواصل ولا سيما وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة.

المحور السابع: وهو يحمل «عنوان الشباب ومرح الحياة»، ونتناول فيه

بالبحث مشروعية اللهو والمرح والفرح وأهميته بالنسبة للإنسان ولا سيما الشاب، مع بيان ضوابط ذلك وشروطه الشرعيّة.

وأخيراً نختم حديثنا بملحقين على صلة ببعض أبحاث الكتاب.

وقد خطر في البال أن أعقدَ محوراً خاصاً أتناول فيه مسألة «الشباب والتطرف»، لأنّ الشباب هم ـ في الأعم الأغلب ـ وقود كلّ حركات التطرف والعنف، ولكنني رأيت أنّ هذا الأمر على أهميته لن يتسنى لي أن أضيف فيه شيئاً جديداً على ما ذكرته بشكل مفصل في كتاب «العقل التكفيري ـ قراءة في المنهج الإقصائي»، ولذا فإنّي أحيل القارىء المهتم بهذا الأمر على ذلك الكتاب عسى أن يجد فيه ضالته.

والله وليّ التوفيق

حسين أحمد الخشن

بيروت ـ حارة حريك

١٠ رمضان ١٤٣٦ هـ

المحور الأول

مزايا الشباب

١ ـ الطاقة والحيويّة

٢ ـ الفطرة السليمة

٣ ـ تحديد المسارات

٤ ـ قوة الأحاسيس العاطفيّة

٥ ـ المثاليّة

٦ ـ الشجاعة

٧ ـ الشباب والقدوة

٨ ـ زهو الشباب وانتفاخ الشخصيّة

مميّزات مرحلة الشباب

لا يخفى أنّ الإنسان يمرّ في رحلة الحياة الدنيا بمراحل عمرية مختلفة، تبدأ بسن الطفولة وتنتهي بسنّ الشيخوخة والهرم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[الروم: ٥٤]. وقال عز من قائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[الحج: ٥].

ومن المعلوم أنّ لكلّ مرحلة عمريّة خصائصَها ومزاياها التي تختلف عن مزايا المراحل الأخرى وخصائصها. فللطفولة براءتها وطهرها وعفويتها، وللشباب حماسته ونشاطه وحيويته، وللكهولة هيبتها ووقارها[١].

(١) يقول بعض الشعراء وهو يحدثنا عن مزايا وخصائص المراحل التي يمرّ بها الإنسان:

ابن عشرٍ من السنين غلامٌ ... رُفعت عن نظيره الأقلامُ
وابن عشرين للصبا والتصابي ... ليس يثنيه عن هواه ملامُ
والثلاثون قوةٌ وشبابٌ ... وهيامٌ ولوعة وغرامُ
فإذا زيد بعد ذلك عشراً ... فكمالٌ وقوة وتمامُ
وابن خمسين مر عنه ... صباهُ فيراهُ كأنه أحلامُ
وابن ستين صيرته الليالي ... هدفاً للمنون وهي سهامُ
وابن سبعين عاش ما قد كفاه ... واعترته وساوسٌ وسقامُ

ويهمّنا أن نتوقف قليلاً عند أهمّ مزايا مرحلة الشباب، هذه المزايا التي قد تشترك في بعضها سائرُ المراحل العمريّة، لكنّنا نجدها بارزة وحاضرة في مرحلة الشباب أكثر من غيرها. والوقوف على هذه المزايا في غاية الأهميّة، فهي تستدعي مسؤوليات تتناسب معها، ومن الضروري التعويل عليها في كلّ عمل تغييري إصلاحي، إذ من المفترض أن يكون الشباب هم رواد عملية التغيير والنهوض، كما أنّ من الضروري أخذها بعين الاعتبار في عمليّة إرشاد الشباب وتوجيههم وتهذيبهم وتنمية قدراتهم وتطوير ملكاتهم، ويحقق طموحاتهم، ويخدم قضاياهم وقضايا المجتمع عموماً.

فـــإذا زيـــد بـــعـــد ذلـــك عـــشـــراً ... بـــلـــغ الـــغـــايـــة الـــتـــي لا تـــرامُ
وابـــن تـــســـعـــين لا تـــســـلـــنـــي عـــنـــهُ ... فـــابـــن تـــســـعـــين مـــا عـــلـــيـــه كـــلامُ
فـــإذا زيـــد بـــعـــد ذلـــك عـــشـــراً ... فـــهـــو حـــيٌّ كـــمـــيـــتٍ والـــســـلامُ

وهذه الأبيات تنسب إلى الشاعر الفقيه عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري البكري المشهور بابن الوردي، من شعراء القرن الثامن الهجري، ولد في المعرّة غرب مدينة حلب بالشام (سوريا) زمن المماليك سنة ٦٨٩ هـ، توفي بالطاعون سنة ٧٤٩هـ.

١

الطاقة والحيوية

وأولى تلك المزايا التي لا تُخطئها العين هي أنّ مرحلة الشباب تمثّل مرحلة الحيويّة والنشاط والحماس. فالشباب طاقة متدفّقة، وهمّة متوثّبة، وطبيعي أنّ الطاقة لا بدّ أن تُستثمر، لا أن تُبدّد، ومع الأسف، فنحن أمة تُتقن فنّ تبديد الطاقات وهدرها.

وكما أنّ الشباب طاقة فهو أيضاً نعمة، والنعمة تواجه بالشكر لا بالكفران، وشكرُها يكون بأن نؤدّي حقَّها، وهو لا يكون بالقول فقط، بل بالفعل أيضاً، وذلك بأن نستثمرها فيما خُلقت له، فنعمة المال ـ مثلاً ـ يكون شكرها بأداء حقّها إلى الفقراء والمساكين، ونعمة الصحّة والشباب تُشكران ببذلهما فيما يرضي الله تعالى.

وبما أنّ الشباب طاقة فسوف يُسأل المرء عنها يوم القيامة، ففي الحديث الشريف: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت**»[١]. وبما أنّه نعمة فهذا ما يجعله مورداً للسؤال ـ أيضاً ـ يوم القيامة، كما يُسأل عن كلّ النعم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[التكاثر: ٨].

(١) الخصال ص ٢٥٣، مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص٤، وبحار الأنوار ج٢٧ ص٣١١. وفي مصادر السنة ورد الحديث على الشكل التالي: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم»، انظر: سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٥.

٢

الفطرة السليمة

والميزة الأخرى للشباب هي سلامة الفطرة، فالإنسان عندما يولد فإنّه يولد وهو يحمل فطرة نقيّة، بعيدة كلّ البعد عن كافّة أشكال الانحراف، وتستمرّ الفطرة على صفائها ونقائها إلى حين بلوغ الإنسان أوان شبابه، وتبقى مستمرّة كذلك إذا حافظ عليها من تأثير الملوّثات الروحيّة والفكريّة التي تواجهه. وهذا ـ في واقع الأمر ـ أحد مظاهر لطف الله تعالى بعباده، إذ أنعم عليهم وزوّدهم بتلك الفطرة الصافية والسليمة من كلّ كدر.

وبوحي هذه الفطرة البعيدة عن الملوّثات نرى الشباب متحفّزاً لكلّ خير، ومتطلّعاً للتغيير، وهكذا نراه أقرب إلى الصلاح، وأكثر قبولاً للتهذيب والإصلاح، فالشاب يُرجى إصلاحه أكثر من الكهل، لأنّ الكبير قد تأسره العادات التي اعتادها ويقسو قلبه بفعل تراكم المؤثّرات المختلفة، ويصبح من الصعب تغيير قناعاته، ولو تمّ إقناعه فربما تمنعه روابطه الخاصّة وشبكة علاقاته ومصالحه من تغيير ما هو عليه والانخراط في وضع جديد، بينما الشاب حيث إنّه أقرب إلى الفطرة ولا تقيّده الكثير من المثقلات فإنّه أبعد عن العادات السيّئة، وأقرب إلى تبديل قناعته وخياراته ومواقفه، يقول مولانا الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه المعروف بالأحول: «**أتيت البصرة؟** قال: نعم، قال عليه السلام: **كيف رأيت مسارعة الناس في هذا الأمر** (يقصد خطّ أهل البيت عليهم السلام) **ودخولهم فيه؟** فقال: والله

إنّهم لقليل، ولقد فعلوا، وإنّ ذلك لقليل، فقال عليه السلام: «**عليكم بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير**»(١)، فالشباب ـ إذاً ـ أسرع إلى كلّ خير، لأنّ فطرتهم سليمة لم تلوثها الأهواء والعادات السيئة، فهي تنبض بالخير وتتطلّع إلى الكمال والحبّ والجمال، ومن هنا كان أبو العتاهية يشمّ ريح الجنّة في الشباب، حيث يقول:

يا للشّباب المَرِحِ التّصابي روائح الجنّة في الشّباب(٢)

وفي ضوء ذلك كانت مرحلة الشباب هي مرحلة التأسيس الفكري والعاطفي والسلوكي، فما يتعلّمه الإنسان في صغره وشبابه يثبت في ذهنه ويقرّ، بخلاف ما عليه الكبير فإنّ ذاكرته تضعف شيئاً فشيئاً؛ في الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تعلّم في شبابه كان بمنزلة الرسم في الحجر، ومن تعلّم وهو كبير كان بمنزلة الكتاب على وجه الماء**»(٣).

---

(١) الكافي ج٨ ص٨٣.

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٤ ص ٢٨٣.

(٣) بحار الأنوار ج ١ ص ٢٢٢، نقله عن نوادر الراوندي.

٣

مرحلة تحديد المسارات

والميزة الثالثة من مزايا مرحلة الشباب، أنّها مرحلة تحديد المسارات والخيارات، فالشباب في شعوره بالاستقلال وتحفزّه للبحث عن أجوبة لأسئلة المصير التي تواجهه وتفرض نفسها عليه، كمن يقف على مفترق طرق متشعّبة تسير به في اتجاهات شتى، ومن هنا كان لزاماً عليه أن يسعى لتحديد الطريق الأسلم والذي ينتهي به إلى سعادة الدارين (الدنيا والآخرة).

وهذه الميزة هي في واقع الأمر متفرّعة عن سابقتها، فصفاء الفطرة المشار إليه يشكّل أرضيّة خصبة وصالحة لتلقي مختلف الأفكار، لأنّها أشبه ما تكون بقطعة الإسفنج القابلة لامتصاص كلّ شيء وُضِعَ عليها، من الماء العكر أو الماء الصافي، أو كالورقة البيضاء القابلة لتُنقش عليها كلّ الألوان على اختلافها، يقول الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه: «**إنّما قلبُ الحَدَث (الفتى) كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لُبّك**»(١).

إنّ قرب الشباب من الفطرة وخلوّه من الأفكار والتصوّرات المسبقة، يجعله أسرع إلى تقبّل الأفكار والمبادئ. ولكنّ هذه الميزة سيف ذو حدين، فقد يسبقنا الآخرون إلى عقله وقلبه؛ ولهذا كان لزاماً على الدّعاة والمبلغين أن يبادروا إلى احتضان هذا الجيل وإشراكه في العمل الحركي والرسالي، فالشباب هم نبض

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٤٠.

الحركة الإسلامية وعمادها. كما يلزمنا وفي ضوء هذه الفطرة الصافية، أن نعمل ـ في سياق تربية أطفالنا الصغار ـ على توفير البيئة الإيمانية الملائمة لهم، ونسارع في تعليمهم وتأديبهم قبل أن يسبقنا إليهم الفكر الآخر الذي يغزونا من خلال العديد من الأبواب، ومن أبرزها وربما أخطرها وسائل الاتصال والتواصل الحديثة.

٤

قوة الأحاسيس العاطفية

والميزة الرابعة التي يمكن رصدها لدى الشباب هي قوّة الأحاسيس العاطفيّة، فالإحساس بالجمال والكمال حاضر لدى الشباب أكثر من غيره، وعاطفة الحبّ ـ أيضاً ـ هي من أكثر العواطف الإنسانية حضوراً لديهم، والحبُّ هو المنطلق لكلّ خير وإبداع وتغيير، وقوّة نبض العاطفة وحضورها لدى الشباب هو علامة خير ودليل عافية، بيد أنّ هذه الميزة ـ كسابقتها ـ قد يتمّ استغلالها بطريقة مسيئة ومدمّرة، لأنّ الإنسان إذا تحرّك بموجب عواطفه دون أن تكون العاطفة منضوية تحت قيادة العقل وإمرته فسوف يُوقع نفسه في مشاكل جمّة، إفراطاً أو تفريطاً. فإنّ من تقوده عواطفه لا عقله، أو لا يوازن بين عقله وعاطفته ستصدر عنه تصرّفات انفعالية ومواقف ارتجاليّة غير مدروسة، وسيكون أكثر عرضةً للاستغفال والابتزاز والتلاعب بمشاعره وتوجيهها في اتّجاه مذهبي عصبي ضيق، ما قد يدفعه إلى ما هو أخطر من ذلك فيقع في فخّ التطرّف الديني.

وإنّ المتأمل في واقع الحركات الإسلامية المتشدّدة والتي تتّخذ العنف سبيلها للتغيير، سيجد أنّ لدى أفرادها ـ وهم من الشباب غالباً ـ اختلالاً واضحاً في علاقة العقل بالعاطفة، حيث يتقدّم الخطاب الذي يعمل على الإثارة العاطفية على حساب الخطاب الذي يوازن بين العقل والعاطفة، ولهذا فإنّ أفراد هذه الجماعات تحرّكهم الخطابات الحماسيّة المثيرة للعواطف، أكثر ممّا يحرّكهم

الخطاب العاقل الحكيم الذي ينطلق عن فقه في الدين وفهم في الشريعة وبصيرة في شؤون الحياة، ولعلَّ السِّمةَ الغالبة على الشخصيّة المتطرّفة المتشدّدة هي ضعف العقل والتفكير، كما صرّح بذلك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيما رُوي عنه في نبوءة صادقة تصف حال جماعة تأتي آخر الزمان، يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرميّة لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»(١).

وقصارى القول: إنّ غلبة العاطفة على الإنسان ستقوده إلى التعجّل في اتّخاذ المواقف والتسرّع في إطلاق الأحكام. والعجلة ندامة وسببٌ مباشرٌ للعطب، وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**العجول مخطئ وإن مَلك، والمتأني مصيب وإن هلك**»(٢). ألسنا نرى الكثير من الشباب المتحرّك والثائر يتعجّل قطف الثمار قبل أوانها؟ ويحرق المراحل قبل اكتمال شروطها، وتكون الخيبة هي النتيجة الطبيعية لذلك، وتُصاب الحركة بنكسة كبيرة!

---

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٧٩. بيان: «**حدثاء الأسنان**»، أي صغار السن، و«**سفهاء الأحلام**» أي ضعاف العقول، «**يقولون من خير قول البريّة**»، أي يقولون كلاماً حسناً وطيباً، «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»، أي إنّهم يقولون الحق بألسنتهم ولا يلتزمونه في حياتهم وسلوكهم.

(٢) انظر: عيون الحكم والمواعظ ٢٩.

٥

المثـالـيـة

وثمة ميزة أخرى نرصد حضورها وتواجدها القوي لدى جيل الشباب أيضاً، وهي انجذابهم نحو المثاليّة في الأمور، وتطلّعهم نحو الأفضل والأرقى في كلّ شيء، وهذه ميزة إيجابية وطيبة، وهي إحدى تجليّات الفطرة السليمة. وفي المقابل فإنّا نلاحظ أنّ الشخص الأكبر سناً والذي خَبِر الحياة وعاش الكثير من التجارب يكون أكثر واقعيّة وتكيّفاً مع الظروف الاجتماعية أو السياسية، أو الاقتصادية السائدة.

ونحن هنا لا ندين المثالية بالمطلق، ولا نقبل أو نمتدح الواقعية بالمطلق، فالمثاليّة بما تعكسه من روح متحفزة نحو التغيير، وهمّة عالية تسعى للتجديد وتدفع نحو الإبداع والتغيير، هي شيء طيّب وممدوح ومطلوب، ولا بدّ من استثماره. فالروح الشابّة هي التي غيّرت وجه التاريخ، وقادت الثورات الكبرى وكلّ عمليات التحرّر. وأمّا المثاليّة الحالمة التي لا تقدّر الظروف الموضوعية لأيّ حركة تُقْدِمُ عليها أو خطوة تهمّ بها، أو عمل تسعى إليه، ولا تدرس إمكانيّتها جيداً، فإنّها تقود إلى التهوّر والانتحار، وهي تعيش في حالة من أحلام اليقظة؛ ولذلك فإنّ المثالية الحالمة ـ لجهة سلبياتها على الفرد والمجتمع ـ لا تقلّ ضرراً عن الواقعية الخانعة التي ترضخ للأمر الواقع وتداهنه، متذرعة بعناوين شتى تبرّر لها السكوت والاستسلام ومسايرة الواقع.

إنّنا في الوقت الذي لا نريد للشاب أن يعيش في عالم الأحلام بعيداً عن الواقع، فإنّنا ـ أيضاً ـ لا نريده أن يخضع لهذا الواقع ويستسلم له، وتنهزم إرادته أمام تحدياته. إنّ طموح الإنسان ولا سيما الشاب لا بدّ أن يظلّ كبيراً ، وأمله بالتغيير لا بدّ أن يبقى يقظاً، فيثق بنفسه وبقدراته، ويتحرّك في سبيل تحقيق طموحاته، والإنسان كلّما كان طليعياً فإنّ طموحاته تكون كبيرة ولا يُخفض سقف هذه الطموحات، فله أن يتطلّع ليكون شخصية قيادية في هذه الأمة، كما قال تعالى في محكم كتابه موجّهاً ومرشداً المؤمنين إلى كيفية الدعاء: ﴿**وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[الفرقان: ٧٤]، وفي هذا السياق يمكننا أن نفهم كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً ابنه الحسن عليه السلام: «**ارمِ ببصرك أقصى القوم**»[١]. ولكنّ الإنسان الطليعي لا يجلس حبيس بيته وهو يعيش حلم التغيير أو ينتظر ذلك ليأتيه بالمجان، وإنّما عليه أن يبادر إلى العمل في شتى الساحات الممكنة، وأن يخطو ولو خطوات بسيطة، فإنّها مع الوقت قد تصنع البيئة الملائمة للتغيير. فالقليل الدائم خير من الكثير غير المقدور أو الكثير الضارّ أو المتفرِّق، يقول الغزالي: «ومثال القليل الدائم كقطرات ماءٍ تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفيرة، ولو وقع ذلك على الحجر، ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر»[٢].

إنّ معنى أن تكون واقعياً هو أن تقدِّر إمكاناتك وطاقاتك الواقعية دون مبالغة، ثم تعمل على توظيفها في خدمة القضيّة التي تؤمن بها دون أن تقفز في الهواء أو تراهن على الأوهام والسراب.

---

(١) نهج البلاغة ج١ ص٤٣.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ١١، والمحجة البيضاء للكاشاني ج ٢ ص ٣٥٢.

٦

الشجاعة

وهذا يقودنا في الحقيقة إلى ميزة أخرى تميّز جيل الشباب في العموم، وهي الشجاعة. والشجاعة بما تمثّله من عنفوان، وما تعكسه من روح مقدامة، تعدّ منطلق التغيير وعليها المعوّل في عملية النهوض والتحرّر، ولولا الشجاعة لساد الركود والشلل في الحياة الإنسانية على أصعدتها كافّة، وما عرفت كلّ هذا التطوّر.

لكن يبقى أن نعي ونفهم جيداً معنى الشجاعة، فهي لا تعني التهوّر، ولا تلغي الحكمة والتروي، ومن هنا تبقى شجاعة الفكر والرأي أهم بكثير من شجاعة العضلات. وفي ضوء هذا، فإنّ الشاب الشجاع هو الذي يملك السيطرة على نفسه وانفعالاته، وهو الذي يعي جيداً أنّ الشجاعة هي التي تُملي عليه أن يستمع إلى ذوي الرأي السديد وأصحاب الفكر والتجربة وأن لا يستخفّ بهم، وإنّما يسعى للاستنارة بأفكارهم، والاستماع إلى مشورتهم، وقد قال أبو الطيّب المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أوّل وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرّة ... بلغت من العلياء كلّ مكان
ولربّما طعن الفتى أقرانه ... بالرّأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

والغريب أنّنا نلحظ في أوساط بعض الشباب تصرفات لا تخلو من غرابة، وذلك في سعيهم لإظهار رجوليتهم أو إيهام الآخرين بشجاعتهم وقوتهم، ومن هذه التصرفات إقدام البعض على تضخيم عضلات زنديه من خلال تمارين خاصة أو بواسطة حقنها ببعض الهورمونات، وذلك في محاولة لإيهام الآخرين ولا سيما النساء أنّه يمتلك عضلات ضخمة ومفتولة! وملاحظتنا على هذا التصرف ـ بالإضافة إلى أنّ هذه الهرمونات قد يكون لها بعض المضاعفات السلبيّة على صحة الشاب ولا سيما عندما يتناول جرعات زائدة منها أو لا يحسن استخدامها ـ أنّه يعبّر عن خواء في الفكر وضعف في النفس، فيعمل الشخص على تضخيم عضلاته في محاولة للتعويض النفسي. إننا نريد للشباب أن يمتلك عضلات فكرية قبل كل شيء، وأن ينمّي عقله بهورمونات العلم المفيد والنافع بدل أن ينشغل في كيفيّة تضخيم عضلاته، فالعلم النافع هو الذي يحميه من شر الآخرين، والعقل السليم هو الذي يعطيه معنى الرجولة وليس شكلها الظاهري فحسب، فالرجولة إباء واقتدار، وحزم وحكمة ، وفداء وتحرر، يقول الشاعر موسى الزين شرارة:

فالشعب إن مات الإباء بصدره ... لا يخدعنّك تضخّم بزنوده
إقرأ له أم الكتاب فإنّه ... مَيْتٌ برغم عتاده وعديده

هذا مع أنّنا لا ننكر على الشاب أن يمارس التمارين الرياضيّة ويتحلّى باللياقة البدنيّة أو يهتم بالجمال الظاهري فهذا كلّه مشروع بل قد يكون مطلوباً وضرورياً[1]، ولكنّ ما ننكره عليه هذا الهوس بالمظاهر والشكليّات، والذي يعبّر عنه بعدة تعبيرات، منها هذا السعي إلى تضخيم العضلات والذي يصل ـ في بعض الحالات ـ إلى حدٍ مقزز ومنفّر، والحقيقة أنّ هؤلاء الشباب هم ضحيّة

(١) انظر: المحور السابع.

ثقافة استهلاكية مادية أخلّت بتركيبة الإنسان القائمة على توازن الروح والجسد، فعملت على مصادرة الروح وحوّلت الإنسان إلى جسد بحت، فكان طبيعياً أن يصار إلى الاهتمام بالمظهر على حساب الجوهر، أو يصار إلى العناية بالجسد على حساب الروح.

٧

الشباب والقدوة

إلى ما تقدّم، فإنّ ثمّة ميزة أخرى نجدها حاضرة لدى الشباب، وهي الرغبة في اتخاذ القدوة في الحياة، مع التماهي معها سلوكاً وخُلُقاً، وتقليدها في طريقة الكلام واللّباس وحركات الجسد، ورفع صورها.. وهذه الرغبة هي من الميول الفطريّة التي تنتقل إلى الشباب من مرحلة الطفولة[١]. ووجود القدوة الصالحة في حياة الإنسان أمر في غاية الأهمية، فذاك من العوامل المهمّة والمساعدة على تربية الشخص وتهذيبه واستلهامه للخصال الخيّرة والطيّبة في شخصيّة المقتدَى. ولذا كان من الحريّ بنا أن نعتني بقضيّة القدوة ونعمل بجديّة على دراسة ذهنيّة هذا الجيل، ونتعرف على العناصر التي تجذبه في القدوة وتشدّه إليه، ونتبيّن ما هو المَثَل الأعلى المفضّل عنده؟ وهذا الأمر سوف يساعد على توجيه خطابنا وتركيزه على إبراز نماذج وقدوات من بيئتنا تحمل قيم رسالتنا؛ لأنّنا مع الأسف بتنا أمام ظاهرة غير صحيّة على هذا الصعيد، وهي ظاهرة تقليد الشباب المسلم لرموز من خارج الفضاء الإسلامي ومحاكاته لهم، سواء كانوا من الممثّلين أو المطربين أو لاعبي كرة القدم أو غيرهم، ولا يقف الأمر أحياناً عند حدود الإعجاب، بل يتجاوزه إلى حدّ التماهي بما يعكس خواءً فكرياً

(١) فإنّ الطفل ـ كما هو مشاهد بالعيان ـ ينزع نحو تقليد والديه أو أخوته الأكبر سناً، وهذه النزعة الفطرية هي من ألطاف الله تعالى بالإنسان، إذ هي الطريقة المثلى لتعلّم الكثير من الأشياء والأفعال.

وفراغاً روحيّاً لدى هذا الجيل الشبابي. ومن الأسباب التي تفسِّر هذه الظاهرة وتقف خلفها: حالة التقهقر الحضاري التي أصابت الأمة وأفرزت نتائج سلبية خطيرة، من أبرزها فقدان الثقة بالذات والتشكيك بقدرة الإسلام على مواكبة العصر ومتابعة المستجدات، أو قدرته على النهوض مجدّداً في سياق المنافسة الحضارية، وسيأتي حديث مستفيض عن مسألة فقدان الثقة بالذات وعلاجها في المحور الرابع.

ويهمنا على هذا الصعيد التأكيد على ضرورة ترشيد علاقة الشباب وغيرهم بالقدوة، لتكون مبنيّة على الارتباط به من خلال ما يحمله من عناصر رسالية مضيئة، وليس الارتباط به بطريقة شخصيّة شكليّة بحتة، وهذا ما يحمي العلاقة من الانزلاق إلى متاهات التقديس والمغالاة في الرموز القيادية. وواقعنا ـ مع الأسف ـ يؤشّر إلى أنّ التعلّق بهذه الرموز على الصعيد الشخصي هو أكثر من التعلّق بالمبادىء التي يحملها هؤلاء القادة والرموز، وهذا ما يفسّر لنا ظاهرة محاكاة الرمز والمَثَل الأعلى شكلاً، ورفع صوره والتغنّي باسمه، مع عدم الالتزام بالقيم أو المبادئ التي يحملها، وعدم تمثّل شيء من أخلاقه وتجسيدها. لسنا ننكر بالمطلق على الشباب وغيرهم هذا التعلّق الشخصيّ بالقدوة، أو الميل إلى التماهي الظاهري مع المثل الأعلى عندما يرفع صوره أو يسمّي ابنه باسمه .. لكنّنا نريده ارتباطاً أعمق من ذلك، ليكون ارتباطاً فاعلاً ومؤثّراً ومغيّراً في حياة الشباب.

٨

زَهْوُ الشباب وانتفاخ الشخصيّة

ومن المهم بمكان التنبيه إلى أنّ الكثير من المزايا المتقدّمة إذا لم يتم إخضاعها للعقل والحكمة فإنّها قد تؤثّر سلباً على توازن الشاب الفكري، وعلى صوابية آرائه ومواقفه، وعلى علاقاته بالآخرين، فالشاب المُعْجَب بشجاعته وقوة عضلاته، والمنشغل في جماله ونضارته، قد يدفعه الاستغراق في ذلك إلى الغفلة عن نفسه ونقائصها وما فيها من نقاط ضعف، فيعيش حالة من الزهو والنشوة الخاصة والانتفاخ في الشخصية، وقد يدفعه العجب بالنفس وما تمتلكها من طاقات حيوية إلى ارتكاب الأخطاء، فيقع أسير التكبر والتعجرف وينزلق إلى الاستخفاف بالآخر، وربما قاده ذلك إلى التهور وارتجال المواقف والكلمات، وقد عبّرت بعض الأحاديث عن هذه الحالة بأنّها حالة سكر، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أصناف السُّكْر أربعة: سُّكْر الشباب وسكر المال وسكر النوم وسكر الملك**»(1)، فكما أنّ المال والجاه (المُلْك) يخلقان لدى الكثيرين حالة من الزهو والنشوة التي تعمي صاحبها وربما شلّت عقله، فإنّ للشباب أيضاً الزهو عينه، وكما أنّ النوم يفقد الإنسان وعيه فإنّ نشوة الشباب تسكر الإنسان وتُفقده التوازن العقلي، ومن هنا يكون من الضروري للشاب أن يصحو من هذه النشوة

(١) تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله ص ١٢٤، وهو جزء من الحديث المعروف بحديث الأربعمائة، ولكن المذكور في مصادر أخرى هو « سكر الشراب» بدل: « سكر الشباب»، انظر: الخصال للصدوق ص ٦٣٦، ومعاني الأخبار ص ٣٦٥.

الخادعة، ويتنبّه إلى أنّ العقل هو زينة الإنسان وهو أساس القوة لديه، ولا قيمة للشجاعة التي تبتعد عن الحكمة، ويجدر بالشاب أن يعمل دائماً على تهذيب نفسه وإصلاحها وإيقاظها من كبوتها.

وعليه أن يضع في حسبانه أنّ طاقة الشباب هذه على أهميتها وبشتى مزاياها المشار إليها لا تدوم ولا تستمر، فهي مرحلة من مراحل عمر الإنسان، وسوف تنتهي وتنقضي لذاتها، وإذا ما فُقدت فهي لن تُعوّض ولن تعود، فالمال ـ مثلاً ـ إذا تلف أو سُرِق فبالإمكان تعويضه، والجاه ـ أيضاً ـ يمكن تعويضه، ولكنّ الشباب لا يمكن تعويضه، ولا مجال لكي يعود، وهذا ما عبّرت عنه الكلمة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**شيئان لا يَعرِفُ فضلَهما إلاّ من فقدهما: الشباب والعافية**»(١). وقال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيبُ.

وفي ضوء ذلك، فإنّ الشاب الناجح هو الذي يبادر إلى استثمار هذه المرحلة العمريّة المتفجرة عطاءً وحيوية قبل فوات الأوان، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا علي بادر بأربع قبل أربع، بشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل مماتك**»(٢).

كانت هذه وقفة سريعة عند أهم مزايا الشباب وخصائصه، وإنّما قدّمنا الحديث عن هذه المزايا لأنّ لها ارتباطاً وثيقاً بمجمل المحاور اللّاحقة التي سيتّم تناولها في هذا الكتاب، فالحديث المتقدّم عن قرب الشباب من الفطرة الصافية له دوره الكبير فيما سنتناوله في المحور الثالث من علاقة الشباب مع الله تعالى أو كيفية مساعدته على تهذيبه لنفسه؛ والطاقة والحيويّة والشجاعة التي يمتاز بها الشباب لها ارتباطها المؤثّر فيما سنتناوله في المحور الرابع من دور الشباب في عملية

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٢٩٨.
(٢) الخصال للصدوق ص ٢٣٩، ومن لا يحضره الفقيه ج ٤ ص ٣٥٧.

التغيير والنهوض، وقوّة الأحاسيس العاطفية لدى الشباب لها تأثيرها على ذلك أيضاً، ولها دورها فيما سوف يتمّ تناوله في المحور الثاني من الحديث عن مسؤوليات الشباب.. وهكذا الحال في سائر المزايا التي قدمنا الحديث عنها.

حيوية الشباب وحكمة الشيوخ

وفي ختام هذا المحور يجدر بنا ـ أيضاً ـ التنبيه إلى أنّ الحديث عن الشباب ومزاياهم ودورهم في عملية التغيير الاجتماعي والسياسي، لا ينبغي أن يُفهم ـ خطأً ـ على أنّه انتقاص من دور الشيوخ ومكانتهم، فلكلٍّ خصوصياته ومزاياه، ولكلٍّ دوره ووظيفته، فللشاب حيويّته وحماسته، وللشيخ حكمته وخبرته. وحكمة الشيوخ تُغني حياة الشاب وتجربته، وإذا اجتمعت حيويّة الشباب وحكمة الشيوخ، وانتظمتا في نطاق عمل معيّن كان ذلك مؤشّراً على نجاح العمل وسداده، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رأي الشيخ أحبّ إليّ من جَلَدِ الغلام**»[1]، وجَلَده: قوّته. ولذا يُفترض بالشاب أن لا يكتفي بشجاعته أو يغتر بقوة عضلاته، فيتخيّل أنّ ذلك وحده كافٍ في تحقيق أهدافه والوصول إلى مبتغاه أو الانتصار في المعارك، فالتجربة والحكمة التي يمتلكها الشيوخ هي في معظم الأحيان أهم من قوة الشباب. والحروب أيضاً كغيرها من الأعمال لا تُقاد بالعضلات فحسب، بل تُقاد ـ في الأساس ـ بالتخطيط والرأي الصائب. وصحيح أنّه مع تقدّم العمر بالإنسان فإنّ جسده يشيخ ويتعب، ولكنّ عقله لا يشيخ بل يزداد اكتمالاً ونضوجاً[2]، يقول أحمد صافي النجفي:

عمري بروحي لا بعدّ سنيني ... فلأسخرنّ غداً من التسعين

عمري إلى السبعين يركض مسرعاً ... والروح باقية على العشرين

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص١٩.

(٢) إلا في حالات مرضيّة خاصة ومعروفة، وهي ما يعرف بمرض الزهايمر (الخرف).

ولهذا فلا يفترض بالإنسان إذا تقدّم به العمر أن يتخلّى عن مسؤوليّاته أو يتقاعد عن العمل والعطاء أو العلم والدرس، وإنّما عليه القيام بدوره والعمل لآخرته ودنياه ما دام في العمر بقية، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ**﴾[الانشقاق: ٦].

المحور الثاني

مسؤوليات الشباب (علم وعمل)

أولاً: الشباب والمسؤولية

ثانياً: الشباب في خط العلم والمعرفة

ثالثاً: العمل سرّ النجاح

رابعاً: دور الشباب في العمل الرسالي

ما هي أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الشباب في هذه الحياة؟

ماذا عن مسؤوليّة الشباب في العلم والعمل؟

ما هو دور الشباب في العمل الرسالي؟

إنّها أسئلة نطرحها على الشباب كما نطرحها على أنفسنا، لنتعاون معاً في التماس الجواب الصحيح عنها، وهذا ما نعرض إليه في النقاط الأربع التالية:

النقطة الأولى: وهي بعنوان «الشباب والمسؤولية»، ويدور الحديث فيها عن معنى المسؤولية، وأهم مجالاتها، وكيفية ممارستها من قبل الشباب.

النقطة الثانية: وهي بعنوان «الشباب في خط العلم والمعرفة»، ونسلّط الضوء فيها على المسؤولية الأولى الملقاة على عاتق الشباب، وهي مسؤولية العلم والمعرفة.

النقطة الثالثة: ويدور الحديث فيها عن المسؤولية الثانية التي لا بدّ أن يضطلع بها الشباب، وهي مسؤولية العمل باعتباره مفتاح النجاح والتطور.

النقطة الرابعة: وهي بعنوان «دور الشباب في العمل الرسالي»، ونتحدّث فيها عن مهمة الشباب في العمل الرسالي والحركي.

١

الشباب والمسؤولية

كيف يفهم جيل الشباب المسؤولية؟ وكيف يمارسونها ؟ وما هي حدود المسؤولية وأهمّ مجالاتها؟

١ ـ كيف نفهم المسؤولية؟

المسؤولية هي التعبير الأرقى عن إنسانية الإنسان، فأنت لا يمكن أن تعيش إنسانيتك الحقّة خارج نطاق المسؤولية والالتزام. والمسؤولية هي التي تميّزنا عن سائر المخلوقات التي تحرّكها غريزتها، وتفعل ما تمليه عليها هذه الغريزة، ومن هنا ففي منطق الإسلام لا يحقّ لك أن تقول: «لا يخصّني ولا شأن لي»، أو أن تقول: «نفسي نفسي والنجاة من النار» كما جاء في المثل الشعبي.

ثمّ إنّ المسؤولية ليست امتيازاً أو سلطة تدفعك للتكبر والاستعلاء على الآخرين، وإنّما هي أمانة والتزام.

٢ ـ ما هي مجالات المسؤوليّة وحدودها؟

ومسؤولية الإنسان عموماً والشباب خصوصاً لها مجالات عدّة:

أولاً: أن يكون مسؤولاً عن نفسه فينمّيها بالعلم والمعرفة وبكلّ ما يُثري العقل

ويُغني الروح. ومسؤولية الإنسان عن نفسه تعني أيضاً مسؤوليّته عن جوارحه من البصر والسمع والفؤاد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

ثانياً: وأن يكون مسؤولاً عن أسرته وأهل بيته وأطفاله، بأن يرعاهم ويقدّم لهم الغذاء الروحي كما يقدّم لهم الغذاء المادي، وأن يجنّبهم شقاء الآخرة كما يجنّبهم عناء الدنيا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

ثالثاً: وأن يكون مسؤولاً عن طاقاته، علمه، فكره، ماله، وجاهه، وغيرها من الطاقات، بحيث لا يبدّدها ولا يضيّعها، فهذه نِعَمٌ وسوف يُسأل عنها يوم الحساب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[التكاثر: ٨]. والشباب هو من أهم الطاقات التي علينا أنّ نعرف كيف نوظفها ونستثمرها.

رابعاً: وأن يكون مسؤولاً عن كلمته، فيعرف متى وكيف يطلقها، فالكلمة قد تدمّر وقد تعمّر، قد تبني وقد تخرّب، والكلمة في وثاقك ما لم تنطق بها، فإذا تفوّهت بها صرت في وثاقها، قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الكلام في وثاقك ما لم تتكلّم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك**(١)**، فرُبّ كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة**»(٢).

خامساً: وأن يكون مسؤولاً عن أمّته وعن مجتمعه، وعن قضايا الإنسان عامة، فالمسلم لا بدّ أن يتحسس هموم الناس وآلامهم ومعاناتهم. وحسّ المسؤولية هذا يوليه الإسلام أهمية خاصة ويهتمّ كثيراً بتنميته، لأنّه أساس كلّ خير وهو

---

(١) الوَرِق: الفضة المسكوكة، قال تعالى على لسان أهل الكهف: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[الكهف: ١٩].

(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٩١.

الذي يطوّر المجتمع ويدفع الإنسان نحو التغيير، فيبادر إلى إصلاح ما يراه فاسداً، وإتمام ما يراه ناقصاً، ونصيحة مَنْ يحتاج إلى النصيحة، ومن هنا ورد في الأحاديث الشريفة التأكيد على هذا الحسّ، فعن رسول الله ﷺ: «**من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم**»(١).

ولأنّ حسّ المسؤوليّة يحتاج إلى تعميق في النفس ليغدو ملكة راسخة كان من الأهمية بمكان التوجّه إلى الله تعالى في حالة الدعاء والطلب إليه بأن يعيننا على القيام بمسؤولياتنا الاجتماعية، ومن هنا فقد لاحظنا أنّ الأدعية الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام، تربّي وتنمّي حسّ المسؤولية لدى الإنسان المسلم، وتحثّه على الشعور بالآخرين.

وتعال أيّها الشاب المسلم، واقرأ معي هذا الدعاء المروي عن رسول الله ﷺ والذي كان يقرأ به عقيب كلّ فريضة في شهر رمضان، لتلاحظ وتكتشف هذا الحضور المكثَف في فقرات الدعاء لهموم الناس، وآلامهم وقضاياهم والتي يُراد تعميقها في النفس من خلال جوّ الدعاء، يقول الدعاء: «**اللهمّ أدخل على أهل القبور السرور، اللهمّ أغنِ كلّ فقير، اللهمّ أشبع كلّ جائع، اللهمّ اكسُ كلّ عريان، اللهمّ اقضِ دينَ كلِّ مَدين، اللهمّ فرّج عن كلّ مكروب، اللهمّ ردّ كلّ غريب، اللهمّ فُكّ كلّ أسير، اللهمّ أصلح كلّ فاسد من أمور المسلمين، اللهمّ اشفِ كلّ مريض، اللهمّ سُدّ فقرنا بغناك، اللهمّ غيّر سوء حالنا بحسن حالك، اللهمّ اقضِ عنا الدَّين وأغننا من الفقر إنّك على كلّ شيء قدير**»(٢).

وتعال معي إلى هذا البرنامج اليومي الذي أعدّه لنا الإمام زين العابدين عليه السلام من خلال بعض فقرات دعائه عند الصباح والمساء، لتجد هذا الإصرار على

(١) الكافي ج٢ ص١٦٣.
(٢) المصباح للكفعمي ص٧١٦.

تنمية الحسّ الاجتماعي لدى الإنسان كي لا يكون أنانياً يفكّر بنفسه وعائلته فقط، يقول عليه السلام: «**اللهمّ صلّ على محمد وآله، ووفّقنا في يومنا هذا وليلتنا هذه وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير، وهجران الشرّ، وشكر النعم، واتّباع السنُّن ومجانبة البدع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحياطة الإسلام، وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحق وإعزازه، وإرشاد الضّال، ومعاونة الضعيف، وإدراك اللهيف**»(١).

ولنا وقفة مع فقرات هذا الدعاء في المحور الرابع.

٣ ـ كيف نمارس المسؤولية؟

وما يريده لنا الله تعالى ـ شيباً وشباناً ـ هو أنْ نمارس المسؤولية في خطّ طاعته، والسعي إلى نيل رضوانه، فنشعر برقابته في كلّ ما نُقْدِمُ عليه، ونتحسّس حضوره تعالى في كلّ ما نفعله أو نفكّر بفعله، وبكلمة أخرى: إنّ المطلوب منّا أن نمارس المسؤولية من موقع مَنْ هو مستخلَف من قبل الله تعالى في هذه الأرض، والخليفة مستأمَن فيما استُخلف عليه وعُهد به إليه، فلا ينحرف عن خطّ الخلافة طرفةَ عينٍ أبداً في كلّ ما أولاه الله من نعم، وسخّره له من مقدرات وزوّده به من طاقات، وإلا كان خائناً في حفظ الأمانة مفرِّطاً في حمل المسؤولية. إنّ الخلافة تحتّم علينا أن نتخلّق بأخلاق مَنِ استخْلَفَنا، وهو الله سبحانه وتعالى، وأن لا نستغل ما أولانا من نعم في سبيل عصيانه والتمرّد عليه، يقول علي عليه السلام فيما روي عنه: «**أقلُّ ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنِعَمه على معاصيه**»(٢). والشباب هو من أجلّ النِّعم التي حبانا الله بها، وعلينا أن نؤدّي واجب شكرها لله تعالى، بأن لا نبدّدها أو نستنزفها فيما يبعدنا عنه عزّ وجلّ.

(١) الصحيفة السجادية، دعاؤه عند الصباح والمساء.

(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٧٨.

الموظف وحسّ المسؤولية

وعندما تكون في موقع المسؤولية العامة، فعليك أن تحسب حساباً لكلّ خطواتك وأقوالك وأفعالك، وعليك أن تعلم أنّ مواقع المسؤولية العامة ليست ملكاً لك ولا دكاناً أو مزرعة لأقاربك وأتباعك، إنّها ملكُ الأمة، وأيّ تقصير أو تعدٍّ في حفظها هو خيانة للأمّة، لقد كان علي عليه السلام يُوصي عمّاله برعاية المال العام في صغائر الأمور فضلاً عن عظمائها، يقول عليه السلام: «**أدقّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عني فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإياكم والإكثار، فإنّ أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار**»[1].

انظروا وتأمّلوا أيّها الشباب في هذه الوصايا التي تربّي في الموظف حسّ المسؤولية عمّا هو مسؤول عنه، بحيث إنّ عليه أن يلتفت إلى كميّة الحبر التي يكتب بها رسائله، وأن يكتب ما هو ضروري، بعيداً عن الإنشائيات الفارغة والكلمات المسجعة، كلّ ذلك كي لا يسرف في استخدام المال العام! سلام الله عليك يا أمير المؤمنين وميزان العدل، والله لو جئتنا ورأيت واقع الموظّفين والمسؤولين عن المال العام والحقّ الشرعي، وكيف يبذّرون يميناً وشمالاً ويوزّعون المال على الأصهار والأقارب دون وازع من ضمير أو رادع من قانون أو أخلاق، لشعرت بالغربة ولأعلنتها حرباً شعواء على هؤلاء، وفضحت زيفهم ولو كانوا يهتفون باسمك.

(١) الخصال للصدوق ص٣١٠.

٢

الشباب في خط العلم والمعرفة

طرحنا في مستهلّ هذا المحور سؤالاً عن المسؤوليات المُلقاة على عاتق الشباب.

ويمكننا أن نلخّص الإجابة عن هذا السؤال بكلمة مختصرة وهي أنّ مسؤولية الشباب تكمن في العلم والعمل، وهي مسؤولية جليلة وعظيمة، وإذا أحسن الشباب القيام بها كان ذلك مؤشراً صحيّاً على تعافي الأمة وسلامتها، صحيح أنّ العلم والعمل ليسا حكراً على الشباب وحدهم، وإنّما هما من مسؤولية الجميع، بيد أنّ الشباب بما أنّهم عنصر القوة في الأمة وسرّ طاقتها وحيويتها فإذا ساروا في خطِ العلم والعمل كان ذلك مؤذناً بتقدّم الأمة ورقيّها، وهذا ما دفع الدول المتمدنة إلى الاهتمام بعنصر الشباب وإيلائهم أهميّة خاصة فأنشأت هذه الدول وزارة خاصّة باسم وزارة الشباب.

ونحن نخصّص هذه الفقرة للحديث عن مسؤولية العلم ودور الشباب في ذلك، ونخصّص الفقرة اللّاحقة للحديث عن مسؤولية الشباب في العمل، وإليك تفصيل الكلام في الفقرة الأولى:

١ ـ العلم واجب إلهيّ

إنّ المسؤولية الأساس والأولى التي تقع على عاتق الشباب ـ بما أنّهم أمل الأمة ومستقبلها ـ هي مسؤولية الأخذ بأسباب العلم والمعرفة في شتى المجالات، فالمستقبل لا يُبنى إلا بالعلم، وهل تتخلّف الأمم إلا عندما يبتعد أبناؤها عن الأخذ بأسباب العلم؟ يقول الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «**لست أُحبُّ أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالتين: إمّا عالماً أو متعلّماً، فإن لم يفعل فرّط، فإن فرّط ضيّع، وإن ضيّع أثِم، وإن أَثِم سكن النار والذي بعث محمداً بالحق**»[١].

ومن هنا، فإنّ على الإنسان المسلم ولا سيّما الشاب أن يعيش همّ العلم وقلق المعرفة، ليفكّر على الدوام، ليس فقط في إخراج نفسه من ظلمة الجهل، بل وفي كيفية إخراج أمّته من هذه الظلمة، وكيف يساهم في تقدّمها، لترتقي إلى مستواها اللّائق بها كأمّة أراد لها الله تعالى أن تكون شاهدة على سائر الأمم قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا** ﴾[البقرة: ١٤٣]

وإنّ ذلك لن يحصل بالتأكيد إلا إذا قُدْنا معركةً ضدّ الجهل واعتبرناه أعدى أعدائنا، كما هو كذلك بالفعل، وورد في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صديق كلّ امرء عقله وعدوه جهله**»[٢]، إنّ ضريبة الجهل هي التخلّف، وهو بيئة حاضنة وملائمة لكلّ أشكال العنف والإفراط، في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: «**لا ترى الجاهل إلاّ مُفْرِطاً أو مُفَرّطاً**[٣]»، وكذلك فإنّ ثمرة الجهل ونتيجته هي انتشار العداوة والبغضاء بين الناس، لأنّ «**الناس أعداء**

(١) أمالي الطوسي ص٣٠٣.
(٢) المحاسن للبرقي ج ١ص ١٩٤، والكافي ج ١ ص ١١، وعلل الشرائع للصدوق ج١ ص ١٠١.
(٣) نهج البلاغة ج ٤ ص ١٥.

ما جهلوا»(١)، وإذا اقترن الجهل بالتديّن فتلك المصيبة الكبرى، لأنّه سوف يزيد الشخص تشدّداً وتزمتاً وعدوانية، وأخطر ما في الأمر أنّه سوف يمارس عدوانيته باسم الدين! ولهذا قال علي عليه السلام: «**ما قصم ظهري إلاّ رجلان: عالم متهتّك وجاهل متنسّك، هذا ينفّر عن حقّه بتهتكه وهذا يدعو إلى باطله بنسكه**»(٢).

وأعتقد أننا لا نبالغ في القول: إنّ باب العلم هو من أهم الأبواب التي تقود الإنسان إلى الإيمان؛ لأنّ العالِمَ يدرك ما لا يدركه الجاهل، واحترامه لعلمه سيدفعه إلى البحث والنظر وعدم الوقوف عند ما ورثه عن الآباء والأجداد. وعندما يُسرِّح النظر في آفاق السماوات والأرض، فإنّه سيرى الله تعالى في كلّ آية، صغيرة كانت أو كبيرة، وعندما يتأمّل في نظام هذا الكون وأسراره فسيخرّ خاشعاً لله تعالى، وهذا يعني أنّه كلّما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً والتزاماً، وكلما ازداد جهلاً ازداد تزمّتاً وبعداً عن الله سبحانه وتعالى. وفي ضوء هذا، تعرف السرّ في اعتماد القرآن الكريم على الشواهد والآيات الآفاقيّة، أكثر من غيرها في استدلاله على وجود الله تَعَالَى: ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ**﴾[فصلت: ٥٣].

٢ ـ العلم وتنمية العقل

وعندما نتحدّث عن العلم، فلا يمكننا أن نُغفل الحديث عن العقل، باعتباره مصدر المعرفة الأساسيّ ووسيلة الإبداع، وهو دليل الإنسان ومرشده إلى ربّه وخالقه، كما هو وسيلة اكتشاف الكون. والمفروض بالإنسان أن يُبقي عقلَه على الدوام يقظاً متحرّكاً، لأنّ سكون العقل يعني سكون الحياة، ومن هنا نعرف لماذا استعاذ عليٌّ عليه السلام من سبات العقل كما يستعيذ المؤمن من شرّ الشيطان الرجيم،

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ٤٧٩

يقول عليه السلام: «**نعوذ بالله من سُبات العقل وقبح الزلل**»[1].

وما يريده الإسلام للشاب أن يعمل دائماً على تنمية عقله وتغذيته بكلّ جديد نافع، ولا سيما أنّ عقل الشاب هو بطبيعته عقل متحفّز للمعرفة، ومتطلّع إلى الحقيقة، وعلى الشاب أن لا يكون من الذين يؤجّرون عقولهم للآخر ليفكّر عنهم، أو مِن الذين تتحكّم بهم عواطفهم وانفعالاتهم، فيميلون مع كلّ ريح، وينساقون مع كلّ «موضة» جديدة؛ إنّ عقولنا أمانة الله عندنا، ولا يجوز لنا أن نبدّد هذه النعمة، ففي الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**قلْ خيراً وأبلغ خيراً ولا تكن إمّعة**، قال: وما الإمّعة؟ قال: **تقول: أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس، إنّ رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **قال: يا أيّها الناس إنّما هما نَجدان نَجْدُ خير ونَجْدُ شرّ، فلا يكنْ نجدُ الشّر أحبَّ إليكم من نجد الخير**»[2].

وعلينا أن نعلم أنّ سبباً أساسياً لدخول أهل النار في النار، هو في أنّهم لم يحرّكوا عقولهم وتفكيرهم، بل ركنوا إلى تقليد الآباء والأجداد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾[الملك: ١٠].

إنّ على الشاب أن يعي جيداً أنّ قوة الإنسان ليست فقط في عضلاته، بل هي قبل كلّ شيء في عقله، وأنّ إيمانه ـ أيضاً ـ هو على قدر عقله، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قلت له: «فلان في عبادته ودينه وفضله، فقال: **كيف عقله؟** قلت: لا أدري، فقال: **إنّ الثواب على قدر العقل، إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة كثيرة الشجر ظاهرة الماء، وإنّ مَلَكاً من الملائكة مرّ به فقال: يا ربَّ أرني ثواب عبدك هذا فأراه الله تعالى**

(١) نهج البلاغة ج٢ ص٢١٨.

(٢) أمالي المفيد ص ٢١١، وروى المقطع الأول منه في معاني الأخبار ص ٢٦٦. وأما في مصادر السنة فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تكونوا إمّعة تقولون إنْ أحسن الناس أحسنا، وإنْ ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا**»، انظر: سنن الترمذي ج٣ ص ٢٤٦.

ذلك فاستقلّه الملك، فأوحى الله إليه أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي فقال (أي العابد) له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إنّ مكانك لنزه وما يصلح إلاّ للعبادة، فقال له العابد: إنّ لمكاننا هذا عيباً، فقال له وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك: إنّما أثيبه على قدر عقله!»[(١)].

والرواياتُ المؤكِّدةُ على أهميّة العقل وامتداحِ الإسلام له كثيرةٌ جداً وتحتاج إلى كتاب مستقل لإحصائها.

الطيران بجناحين

أيها الشباب.. إنّ الإنسان إنّما تأهل ليكون خليفة الله على الأرض لأنّه يمتلك عقلاً، ومتى تجمّد العقل أو كفّ عن الحراك أو حوصر بالأغلال والأهواء سقط الإنسان وأخلد إلى الأرض.. وإنّ مهمّة العقل هي أن يطرح الأسئلة ويجد الأجوبة والحلول لها، وأن يدرس التجربة الإنسانية بكلّ أبعادها ويضعها على مشرحة البحث، أين تقدمّت وأين تعثّرت؟ وأين تخلّفت وتأخّرت؟ ولماذا؟ إن العقل لا يفترض به أن ينهمك في تبرير ما هو كائن بل عليه التبصر فيما ينبغي أن يكون.

وقلق المعرفة هذا هو الذي يصنع المثقّف الحقيقي، فالثقافة ليست جمع معلوماتٍ وحشوَ الدماغ بها، وإنّما الثقافة منهجٌ في التفكير واكتسابُ مهاراتٍ تمكّنُ من تنسيقِ المعلومات والبناء عليها في عمليّة التغيير وفي التقدّم نحو الأفضل.

(١) الكافي ج١ ص١٢، وأمالي الصدوق ص٥٠٤.

لقد ابتُليت الإنسانية بعقلين على طرفَي نقيض:

١ـ عقل غَيْبي (عُرف به أهل الشرق) أوغل في التجريد والجمود على المعنويات، والبحث حصراً في أمر المعاد، وابتعد عن التفكير في شؤون المعاش.

٢ـ وعقل آخر مادي بحت (عُرف به أهل الغرب) أوغل في العمل لأجل تحقيق «الوسائل» وابتعد عن التفكير في الغايات والأهداف. إنّ عقل الإنسان في الغرب شغله سؤال «كيف؟» ولا يعنيه سؤال: «لماذا؟»، إنّه يفكّر على الشكل التالي: كيف أكون قوياً؟ كيف أستطيع السيطرة على العالم؟ كيف أبلغ الذروة العلميّة؟ كيف أحقّق الرفاهية؟ ولكنّه لا يسأل نفسه: لماذا؟ وما هي الغاية من القوة؟ وما هو هدف الرفاهية؟ وماذا بعد كلّ هذا الجاه؟

وأعتقد أنّ هذين العقلين إذا انفكا وانفصلا فستكون البشرية أمام مشكلة حقيقية، لأنّهما كجناحي طائر لا يستطيع الإنسان أن يتقدّم ويصل إلى السعادة المنشودة إلا بهما.

وإنّ المتأمّل في النصوص القرآنية يجدها قد أكّدت بشكل واضح لا لبس فيه على أهميّة هذين الجناحين وضرورتهما معاً لنجاح الإنسان في مهمّة إعمار الأرض التي أوكل بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ**﴾[هود: ٦١]. والعمران المطلوب هو عمرانها المعنوي والمادي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾[القصص: ٧٧]، إنّ هذين الجناحين يجمعان الخير كلّه، خير الدنيا والآخرة، وقد قال النبي ﷺ كلمة هي من جوامع كلماته: «**إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة**»[1].

(١) الأمالي للشيخ الطوسي ص ٥٨٣، وكنز العمال ج ٣ ص ١١٤، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣.

والتجربة الإسلامية التاريخية قد أوضحت وأكّدت بشكل جليّ أنّ المسلمين عندما طاروا بهذين الجناحين حلّقوا في العالم بأجمعه وتقدّموا وأصبحوا حاجة للأمم جميعاً، فقد «عَرَفَ روادُ الإسلام الأوائل بفضل انفتاحهم الفكري هذا، الذي دعا إليه القرآن في كلّ صفحة من صفحاته، كيف يترجمون ويفهمون ويتمثّلون أرفع المساهمات العلميّة للهند وبيزنطة وفارس، من الرياضيات إلى الطب، وعرفوا أيضاً كيف يعيدون التفكير فيها بهدف إعطائها معنىً جديداً انطلاقاً من معتقداتهم الإسلامية، فلم يصبحوا بذلك مجرّد نَقَلَة لمجمل العلم القديم، بل خلاقين لثقافة جديدة جعلتهم معلمي العالم لعدّة قرون»[1].

وأما عندما غلب على المسلمين العقلُ التجريدي الغيبيّ الذي فهم الزهد في الدنيا بطريقة خاطئة ما جعلهم يعزفون عن علوم الحياة ولا يعيرونها أهميّة، بل ربما اعتبر بعضهم أنّ الانشغال في علوم الحياة غير مناسب للأشخاص الربانيّين والإلهيّين، لدرجة لاحظنا معها أنّ صدر المتألّهين الشيرازي يعيب على ابن سينا اشتغاله بالطبيعيات، ويُرجع ما يراه أخطاءً عند الأخير في الإلهيات إلى صرف وقته في العلوم الطبيعية أكثر من صرفه في الإلهيات[2]، إنّ اختلال النظرة المتوازنة إلى الدنيا والآخرة وإلى الروح والمادة أورثت المسلمين فائضاً من الزهد غير المبرّر، وهو ما دفعهم إلى أحضان التخلف وجعلهم يتأخّرون عن ركب التطوّر العلمي، ويحضرني هنا نصٌّ لأحد علماء المسلمين وهو الشيخ محمد القرشي المعروف بابن الأخوة المتوفّى عام ٧٢٩هـ في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة» حيث يتحدّث عن عزوف المسلمين عن علم الطب مع أنّه من فروض

(١) غارودي، روجيه، الإسلام الحي، ترجمة: دلال بواب ضاهر، ومحمد كامل ضاهر، دار البيروني، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٨٦.

(٢) انظر: نصّ صدر المتألهين في كتابه: «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ج٩، ص١٩٩. ولاحظ للتوسعة حول هذا الموضوع ما ذكرناه في كتاب أصول الاجتهاد الكلامي (دراسة في المنهج) ص٥٨.

الكفاية، بل لم يجد في مرحلته الزمنية تلك طبيباً في بلاد المسلمين إلا وهو من أهل الكتاب! ويضيف: «ولا نرى أحداً يشتغل به (علم الطب) ويتهافتون (يقصد طلاب العلم المسلمين) على علم الفقه، ولا سيما الخلافيّات والجدليّات، والبلد مشحون من الفقهاء ممّن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعري كيف يرخّص الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة (يقصد علم الفقه) وإهمال ما لا قائم به!» ويقصد علم الطب، وبعد أن يطرح سؤالاً عن سبب إهمال علم الطب، فإنّه يقدّم جواباً صريحاً عن ذلك، مفاده أنّ علم الطب لا يشكّل وسيلة للسلطة، وفحوى كلامه أنّ علم الفقه قد أصبح آلة للدنيا ووسيلة للسلطة! يقول: «هل لهذا سبب؟ إلّا أنّ الطبّ ليس يتيسّر التوصّل به إلى تولّي القضاء والحكومة والتقدّم به على الأقران، والتسلّط به على الأعداء»(١).

٣ ـ الشباب وثقافة السؤال

ولا يسعنا المرور على قضيّة العلم دون أن نتوقّف عند واحد من أهمّ مفاتيح المعرفة الإنسانية، وأعظم مدخل للعلم وسبيل التطور، ألا وهو السؤال. والسؤال ينطلق من حالة فطريّة، وهي فطرة حبّ المعرفة والاستطلاع والاكتشاف لدى الإنسان، وأكثر ما نجد هذه الغريزة أو الفطرة لدى الطفل الصغير، حيث نراه يسأل عن كلّ ما يجهله ممّا تراه عيناه، ولولا هذه الفطرة لديه لما تعرّف على الأشياء ولما نما عقله ولا تراكمت معرفته. والملاحظ أنّ هذه الفطرة تستمرّ بوتيرة معينة إلى مرحلة الشباب الأولى، ثم إنّه وبصرف النظر عن الدافع الفطري نحو السؤال، فإنّ السؤال بما أنّه جسر العبور من ظلمة الجهل إلى نور العلم يكون ضرورياً لكلّ إنسان.

(١) ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨هـ ـ ٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطبعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة ١٩٧٦م ص ٢٥٤.

ولهذا فلا يصحّ للشاب أو غيره أن يعزف عن السؤال، أو يخجل من طرحه أو يشعر بالحرج من أنّ يقال له: إنك جاهل، فقد ورد في الحديث الشريف: «**دواء العَيّ السؤال**»[1]، والعي بمعنى: التحيّر والجهل، وعن رسول الله ﷺ: «**العلم خزائن ومفاتحه السؤال، فاسألوا رحمكم الله فإنّه يؤجر أربعة: السائل والمتكلّم والمستمع والمجيب له**»[2].

وفي الوقت الذي نؤكّد على ضرورة السؤال، فلا بد أن نملك ثقافة السؤال لنعرف: كيف نسأل؟ وماذا نسأل؟ ومن نسأل؟

أ ـ من نسأل؟

ولنبدأ بالإجابة عن النقطة الأخيرة «من نسأل؟»، ونترك الإجابة للقرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[النحل: ٤٣]، وهذه الآية كما أمرت بالسؤال، فإنّها حدّدت لنا من نسأل، إذ ليس كلّ شخص يُسأل، وإنّما علينا أن نسأل «أهل الذكر»، وأهل الذكر هم أهل الاطّلاع والمعرفة، ولئن كان بعض المفسرين ذكر أنّ المراد بأهل الذكر في الآية «أهل الكتاب» بملاحظة سياق الآية، أو أنّ المراد بهم أهل البيت عليهم السلام فقد ورد في بعض روايات الأئمة عليهم السلام: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون»[3]، بيدّ أنّ ذلك لا يمنع من التمسك بعموم لفظ الآية، لكلّ من يملك علماً ومعرفة، ويملك تقوى تحجزه عن القول بغير علم، أو الإفتاء تبعاً للهوى، ويلاحظ أنّ الآية قد وصفت المسؤولين (مَنْ يتوجّه إليهم السؤال) بأهل الذكر، وأهل الذكر هم أهل العلم والورع، وقد سأل الحواريون عيسى بن مريم: مَنْ نجالس؟ قال: «**مَنْ يذكركم الله رؤيتُه ويزيد في علمكم منطقُه**

---

(١) الكافي ج١ ص٤٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١ ص٣٢.

(٣) تفسير الصافي: ج٣ ص٣٣١.

ويُرَغِّبكم في الآخرة عَمَلهُ»[١].

ومن هنا، كان السؤال مسؤولية، وكان الاستماع أيضاً مسؤولية، ففي الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان**»[٢].

ب ـ كيف نسأل؟

وكما عليك أن تحدد من هو الشخص المسؤول، فإنّ عليك أن تُحسن طرح السؤال، لتعرف ما تسأل؟ وما لا تسأل؟ ولا شكّ أنّ حسن السؤال له دور كبير في وصولك إلى مرادك، بينما إذا لم تحسن السؤال فإنّك قد تَتْعَبُ كثيراً وتُتعِبُ المسؤول منه، ولذا ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حسن السؤال نصف العلم**»[٣].

وإنّ حسن السؤال ضروري، سواء سألت الله تعالى وطلبت إليه أمراً ما أم سألت العبد، فإنّ من لا يعرف ماذا يسأل قد يُضيّع عليه الفرص، أسمعتم بقصة[٤] ذاك الشخص الذي أُلهم في ليلة القدر أنّ الله تعالى قد استجاب لك ثلاثة أدعية، فاسأل ما يحلو لك؟ أتدرون ماذا فعل؟ لقد ضيّع هذه الفرصة الذهبية، كيف؟ أخبر زوجته بالأمر، فقالت له بإلحاح: أريد منك دعاءً واحداً من الأدعية الثلاثة، قال: وما هو طلبك؟ قالت: طلبي أن يجعلني الله أجمل امرأة في الدنيا، ففعل الرجل ودعا لزوجته واستجيب دعاؤه، فلما صارت زوجته أجمل امرأة أخذت تتكبر عليه بسبب ما رأته من جمالها، فغضب الرجل وانزعج لسوء تصرّفها، فدعا الله تعالى بأن يجعلها أقبح امرأة في الدنيا، وبذلك ضاع منه دعاء آخر على

---

(١) الكافي ج١ ص٣٩.
(٢) الكافي ج٦ ص٤٣٥.
(٣) تحف العقول ص٥٦ ومجمع الزوائد ج١ ص١٦٠.
(٤) هي قصة نوردها للعبرة دون ضمان واقعيتها.

شيء تافه، وبقي لديه دعاء واحد فماذا حصل؟ لما رأى أولادُ المرأة أمَّهم على هذه الحالة القبيحة قالوا لأبيهم: هذه أمّنا وإننا نكره رؤيتها على هذه الحال، وقد أصابنا العار ممّا جرى لها، فادعُ الله أن يعيدها إلى سيرتها الأولى، وأمام إلحاح الأولاد استجاب الرجل لهم، فطلب من الله تعالى أن يعيدها إلى حالتها السابقة، فاستجيب طلبه، وهكذا ضيع الدعاء الثالث أيضاً، وأضاع الفرصة الذهبية التي لا تعوض! والكثيرون منّا يضيعون فرصاً لا تعوض.

وإذا كان هذا الرجل لم يحسن سؤال الله تعالى، فإنّ الكثيرين منا لا يحسنون سؤال أهل الذكر أيضاً، كما كان يحصل مع ذاك الرجل الإلهي العظيم عنيت به علي بن أبي طالب عليه السلام، والذي كان لديه مخزون من العلم الإلهي إلى الحد الذي يدفعه للقول: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»، يقول سعيد بن المسيب: «ما كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب»[1]، وكانت المأساة أنّه وبدل أن يغتنم معاصروه هذه الفرصة، ليسألوه أسئلة تنفعهم وتنفع الإنسانية جمعاء، أسئلة تغني الحياة بالفكر والروح والمعنى، إذا ببعضم ـ على ما يذكر ـ يتوجه إليه بأسئلة تافهة، كأن يقوم بعضهم ويسأله كم شعرة في رأسي! وهنا كانت مأساة علي عليه السلام وغربته الحقيقية، لأنّه لم يجد من يفهمه ومن يعي مشروعه ويحمل علمه، ولذا كان يقول بحسرة وألم: «**إنّ ههنا** (ويشير إلى صدره) **لعلماً جمّاً لو أصبت له حَمَلَة، بل أصبت لقناً غير مأمون عليه..**»[2].

ج ـ ماذا نسأل؟ وماذا لا نسأل؟

سل عما ينفعك في دينك ودنياك وآخرتك، وما يُثري عقلك وروحك، ويُغني تجربتك، سل عمّا يدخل في نطاق مسؤوليتك، وما سوف تُسأل عنه يوم

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ج٣ ص١١٠٤، ومناقب آل أبي طالب ج١ ص٣١٨.
(٢) نهج البلاغة ج ٤ ص ٣٧، والخصال للصدوق ص ١٨٧.

القيامة يوم ينادي المنادي: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات: ٢٤]، ولكن ما الذي سوف نُسأل عنه يوم القيامة يا ترى؟

هذا ما أجاب الله تعالى عنه في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٨]، والنعيم هو كلّ ما أولاك الله من صحّة أو من قوّة أو شباب أو مال، وقد حدّد لنا الحديث النبوي الشريف بعضاً من نِعم الله تعالى التي سوف نُسأل عنها يوم القيامة، قال ﷺ ـ بحسب ما جاء في الرواية ـ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت** عليهم السلام»[١].

أما ما كان من مسؤولية غيرك فلا تتكلف السؤال عنه والبحث فيه، ففي ذلك مضيعة للوقت دون جدوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٣٤].

وفي المقابل، فثمة أسئلة علينا تجنّب طرحها، إمّا لأنّها تتعلّق بقضايا غير ذات فائدة، أو لأنّها أسئلة وطلبات عن أمور مستحيلة فلا جدوى من طرحها، وإليك بعض نماذج الأسئلة التي ينبغي اجتنابها:

أولاً: السؤال عمّا لا يقع في نطاق مسؤوليّتك الدينية والإيمانيّة، ولا في نطاق شؤونك الدنيوية، ولا يكون في معرفة هذا الشيء أيّ فائدة تذكر، كالكثير من الأسئلة التي يطرحها بعض الناس، فقد يسألك البعض ما هو اسم والدة أو جدة النبي لوط عليه السلام؟! أو ما جنس الهدهد الذي كان مع سليمان عليه السلام هل هو ذكر أم أنثى؟ أو نظائر ذلك من الأسئلة التي لا تنفع مَنْ علمها ولا تضرّ مَنْ جهلها.

---

(١) الخصال للصدوق ص ٢٥٣، وهو مروي من طرق السنة، باستثناء الفقرة الأخيرة، فقد رواه الترمذي بالإسناد إلى ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم**»، سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٥.

ثانياً: السؤال على نحو تعنتيّ، وقد وجّه أحدهم وهو ابن أبي الكوّا سؤالا تعجيزياً لأمير المؤمنين عليه السلام فقال له علي عليه السلام: «**سل تفقهاً ولا تسل تعنتاً، فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم، وإنّ العالم المتعسِّف شبيه بالجاهل**»(١).

ومن أبرز الأمثلة على السؤال التعنتي، ما جاء في أسئلة بني إسرائيل بشأن البقرة التي أُمروا بذبحها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ * قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [البقرة: ٦٩ ـ ٧١].

ومن ذلك أيضاً سؤالهم ـ أعني بني إسرائيل ـ لموسى عليه السلام وطلبهم منه أن يروا الله جهرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً**﴾[النساء: ١٥٣].

ونحوه السؤال الذي وجّهه بعضهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ فقال عليه السلام: **إن الله تبارك وتعالى لا يُنسَب إلى العجز والذي سألتني لا يكون**»(٢).

ثالثاً: السؤال عن القضايا التي يكون في كشفها محذور ما، كما لو كانت الإجابة عليها تتطلّب كشفَ عورات الناس وفضحَ عيوبهم وأسرارهم، أو إحراجهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾[المائدة: ١٠١].

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص٧٦.
(٢) التوحيد للصدوق ص ١٣٠

د ـ القرآن وترشيد الأسئلة

ويلاحظ أنّ ظاهرة السؤال منتشرة في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٢٢٠]، وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢١٩] وقال عزّ وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ..﴾[البقرة: ٢١٧]، إلى غير ذلك من الموارد.

ونلاحظ ـ أيضاً ـ أنّ القرآن الكريم، وفي أكثر من مورد قد عمل على ترشيد الأسئلة الخاطئة أو غير المفيدة التي كانت تُوجَّه إلى رسول الله ﷺ، ليعلّمنا بذلك طريقة طرح السؤال وأن تكون أسئلتنا نافعة ومفيدة، وإليك مثالان على ذلك:

المثال الأول: سُئل النبي ﷺ عن ظاهرة الشهر القمري، لماذا يبدأ هلالاً، ثم يكبر إلى أن يصبح بدراً ثم يبدأ العد العكسي؟[1]، فأنزل الله تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ...﴾[البقرة: ١٨٩]، فقد ركّزت الآية المباركة في الإجابة عن سؤالهم على بيان فائدة وثمرة هذه الوضعيّات المختلفة للقمر، وتجاهلت سؤالهم عن الظاهرة التكوينية التي قد لا تكون بمستوى فهمهم في تلك المرحلة.

المثال الثاني: وسألوه ﷺ ماذا ينفقون؟ فأجابهم الله جواباً تمّ التركيز فيه على مصرف الإنفاق، ومرّ سبحانه مرور الكرام على نوعيّة النفقة المسؤول عنها؛ لأنّ ما ينبغي إنفاقه معلوم، وهو كل ما ينفع الفقير والمجتمع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

(١) قال الطبرسي في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ أي: «أحوال الأهلة في زيادتها ونقصها». انظر: مجمع البيان: ج٢ ص٢٧.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢١٥]، فنلاحظ أنّه بينما كان سؤالهم متجهاً إلى معرفة نوعية النفقة «ماذا ينفقون؟» ، فإنّ الجواب جاء ليركّز على أمر آخر، وهو مصارف الإنفاق وموارده، فعدّد لهم أصناف الناس التي ينبغي أو يلزم الإنفاق عليها، مع إشارة عابرة إلى نوعيّة النفقة، وقد جاءت بشكل عرضي في قوله: ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ .

٣

العمل سرّ النجاح

المهمّة الثانية الملقاة على عاتق الشباب بعد مسؤولية العلم: هي مهمّة العمل، لكن ما الذي نقصده بالعمل؟

إنّ ما نقصده هو العمل على خطين: العمل في سبيل المعاش، والعمل في سبيل المعاد، كما جاء في الكلمة المروية عن الإمام الحسن عليه السلام «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**» [1].

أما العمل في سبيل المعاد، فسوف نتحدث عنه في المحور اللاحق، ولكننا في هذه العجالة نقول: إنّ على الإنسان المؤمن أن ينخرط في كلّ الأعمال والأنشطة التي تنفعه في يوم المعاد وتثقل ميزان حسناته، وقد ورد في الأدعية ما يعزز هذا المعنى، فمن دعاء للإمام الصادق عليه السلام: «**واستعملني في طاعتك، واجعل رغبتي فيما عندك**»[2]، وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين يقول عليه السلام: «**واسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْه**»[3].

(١) نقله العلامة المجلسي والشيخ النوري عن كفاية الأثر للخزاز القمي، انظر: بحار الأنوار ج ٤٤ ص ١٣٩، ومستدرك الوسائل ج ١ ص ١٤٧، ورواه الصدوق بصيغة «روي عن العالم» ، انظر: من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٥٦، و«العالم» من ألقاب الإمام الكاظم عليه السلام، ولهذا نسبه العلامة الحلي إلى الإمام الكاظم عليه السلام، انظر: تحرير الأحكام ج ٢ ص ٢٤٩، والمعروف على ألسنة العامة والخاصة نسبة هذه الكلمة إلى الإمام علي عليه السلام، ولكننا لم نعثر على ذلك في المصادر التي راجعناها، ونسبه الجاحظ إلى عمرو بن العاص ، انظر: البخلاء ص ٣١.

(٢) انظر الكافي ج ٢ ص ٥٤٢.

(٣) الصحيفة السجادية، من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الصفات.

ونخصّص حديثنا هنا للتطرّق إلى العمل في سبيل المعاش؛ لأنّ العمل هو شرط لاستمرار الحياة وسعادة الإنسان، والأمّة التي لا تعمل هي أمّة فاشلة ومحكومة بالتخلّف وبالسّقوط في مجال التنافس الحضاري، وستبقى عالة على الآخرين، والحقيقة أنّ العمل ليس خياراً من خيارات الأمة، بل هو ضرورة لا مفرّ لها من الأخذ بها وواجب من واجباتها التي لا يجوز لها التقاعس في أدائها.

١ ـ الإسلام ومحاربة الكسل

وإدراكاً منه لأهميّة العمل في تقدّم الأمم، فقد حثّ الإسلام عليه وشنّ حملة على الكسل والتكاسل والبطالة والدَّعة، وكان النبي ﷺ يبغض للشاب أن يكون عاطلاً عن العمل بحيث لا حرفة له ولا صنعة، ففي الحديث عن ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: **هل له حرفة؟** فإن قالوا: لا، قال: **سقط من عيني**، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: **لأنّ المؤمن إذا لم يكن له حرفة يعيش بدينه**»[١]، أي إنّه يحوّل دينه إلى دكان للاتجار به، وما قاله النبي ﷺ نراه رأي العين، فالذين يتّجرون باسم الدين والطب الروحاني والتنجيم وقراءة الفنجان.. هم مجموعة من الفاشلين في الحياة العاطلين عن العمل، وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**الكسل يضرّ بالدين والدنيا**»[٢].

أيها الشباب.. ينبغي أن يكون واضحاً أنّ السعادة لا تنال بالأماني، بل بالكدّ والعمل القائم على التخطيط الجاد والهادف. إنّ الكسل والتراخي وتضييع العمر باللّهو والعبث هو خيرُ وصفة للتخلف والفقر، عن علي عليه السلام: «**هيهات من نيل السعادة السّكون إلى الهوينا والبطالة**»[٣]، وعنه عليه السلام: «**إنّ الأشياء لما ازدوجت**

(١) رواه في بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ٩، وفي مستدرك الوسائل ج ١٣ ص ١١، نقلاً عن جامع الأخبار.
(٢) تحف العقول ص ٣٠٠.
(٣) عيون الحكم والمواعظ ص ٥١٢.

ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر»[1].

ومن الطريف ما قرأته في بعض الروايات، من أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يشكو من الكسل المستشري في زمانه، فيقول: «**لا تكسلوا في طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها**»[2]، ولست أدري ماذا يقول مولانا الإمام الصادق عليه السلام في أهل زماننا الذين زحف إليهم الكسل، فتراخوا ووهنوا، وتسلّل إليهم الترف واللّهو والدعة فهانوا وذلّوا؟!

٢ ـ لا منافاة بين العمل للدنيا والعمل للآخرة

والأمر الأخطر من مجرد استشراء الكسل لدى قطاعات واسعة من أبناء الأمّة، ولا سيّما الشباب، هو وجود خلل في النظرة إلى مفهوم العمل نفسه، وحصول تشوّه في المفهوم الديني إزاءه. ويتمثّل هذا التشوّه في إيجاد خصومة مفتعلة بين الزهد والعمل، أو بين الدنيا والآخرة، حيث يتخيّل البعض أنّ الانغماس في العمل ينافي الزهد والورع. وهذه النظرة هي نظرة خاطئة بالتأكيد، فإنّ للإسلام نظرة متوازنة إلى الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾[القصص: ٧٧]، وفي الحديث المتقدم عن الإمام الحسن عليه السلام أنّه قال: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**»، بل إنّ الإسلام اعتبر أنّ العمل في سبيل المعاش ورفع مستوى الأمة والتخلّص من مشكلة الفقر هو من الواجبات الكفائية[3]، وقد يدخل في نطاق العبادات التي يؤجر الإنسان عليها، ولذا ترى أنّ الإمام الصادق

(١) الكافي ج ٥ ص ٨٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٥٧.

(٣) الواجبات في الشريعة الإسلامية إمّا عينية، تجب على كلّ فرد من المكلفين (الأعيان) كالصلاة والصوم والحج.. وإمّا كفائية، تجب على الأمة، فإذا قام بها البعض سقط التكليف عن الباقي، وإلا أثم الجميع.

عليه السلام ـ على ما جاء في الرواية ـ سأل عن رجل أين هو؟ فقيل له: أصابته الحاجة، قال: «**فماذا يصنع اليوم؟** قالوا: في البيت يعبد ربَّه، قال: **فمن أين قُوتُه؟** قيل: من عند بعض إخوانه، فقال عليه السلام: **والله لَلّذي يقوته أشدُّ عبادة منه**»[1].

٣ ـ عندما يتسوّل الشباب!

وثمّة مفهوم إسلامي آخر طاله التشّوه، وهو مفهوم التوكّل، حيث غدا مساوياً لمفهوم التواكل، فإنك عندما تطالب البعض وتقول له: لِمَ لا تعمل؟ يجيبك: «أنا متوكّل على الله»، أو «الله بيرزق»، وهو في الحقيقة يبرّر كسله وقعوده عن العمل بهذه الكلمات التي هي كلمات حق يراد بها باطل. إنّ جملة: «الله بيرزق» ليست شعاراً للكسالى، وإنّما هي شعار يرفعه الإنسان وهو في ميدان العمل يسير في مناكب الأرض ويخوض غمارها. وهكذا فإنّ التوكّل على الله ـ أيضاً ـ لا يعني الجلوس في البيوت وانتظار الرزق، ولا يعني أبداً مدّ اليد للآخرين بدلاً من الانطلاق في ميادين الحياة والتفتيش عن الرزق الحلال.

ألا ترون اليوم أنّ ثمة حالة غريبة في مجتمعاتنا، وهي أنّ بعض الشباب أصبح يمدّ يده للتسوّل، إنّنا نفهم (ولا نبرّر) أن يمدّ عجوزٌ أو أرملةٌ أومحتاج يدَه للآخرين مستجدياً، أمّا أن ترى شاباً يمدّ يده للآخرين ويمتهن مهنة التسوّل فتلك مصيبة كبيرة وحالة مَرضِيّة لا بدّ من معالجتها، ومن طرق المعالجة أن يعمل المجتمع وتعمل الدولة على ترشيد هؤلاء وتأهيلهم ودراسة الظروف التي دفعتهم لذلك.

وفي هذا السياق، فإنّ الإسلام قد منع إعطاء الزكاة لمن يمتلك القوة البدنية ويستطيع العمل، لكنّه يكسل عنه ويلجأ إلى التسوّل، ففي الحديث عن رسول

(١) الكافي ج ٥ ص ٧٨، وتهذيب الأحكام ج ٦ ص ٣٢٤.

الله ﷺ: «**لا تَحِلّ الصدقة لغني ولا لذي مِرّةٍ** (قويّ في بدنه) **سَوِيّ**»[1]، وسرّ هذا المنع يكمن في أنّ إعطاءه مرة تلو الأخرى يجعله يمتهن التسوّل وبذل ماء الوجه للآخرين، ويعرّض نفسه للمهانة والمذلة. ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إياكم وسؤالَ الناس فإنّه ذلٌ في الدنيا وفقر تعجلونه وحساب طويل يوم القيامة**»[2].

ويحكى أنّ الأصمعي مرّ على كنّاس في البصرة يكنس كنيفاً (بيت الخلاء)، وهو يتغنى ببعض الأشعار، ومن جملتها قوله:

وأُكرم نفسي إنّني إن أهنتها   وحقّك لم تكرم على أحد بعدي

قال الأصمعي: فقلت له: والله ما يكون من الهوان شيء أكثر ممّا بذلتها له (أي بذلت نفسك له)، فبأي شيء أكرمتَها؟ فقال: بلى والله إنّ من الهوان لشراً ممّا أنا فيه، فقلت: وما هو؟ فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس، فانصرفتُ (يقول الأصمعي) عنه وأنا أخزى الناس»[3].

٤ ـ بالعمل نواجه سياسة الإفقار

إنّ ما نواجهه اليوم من سياسة تعمل على إفقار شعوبنا، وتمزيق أمّتنا ودفعها إلى التناحر والتقاتل والاحتراب، هي سياسة ظالمة لم يسبق لها مثيل، وهي تهدف إلى تفريغ أمّتنا من الطاقات الشابة واستدراجها وكذلك استدراج كلّ العقول المبدعة من أبناء هذه الأمة إلى بلاد الغرب. إنّ أمتنا ليست فقيرة، بل إنّ ما تملكه من الثروات والطاقات تجعلها من أغنى الأمم، لكنّ السياسة

(١) سنن الدارمي ج١ ص٣٨٦، وهذا المضمون مروي عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: ـ بحسب الرواية ـ: «**إنّ الصدقة لا تحلّ لمحترف ولا لذي مرّة سوي قوي، فتنزهوا عنها**»، انظر: الكافي ج٣ ص٥٦٠. والمرّة: الشدة والقوة، والسوي: هو الصحيح الأعضاء.

(٢) الكافي ج ٤ ص ٢٠، ومن لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ٧٠.

(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١ ص ٣١٩.

الاستكبارية مستعينة بأنظمة استبدادية جائرة اعتمدت خطّة تهدف إلى إفقار الشعوب الإسلامية وإشغالها بلقمة العيش حتى لا تترك لها مجالاً للتفكير في كيفية النهوض والخروج من القمقم.

وأعتقد أنّ الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها في وجه هذه السياسة الإفقارية، تتمثّل ـ بالإضافة إلى الوقوف في وجه المستكبرين والظالمين ـ بالتوجّه ـ شيباً وشباناً ـ إلى ميدان العمل بشتّى مجالاته وأنواعه، فبذلك نخلق فرصاً جديدة للعاطلين عن العمل، ونواجه سياسة الإفقار التي تريد إشغالنا بلقمة العيش كما قلت، والتي ترمي أيضاً إلى أن تنشر في أوساطنا الجريمة والفاحشة، فإنّ أقرب وسيلة لنشر الجرائم وتفكيك المجتمعات وتدميرها خلقياً واجتماعياً، هي في إفقار هذه المجتمعات.

٥ ـ وبالعمل نواجه سياسة الاستغلال

وليس خافياً أنّ السياسة التي يعتمدها المستبدّون والمتسلّطون تتمثّل في العمل على استغلال حاجة الشباب للمال والوظائف، والعيش الكريم، فيسعون إلى ابتزازهم واستغلال حاجاتهم ليحوّلوهم إلى تابعين وأزلام يستجدون وظيفة أو مالاً. وقد شاهدنا هذا الأمر في الأحداث اللبنانية، ونشاهده اليوم في الكثير من الدول التي تفتك بها الحروب والفتن الأهلية والمذهبية، حيث يُستأجر بعض الشباب ويساقون إلى معارك لا يعلمون عن أهدافها شيئاً، فهم ليسوا سوى أدوات رخيصة، يتمّ استخدامها ثمّ التخلي عنها في أيّ لحظة سياسية أو لقاء صفقة معيّنة، والسلاح الأمضى الذي يستخدمه هؤلاء المستبدّون وأسيادهم المستكبرون هو إثارة الغرائز والعصبيّات المذهبيّة لدى الشباب، بما يحوّلهم إلى ما يشبه الوحوش الكاسرة التي تذبح وتقتل دون رحمة أو شفقة، وقد لاحظنا أنّ تجار السياسة وطلاب السلطة يسعون في الكثير من دولنا العربية والإسلامية

للإبقاء على نظام المحاصصة الطائفية، لأنّه نظام لا يسمح لأيّ شاب أن ينتمي إلى وطنه إلا بالعبور من خلال طائفته وزعيم الطائفة، وبذلك يظلّ الشباب رهين إرادة هذا الزعيم أو ذاك.

هذا هو واقعنا، فهل هو قدر مكتوب علينا ولا يمكننا تغييره؟ والجواب: كلا، فهذا ليس قدراً محتوماً، وباستطاعة الشباب تغيير هذا الواقع، فهم الذين جاؤوا بهؤلاء الزعماء، وباستطاعتهم تغييرهم، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**كما تكونون يولّى عليكم**»[1].

إنّ على الشباب أن يعمل على الاستقلال عن هذا الزعيم أو ذاك، وأن لا يرهن نفسه لهذا أو ذاك، فلدى الشباب قوة قادرة على تغيير الواقع إلى الأفضل شريطة أن نحسن الإفادة من هذه القوة ونحسن إدارة أمورنا وتنظيمها. ولنا عودة إلى دور الشباب في عملية التغيير في محور لاحق.

وما تقدّم من استغلال حاجة الشباب إلى العمل والوظيفة لإدخالهم في أتون صراعات مذهبية ليس هو الاستغلال الوحيد الذي يتعرّض له الشباب، فهناك استغلال هو من أسوأ أنواع الاستغلال وأبشعها، ألا وهو استغلال الشباب ـ وتحديداً الفتيات ـ في التجارة الجنسيّة، حيث يعمل البعض على استغلال حاجة الفتاة للعمل ولجني المال فيضغط عليها لتتنازل عن أخلاقها وكرامتها وشرفها. وقد تقع بعض البنات فريسة هذا الابتزاز، نتيجة فقرها وحاجتها، وهنا تكون مسؤولية الأمّة والمجتمع والدولة كبيرة جداً وعلى أكثر من صعيد، وذلك بالسعي إلى تحصين المجتمع أخلاقياً، والعمل على سدّ الثغرات وتوفير فرص العمل، بما يؤمّن لقمة العيش الكريم لأبناء هذا المجتمع، وفوق ذلك كلّه لا بدّ من إعلان حربٍ ضروس على هؤلاء الفاسدين والمفسدين الذين يشتغلون

(١) انظر: مسند الشهاب ج١ ص ٣٣٧.

في سوق الاتجار الجنسي الرخيص، وهم في الغالب يتحرّكون تحت عناوين مخادعة وبرّاقة.

وختاماً فإنّي أتوجّه هنا بكلمة مختصرة إلى كلّ فتاة مسلمة: أختي الكريمة، ابنتي العزيزة، إنّ شرفكِ هو عزّكِ وكرامتكِ وهو سرّ إنسانيتكِ، فلا تبيعي عفتك في سوق النخاسة ولا تسمحي لأحد بأن يحوّلك إلى سلعة رخيصة، كما يُراد لك، كوني إنسانة ينحني العالم أمام عفّتك وكرامتك.

٤

الشباب والعمل الرسالي

إلى ما تقدّم من دور محوري للشباب في مجال العمل في سبيل المعاش فإنّ ثمة مجالاً آخر لا بدّ أن يضطلع به الشّباب وهو العمل من أجل الرسالة التي يؤمن بها، وإنّ دور الشباب ـ ولا سيّما المثقف- في العمل الرسالي والدَعَويّ هو الآخر دور محوري ومهم، لا بسبب حماسة الشباب وشجاعتهم وحيويتهم وقربهم من الفطرة وغير ذلك من الخصائص التي تمّت الإشارة إليها في المحور الأول، لا لذلك فحسب، بل لأنّ الشباب هم طليعة أبناء المجتمع وأمل المستقبل، فإذا هم نهضوا ووعوا وحملوا الرسالة الإسلامية وعاشوا همّ الدعوة إليها كان مستقبل هذه الرسالة بخير، وأما إن هم أُصيبوا بالشلل أو بالتخدير الفكري أو الأخلاقي فسوف يسري ذلك الشلل إلى جسم المجتمع برمّته.

١ ـ دور الشباب في العمل الرسالي

يُنقل عن أحد العلماء أنّه كان يشبّه الشاب بالمؤذّن الذي يوقظ الناس لصلاة الفجر، فإن هو نام ولم يتسنَّ له رفع الأذان فقد نام الجميع عن هذه الصلاة، وإذا هو استيقظ وأذّن أيقظ الناس وصلّوا.

إنّ معنى ذلك ومغزاه أنّ الشاب ليس متلقياً ومستمعاً فحسب، كما يريده البعض، إنّه صانع للخطاب ومحرِّك للسكون والجمود الذي يصيب الواقع نتيجة الرتابة المملّة والدوران في دائرة مفرغة، ولقد لاحظنا في سيرة النبي ﷺ أنّ

جيل الشباب هم الذين حملوا الرسالة الإسلامية إلى العالم، وتفرّقوا في القبائل وانتشروا في البلاد يبشّرون بالدين الإسلامي الحنيف.

ومن الطبيعي أنّ العمل الرسالي الهادف إلى نشر الإسلام ـ عقيدة وشريعة ومكارم أخلاق ـ ليس حكراً على فئة معيّنة أو أشخاص محدّدين كطلاب العلوم الدينية مثلاً، بل هو مسؤولية عامة، يمكن أن يضطلع بها كلّ أفراد المجتمع الإسلامي شيباً وشباباً ذكوراً وإناثاً.

٢ ـ امتلاك الذخيرتين الثقافية والأخلاقية

نعم ثمّة ضوابط وشروط لا بدّ منها لا ليكتسب هذا العمل مشروعيّة فحسب، بل ليصل إلى غاياته المنشودة، وأهمّ هذه الشروط: امتلاك المتصدّي للتبليغ والتبشير والخطاب الديني الذخيرة العلميّة والدينية اللازمة، بأن يكون محصّناً بالثقافة الإسلامية التي تمكّنه من الدعوة إلى الإسلام بالحجة والبرهان والموعظة الحسنة، وإذا كان متسلحاً ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بمعرفة علميّة وعصرية حديثة كان خطابه وحديثه أكثر وقعاً وتأثيراً في النفوس وأقرب إلى ذهنية الأجيال الشبابية المعاصرة.

وكما أنّ على الشباب الرسالي أن يمتلك الذخيرة الثقافية التي تؤهله لمحاججة الآخرين وإقناعهم بفكره وتُمكِّنهُ من الدفاع عن معتقداته، فإنّ من اللازم ـ أيضاً ـ أن يمتلك الذخيرة الأخلاقيّة، وعمادها أن ينسجم قوله مع فعله، بحيث يلتزم بما يقول، ولا يكون لديه انفصام في شخصيته بحيث يقول الشيء ويفعل نقيضه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[الصف: ٢ ـ ٣]، إنّ صدق الشاب المسلم وأمانته وعفّته هي سرّ نجاحه وأساس مصداقيته، وهذا ما يحتّم أن يكون الشاب ـ بالإضافة إلى التزامه بالقيم والأخلاقيات الإسلامية ـ في حالة تواصل روحي دائم مع

الله تعالى، فذلك ما يمنحه المناعة الروحية والأخلاقية في وسط عام ضعفت فيه هذه المناعة وأصبح كلّ شيء فيه يشدّ الشباب إلى الانحراف ويدفعهم إلى أحضان الرذيلة.

٣ ـ لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة سالكيه

إنّ منطقيّة أفكارنا ومعتقداتنا وقوة الحجّة التي نمتلكها والثقة بالنفس التي نكتسبها من علاقتنا بالله تعالى هي سرّ قوّتنا وبقائنا، ولهذا لا ينبغي ـ أحبائي الشباب ـ أن نعيش عقدة الانبهار بالآخر أو الانسحاق أمام ما يمتلكه من قوة في الماديات والتطور العلمي، إنّ من يعيش حالة انسحاق أمام الآخر هو إنسان ضعيف ملبوس عليه ولا يمتلك ميزاناً صحيحاً يزن به الأمور، ويذكرني هؤلاء بأولئك الجمع الذين عانى منهم علي عليه السلام ممن قاسوا الحق بالرجال ولم يقيسوا الرجال بالحق، وقد جاء أحدُ هؤلاء إلى علي عليه السلام وقال له: أتراني أظنّ أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟! فقال عليه السلام: «**إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فَحِرْتَ، إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه**»[١].

ولهذا، لو أنّنا عملنا على تحصين أنفسنا بقوّة المنطق لا بمنطق القوّة، فإنّ ذلك سيمنحنا ثقة بالنفس فلا نشعر بعدها بالوحشة أو الغربة حتى لو كنا قلة وكان الآخرون هم الأكثر عدداً، وقد قالها علي عليه السلام في إحدى كلماته الخالدة: «**أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل**»[٢].

أحبتي الشباب..

أنتم قادرون على العطاء فلا تسمحوا لليأس أن يتسرّب إلى نفوسكم أو يدبّ

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٦٣.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٨١.

فيكم، وأنتم أقوياء فلا تسمحوا لأحد أن يشعركم بالضعف، لكنْ لتكن قدرتُكم في سبيل نهوض أمتكم، ولتكن قوّتكم في سبيل التحرر من أغلال الجهل والعصبية والانعتاق من نير الظلم والاستبداد.

٤ ـ نكسةٌ للإسلاميين ولكن..

صحيحٌ أنّ بعض الإسلاميين الذين كنّا نعلّق عليهم الآمال في قيادة الواقع الإسلامي في أكثر من بلد قد سقطوا في امتحان الدنيا، فسحرتهم مناصبها، وأغوتهم دنانيرها، مع أنّهم كانوا لفترة طويلة يحاضرون في الزهد وَيُنَظِّرون في الأخلاق والقيم، وكمْ ردّد بعضهم كلمات السيد الشهيد محمد باقر الصدر في عظته الشهيرة لطلبة العلوم الدينية حيث قال لهم: «هل عُرضت عليكم دنيا هارون الرشيد ورفضتموها؟!» أجل، لقد ردّدوا ذلك، لكنّهم عندما وصلوا إلى سدّة الحكم وفرشت لهم الدنيا بساطها المزخرف نسوا ذلك كلّه وانجرفوا مع لذّاتها، وأغرتهم زينتها ومباهجها وزخارفها، إنّ ذلك صحيح وواقع، وهو أمر مؤلم دون شك، ويشكّل نكسة للحركة الإسلامية ويفرض عليها أن تعيد النظر في بنائها الثقافي والروحي، وأن تدرس نقاط الخلل والضعف لتعمل على تلافيها وتصحيحها، بيد أنّ ما جرى مع هؤلاء لا ينبغي أن يعدّ سبباً لليأس(١) أو التشكيك بصوابية النهج، فهذه الظاهرة وإن كانت مدانة ومرفوضة، لكن لا يفترض أن تكون سبباً للتراجع أو الإحباط، ولا سيما أنها ليست ظاهرة جديدة، بل هي مألوفة في تاريخ الشعوب والأمم، والإنسان هو الإنسان، فقد ينتصر قابيل فيه على هابيل، وتنتصر الغريزة على الضمير، وهكذا ينقلب الثائرون على مبادئهم، ويتبرأون من تاريخهم، ويتراجعون عن شعاراتهم، بيد أنّ هذا الأمر ينبغي أن يشكّل لنا عبرة

(١) للتوسع حول هذا الأمر يمكنكم مراجعة ما ذكرناه في كتاب «وهل الدين إلا الحبّ» المحور الثامن وهو بعنوان «الإسلام وثقافة الأمل» ص ٢١١.

وموعظة، كي لا نكون ممن يلعن الدنيا ومناصبها عندما تزهد بهم الدنيا، حتى إذا أقبلت عليهم وتمكّنوا منها جذبتهم إليها وشدّتهم إلى حضنها وسقطوا في مستنقعها الآسن، وغدوا أسرى في سجنها المخادع.

إنّ المهم في تربيتنا الإسلامية وفي محاسبتنا لأنفسنا أن نعمل على تدريبها على القناعة بما رزق الله تعالى، وتعويدها على الثبات على القيم، لنحافظ على قيمنا ومبادئنا بعد الانتصار والاقتدار والتمكن، كما حافظنا عليها قبل ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ** ﴾[الحج: ٤١].

٥ ـ قدِّموا الإسلام بلغة العصر

إلى الذخيرتَين العلمية والأخلاقية، وإلى الثقة بالنفس، لا بدّ أن نمتلك الأسلوب الناجح، فليس كافياً أن تكون على حق وأن يكون فكرك هو الصواب والهدى ليتّبعك الناس، بل لا بدّ أن تأخذ بالأسلوب الأمثل الذي يوصل فكرك إلى الآخرين ويقنعهم بمنطقية نهجك، وهذا يعني أنّ الأسلوب لا بدّ أن يمتلك جاذبية خاصة تجعل الناس تفتح قلوبها وعقولها أمام فكرك وتستمع لخطابك، وإنّ جاذبية الأسلوب لا تقلّ أهمية عن جاذبية المضمون، فالإنسان الناجح هو الذي يملك أسلوباً ناجحاً.

ومن الطبيعي أنّ مسألة الأساليب هي مسألة متحرّكة ومتغيّرة، فلكلّ زمان أدواته وأساليبه، ولكلّ جيل خطابه ولغته، ولهذا فإنّ واجبنا أن نقدّم الإسلام بلغة العصر وأساليبه، وأن نصل إلى عقول الناس من خلال وسائل التواصل الحديثة وأن نستفيد من الأساليب الفنية الراقية، من المسرح، والتمثيل والشِّعر، والقصة، والرواية. لقد كان الشِّعر أحد أهم الأساليب البلاغية المؤثرة التي يتمّ من خلالها

نشر الأفكار أو تنوير الجماهير وتحريكها، وإثارة عواطفها، واليوم ـ ومع بقاء الشعر محافظاً على دوره وجاذبيته ـ يوجد أساليب أخرى قد تكون أكثر تأثيراً، فإنّ عملاً فنياً تمثيلياً واحداً حائزاً على المواصفات الفنيّة العالية وهو يجسّد قضية إسلامية معينة، أو يشرح قصّة نبي من الأنبياء عليهم السلام قد يؤثّر في الناس أكثر من عشرات المحاضرات والكتب والكلمات المطولة. وقد لاحظنا مؤخراً التأثير الطيّب الذي تركته بعض الأفلام الناجحة، كفيلمي «يوسف الصديق» أو «مريم المقدسة».. وهكذا فإنّ وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة (فايسبوك، واتس آب، آنستغرام، تويتر..) توفر لنا هي الأخرى أفضل منابر لنشر قيمنا وعقائدنا، وأعتقد أنّه تقع على عاتقنا مسؤولية أن نستفيد من هذه الوسائل في نشر ديننا وتعاليمنا، بدل أن نستثمرها في اللّهو والعبث وربّما في الاستخدامات المحرّمة، وسيأتي حديث مفصّل عن هذه الوسائل..

المحور الثالث

الشباب والعلاقة مع الله

أولاً: الشباب ومشكلة الإلحاد

ثانياً: الشباب والعلاقة مع الله تعالى

ثالثاً: الطُّرق غير المشروعة في تهذيب النفس

رابعاً: الشّباب ومشكلة الجفاف الروحي

خامساً: تشوّه العبادة في زمن التصحّر الأخلاقي

إنّ علاقة الشباب مع الله تعالى تمثّل حاجة ماسّة وملحّة، لما لهذه العلاقة من دور هامّ في صيانة روح الشباب وفي انتظام حياته، لأنّ القلوب التي يسكنها الله تعالى سوف يغادرها الشيطان ولن يتسنى له العبث بها، والحياة التي تبتعد عن الله تعالى سوف تبتعد عن القيم الروحية وتفقد الكثير من معناها، بيد أنّ العلاقة مع الله تعالى إن لم تُبنَ على أسس متينة فستكون معرّضة للشطحات ما يجعل الإنسان بين إفراط أو تفريط، وقد عقدنا هذا المحور للحديث عن هذا الموضوع وذلك من خلال النقاط الخمس التالية:

أولاً: «الشباب والإلحاد»، ونطلّ في هذه النقطة على قضيّة الإلحاد وما يكتنفها في ظلّ ما يُتناقل عن تزايد حالات الإلحاد في أوساط الشباب.

ثانياً: «الشباب والعلاقة مع الله تعالى»، وهذه النقطة نخصّصها للحديث عن السُّبل الشرعية للعلاقة مع الله تعالى والخطوات العمليّة اللازم اعتمادها في هذا الطريق.

ثالثاً: «الطرق غير المشروعة في تهذيب النفس»، وفي هذه النقطة ـ كما هو واضح من عنوانها ـ يتمّ تسليط الضوء على بعض الأساليب والطرق غير المشروعة في عمليّة تهذيب النفس، هذه الطّرق التي يعمل البعض على ترويجها

في أوساط الشباب .

رابعاً: «الشباب ومشكلة الجفاف الروحي»، وهذه النقطة تعالج قضية هامة وهي مشكلة الفراغ أو الجفاف الروحي التي تواجه الشباب وغيرهم، وتحدّد أسبابها وطرق علاجها.

خامساً: «تَشوُّه العبادة في زمن التصحّر الأخلاقي»، وفي هذه النقطة الأخيرة من هذا المحور نطلّ على موضوع العبادة إطلالة تصحيحيّة تبيّن بعض أشكال التشوه والانحراف التي تعرّضت لها أعمالنا العبادية.

١

الشباب ومشكلة الإلحاد

تبرز بين الفينة والأخرى في أوساط الشباب الجامعي وغيره، أصوات تنادي بالإلحاد واتّخاذه مذهباً في الحياة، واعتماده أساساً في بناء تصوّر فلسفي حول الكون والوجود. ومؤخّراً راج الحديث عن تنامي هذه الحالة بين الشّباب المسلم في العديد من البلدان الإسلامية، الأمر الذي يفرض علينا أن ندرس هذه الظاهرة، ونتعرّف على أسبابها ودوافعها، ومنطلقاتها العلميّة أو السياسيّة أو غير ذلك، فهل من جديد في القضيّة؟ وهل ثمّة أفكار أو نظريّات علميّة تُقَدِّم تفسيراً مادياً يقينياً للكون، بحيث لا يحتاج معه إلى فرضيّة وجود الخالق؟

١ ـ الإلحاد قديماً وحديثاً

الإلحاد مذهب فلسفي يقوم في بعض اتجاهاته على فكرة أساسية وهي فكرة إنكار وجود الخالق، وأنّ المادة أزليّة ولا خالق لها، أو قل: المادة هي الخالق والمخلوق. وفكرة الإلحاد ليست بالجديدة، فقد عرفها الإنسان منذ القدم وإن بنسب متفاوتة، فقد عُرف عن بعض الناس إنكارهم لحقيقة وجود الخالق، وسُمِّي هؤلاء بأسماء شتى كالملاحدة أو الزنادقة أو غير ذلك، لكنهم ظلّوا حالةً شاذة ولم تشكّل تحدياً كبيراً أمام الإلهيّين (المؤمنون بالإله)، ولهذا نجد أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يبذلوا جهداً في مواجهة الإلحاد بالقدر الذي واجهوا فيه ظاهرة الشرك، كما

نلاحظ ذلك بجلاء في نصوص القرآن الكريم. وإذا كان الإلحاد لم يرقَ في الزمن القديم إلى مستوى الظاهرة التي تستقطب شرائح واسعة من بني الإنسان، نجد أنّه في العصر الحاضر انتشر إلى حدّ معين، وأصبح له منابره الإعلامية، وقد قدّم الفكر الشيوعي سابقاً (في زمن الاتحاد السوفياتي) تنظيراً فكرياً للإلحاد ونمت هذه الظاهرة في ظلاله ورعاها وبشّر بها، كما أنّها اتّخذت من نظرية «دارون» المعروفة في أصل الأنواع وما عُرِف بنظرية التطوّر متكئاً لها. واليوم تطلّ المسألة من الزاوية عينها، ومن زاوية بعض الفرضيات العلمية الحديثة.

٢ ـ وقفات منهجية على طريق المواجهة

وعلينا هنا، ونحن ندرس هذه الظاهرة دراسة نقديّة، أن نعتمد منهجيّة علميّة ترتكز على أسس يقينية، بعيداً عن الظنون والأوهام، ويحكمها المنهج المنطقي العقلي المستند إلى الحجّة والذي لا يقتصر على مجرّد الكلام الوعظي الخطابي، فضلاً عن أن يكتفي بتوجيه كلمات التكفير والحكم بالارتداد، وما إلى ذلك لمن يتّهمهم بالإلحاد. والمنهجية العلميّة المشار إليها تحتّم علينا أن نسجّل عدّة وقفات تشكّلُ أسساً موضوعية ليس في مواجهة الإلحاد فحسب، بل وفي تقديم منهج يحكم علاقة العلم بالدين، وأرجو أن لا يتوقع مني القارئ مناقشة علميّة تخصصيّة رداً على الشبهات التي يطرحها بعض علماء الفيزياء أو الأحياء، لأنّ هذا خارج عن تخصصي، بيد أني سأحاول أن أضع الأسس والضوابط العامة التي لا بدّ من الانطلاق منها لمناقشة أفكار الملحدين وغيرهم، وإليك أهم هذه الأسس:

أ ـ النفي يحتاج إلى دليل

والأساس المنهجي الأول الذي علينا أن ننطلق منه، هو أنّ النفي ـ كما الإثبات ـ يحتاج إلى دليل. وكلّ تصوّر فكري لا يعضده الدليل ولا تنصره الحجة، فهو

مجرد دعاوى واهية، يقول البوصيري:

والدعـاوى ما لـم تُقيموا عليها ... بينـات أبنــاؤها أدعيــاء[1]

وعلى ضوء هذا، فإنّنا نسأل: هل يملك الملحدون دليلاً على نفي وجود الله؟

وبعبارة أخرى: هل هناك ملحد بالفعل يمكنه أن يقيم البرهان على إلحاده؟

والجواب بالنفي، فليس ثمة دليل على نفي وجود الله تعالى، ومعلوم أنّ المعطيات الاحتمالية أو الظنية لا تسوّغ بناء رؤية فلسفية، والشك لا يبرّر النفي القاطع، وعدم الدليل ليس دليل العدم.

وإننا نسأل: هل استنفد العلم كلّ طاقاته وإمكاناته وأفرغ الإنسان كلَّ وسعه في سبيل التعرّف على الخالق ومع ذلك لم يهتدِ إليه، وكانت النتيجة سلبيّة؟! لا أعتقد أنّ ثمّة جهداً جادّاً بذله الملحدون قبل أن يتسرّعوا في تبنّي فكرة عدم وجود الخالق، ولا أعتقد ـ أيضاً ـ أنّ كلّ الأفكار والنظريات العلميّة تسمح بنفي وجود الخالق، ولهذا فلا وجود للملحد حقيقة[2]، لأنّ غاية ما يمكن للملحد أن يقوله: لم يثبت عندي وجود الخالق، وأمّا أن يقول: عندي دليل على عدم وجود الخالق فهذا مجرّد ادّعاء يطالب صاحبه بالدليل.

وقد يقولنّ قائل من الملحدين: لسنا نحن مَنْ يطالب بإقامة الدليل على وجود الإله، وإنّما المطالب بذلك هو المؤمن بوجود الإله، ونحن يكفينا الشك في وجوده وعدم تمامية الدليل على ذلك، ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على النفي.

والجواب: إنّ المعتقدين بوجود الله تعالى يعترفون بأنّ عليهم إقامة الدليل على وجود الله، وهم يؤكّدون أنّهم لم ينطلقوا في عقيدتهم من فراغ ولا بنوا اعتقادهم على الأوهام، وإنّما أقاموا الحجج والبراهين العقلية والعلميّة اليقينية

---

(١) الإصابة لابن حجر، ج١ ص٧٤.

(٢) كما كان يقول سماحة السيد فضل الله (رضوان الله عليه).

التي تثبت وجود الله تعالى، وتبطل سائر الفرضيات التي تنفي وجوده عزّ وجلّ أو تشكّك في ذلك، ولكن هل يعترف الملحدون بأنّهم لا يمتلكون دليلاً على نفي وجود الله، وإنّما هي مجرّد شكوك قد يسهل على الطرف الآخر دحضها وتبديدها؟

ب ـ بين الفرضيات والحقائق

والأساس المنهجي الثاني الذي لا بدّ من اعتماده في المقام، هو عدم الخلط بين الفرضيات العلميّة والحقائق العلميّة. فالافتراضات العلميّة بحكم أنّها غير يقينية وفي معرض الخطأ لا يمكن أن تشكّل أساساً لبناء رؤية فلسفية إزاء الكون والوجود، فرؤية كهذه تحتاج إلى أدلّة وبراهين يقينيّة. وما يُطرح عن إمكانية تفسير الكون تفسيراً يستغني عن نظريّة الخالق المنظّم هو ـ في أحسن التقادير ـ مجرّد افتراضات علميّة ولم ترقَ إلى مستوى اليقين والحقيقة. وكيف ترقى إلى مستوى اليقين، والحال أنّ المعطيات العلميّة نفسها في تغيّر وتبدّل دائم، لدرجة حَدَتْ بالبعض لوصف عصرنا أنّه عصر اللّايقين؟! وعليه فإنّ الفرضيّات العلميّة الحديثة في علمَي الأحياء والفيزياء المتّصلة بقضية مبدأ الخلق وعلّته الأولى لا ترقى إلى مستوى الحقيقة العلميّة التي لا يرقى إليها الشك، وإنّما هي مجرد فرضيّة علميّة، فلا تصلح مستنداً لرفض فكرة الخالق أو إبطال المعتقدات الدينيّة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض الفرضيات العلميّة تلقى رواجاً وانتشاراً أكبر من حجمها العلمي، بحيث إن رواجها المذكور يجعلها في مصافّ الحقائق العلميّة في الذهن العام، الأمر الذي يمنع من نقاشها حتى داخل الوسط العلمي نفسه، مع كون الوسط المذكور معترفاً بأنها ليست سوى فرضية محتملة! وهذا

ما عليه الحال في نظرية التطوّر الداروينية كما يعترف بذلك بعض أهل الخبرة[1].

وربما يقال: لم يدّع أحدٌ أنّ الفرضيات العلميّة تصلح مستنداً لتكوين رؤية فلسفيّة تنفي وجود الله تعالى، لكنّها ـ حتى مع كونها فرضيّة ـ تصلح لزعزعة الإيمان الديني، إذ يكفي احتمال وجود تفسير آخر ـ غير وجود الخالق ـ لمسألة بداية الخلق لنفي يقينية الرؤية الدينية.

والجواب عن ذلك:

أولاً: إنّ الكثير من الملحدين قد حسموا مسألة نفي الخالق، وتحدّثوا عن موته، أو عن خرافة الإيمان به، أو عن عدم الحاجة لإتعاب النفس وتعكير المزاج في البحث عن فكرة وجوده. وعليه، فمنْ يقرّ ويعترف أنّه ليس بأيدينا سوى افتراضات احتماليّة قد تصلح لتقديم تفسير آخر لعلّة الخلق غير التفسير الديني السائد، لا بدّ أن يوافقنا الرأي أنّ هذا الصنف من الملحدين النافين وجودَ الله تعالى لا يسيرون على هديٍ علميّ أو عقلي.

ثانياً: إنّ الاحتمال الآخر لتفسير عمليّة الخلق والذي يدّعي أصحابه الاستغناء عن وجود الله تعالى هو احتمال مطروح بدواً وبصرف النظر عن هذه الفرضيات، وكلّ من يبحث عن وجود الله تعالى فهو ـ حُكماً ـ مقرٌّ بوجود هذا الاحتمال في ذهنه، وهذا هو ما دفعه للبحث والتفكير. فما يستفاد من الفرضيّات العلميّة المشار إليها، ليس بالشيء الجديد، وإن كان قد يؤكّد الاحتمال المذكور ويزيده قوّة. وما يقدّمه الإلهيون لدحض هذا الاحتمال، يظلّ قائماً ومحكماً وصالحاً لنفي الاحتمال المستفاد من تلك الفرضيات العلميّة. فالدليل العقلي القطعي على وجود الله تعالى يصلح لنفيه، كما أنّ الفرصة متاحة للإفادة من المعطيات العلميّة نفسها والتي تشهد لفكرة وجود الخالق، وذلك في سبيل نفي

(١) لاحظ بعض كلماتهم في كتاب: أفي الله شك؟ ص٢٦٣.

هذا الاحتمال، وإيصاله إلى درجة من الضعف بحيث لا يعتني به الذهن البشري، اعتماداً على مبدأ حساب الاحتمال، فإنّ الاكتشافات العلميّة في كلّ هذا الكون الفسيح بسمائه وأرضه تنطق بحقيقة واحدة لا لَبْس فيها وهي وجود نظام دقيق وبديع حاكم على كلّ هذا الكون من الذَرّة وإلى المجرّة، وبديهي أنّ النظام لا ينطلق من الفراغ ولا ينبعث من الفوضى والعبثيّة، وإنّما هو كاشف عن وجود منظّم بصير وحكيم وعليم.

ج ـ الإيمان والعقل

والأساس الثالث الذي علينا التذكير به، هو ثابتة أنّ العقل هو أهمّ مصدر للمعرفة البشرية. وليس من الصحيح أمام هذه الظاهرة (ظاهرة الإلحاد) وفي مواجهتها، الإحساس بالذعر الذي قد يدفعنا إلى التشكيك بمسلّماتنا وقواعدنا المعرفيّة المبرهنة والتي تبني الإيمان على أساس العقل، ولا ترى منافاةً بين العلم والدين، بل وتعتبر أنّ العلم يؤكّد الإيمان ولا ينفيه، فنعود نتيجة الذعر المشار إليه إلى الترويج لخطاب ديني يرى أنّ الإيمان هو فوق العقل، فهذا هو دأب المهزوم. بكلمة أخرى: ليس من المنطقيّ أن ندخل إلى الحوار النقدي مع الإلحاد الجديد بذهنيّة المرعوب والخائف، بحيث يتملّكنا شعور بالانهزام النفسي أمام التهويل بسطوة العلم ومنجزاته، وكأنّ العلم حاكم بنفي وجود الله تعالى ما يدفعنا تحت وطأة ذلك إلى التخلي عن قناعتنا وأسسنا المعرفية!

إنّ مسألة وجود الله تعالى بالنسبة إلينا ليست بهذه الهشاشة بحيث تهتزّ ويهتزّ معها إيماننا لمجرد فرضية علميّة حديثة، حتى لو طرحها كبار علماء الطبيعة. ولا يعني هذا أبداً أن نستخف بما يُطرح من فرضيات علميّة، فالفرضيّة هي أساس الحراك العلمي والمنطلق لفك الرموز، والاستخفاف بها أو التعامي عنها خطأ كبير، وهو لا يعالج المشكلة ولا يقنع المتأثرين بها، هذا ناهيك عن خطأ

وعدم جدوى التسرّع في إطلاق أحكام التكفير والارتداد بحقّ الذين تأثروا بهذه الأفكار، ولم يجدوا إجابات مقنعة عليها، إنّنا نرفض لغة التخوين والتهويل، بيد أنّ هذا لا يعني أن نقدّم نتائج العلم باعتبارها مقدسات لا تخضع للنقاش، فهذا ما لا يقوله العلم نفسه، بل إنّه ينافي حركيّة العلم نفسها، وكونه في تطور دائم. باختصار: العلم التجريبي ليس إلهاً يعبد إنّما هو طريق من طرق المعرفة البشرية، وثمّة طرق أخرى للمعرفة لا يستغني عنها الفكر البشري ويحتاج العلم نفسه إليها، ومن أهمّها طريق العقل. ومرجعيّة العقل هذه والتي بنينا إيماننا بالله تعالى على ضوئها هي مرجعية يقينية ولا تهتزّ، وهي تستقي من حقائق العلم، وتستنير بهدي الفطرة والوجدان.

د ـ العلم بالعلم

والأساس الرابع الذي تفرضه المنهجيّة العلميّة السليمة، هو أن تكون المحاججةُ مع من يستندون إلى الفرضيّات العلميّة للتشكيك في وجود الله تعالى معتمدةً على أساس العلم نفسه[1]، ولكي تكون المحاججة كذلك، فهذا يفرض علينا وعي الفرضيّات العلميّة المذكورة وأخذها من مصادرها، لتنطلق الدراسة النقديّة بعد استيعاب تلك الأفكار العلميّة المطروحة، لتتمّ مجابهتها باللّغة العلمية نفسها. إنّ استيعاب منطق الخصم ولغته المعرفيّة هي شرط أساسيّ في نجاح عملية الحوار أو النقد، وإنّ ذلك سيجعل الجميع يقرأون في كتاب واحد ويتكلّمون لغةً واحدة، فلا يكون الاعتراض منصبَّاً على جانب معيّن، بينما الجواب يتّجه إلى مكان آخر، فضلاً عن أن يتمّ الردّ على نظريات أو افتراضات علمية بطريقة وعظيّة أو جدالية، فالكلام العلميّ (المعتمد على نظريات أو فرضيات علميّة) يُرَدُّ عليه بطريقة علميّة وبراهين عقلية، ومن هنا فإنّ

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٦].

الاستعانة بالعلماء المؤمنين بالله تعالى من أهل الخبرة والاختصاص في العلوم التجريبية أمر في غاية الأهمية، وربما يكون هؤلاء هم الأقدر على ردّ الشبهات العلميّة وتفنيد بعض الأفكار المشكِّكة في وجود الله تعالى والمستندة إلى بعض الفرضيات العلميّة، هذه الفرضيات التي يتمّ توظيف نتائجها لخدمة رؤية فلسفية معينة، مع أنّ نتائج العلم يفترض أن تكون حيادية ولا يصح استغلالها وتوظيفها الفلسفي، فذلك ليس من شأن العلم في شيء.

هـ ـ بين ثوابت الدين ونظريّاته

والأساس المنهجي الخامس الذي يلزمنا الأخذ به هو أنّه كما فرّقنا بين الحقائق العلميّة والفرضيات العلميّة، فلا بدّ أيضاً أن نفرّق بين حقائق الدين ونظرياته، يقينياته وظنّياته، فالحقائق الدينية هي القطعيات والبديهيات التي لا تخضع للاجتهاد، بينما النظريّات هي القضايا الاجتهاديّة التي يمكن تغيير الرأي فيها على ضوء المعطيات الجديدة، ومنها المعطيات العلميّة. وجدير بالذكر أنّ حقائق الدين وبديهياته قليلة للغاية بالقياس إلى القضايا الاجتهادية، وبتقدير لأحد مراجع الدين المعاصرين[1]، فإنّ نسبة الضروريات إلى الاجتهاديات في الدين ـ عقيدة وشريعة ـ تبلغ ما نسبته التقريبية ٦٪ فقط[2]، أي أنّ ٩٤٪ من قضايا الدين ومفاهيمه وأحكامه هي أمور نظرية تخضع للاجتهاد، بينما الثابت والضروري منها هو ٦٪.

ثمّ إذا كان للعلم حقائقه ونظرياته، وللدين ـ أيضاً ـ حقائقه ونظرياته، فالتنافي المفترض بين العلم والدين يمكن أن يكون بين حقائق هذا وحقائق ذاك، أو بين نظريات هذا ونظريات ذاك، أو حقائق ذا ونظريات ذاك، وبالعكس، فصور

(١) انظر: كتاب: «النظرة الخاطفة في الاجتهاد» للمرجع المعاصر الشيخ إسحاق الفياض ص١١.

(٢) وتجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من القضايا التي يخالها البعض من مسلمات الدين وضرورياته هي ليست كذلك، ولمزيد من التبصر حول هذا الأمر يراجع ما ذكرناه في كتابنا: «أصول الاجتهاد الكلامي» ص١١٦ وما بعدها.

المسألة على هذا أربع:

١ ـ التنافي بين حقائق العلم وحقائق الدين، وهذا باعتقادنا لم يحصل ولن يحصل، وليذكر لنا أحدٌ نموذجاً واحداً على هذا النوع من المنافاة.

٢ ـ التنافي بين حقائق العلم ونظريات الدين، وهذا أمر ممكن[١]، ولا مفرّ في هذه الصورة من ترجيح الحقيقة العلميّة القطعية على النظرية الظنيّة، الأمر الذي يفرض إعادة النظر في فهمنا للنص الديني وتفسيره بما لا يتنافى مع حقائق العلم.

٣ ـ التنافي بين نظريّات العلم وحقائق الدين، وهذا لو فرض وقوعه وهو غير مستحيل، فلا مفرّ حينها من التمسّك بالحقيقة الدينية، لأنّه تمسك بالحجة القطعيّة. ومعلوم أنّه لا ترفع اليد عما هو قطعي لحساب ما هو ظني. أجل، الكلام كلّ الكلام في حصول القطع بمسألة دينية مع وجود نظريّة علميّة على خلافها.

٤ ـ التنافي بين النظريات العلميّة والنظريات الدينيّة، والأمر هنا يدعو إلى الترويّ وعدم التسرّع برفض النظريّة الدينيّة، أو التسرّع برفض النظريّة العلميّة، فلنُبقِ الأمر في دائرة الإمكان الديني والعلمي، دون أن نضعَ عراقيل في وجه حركة العلم، أو نَسِمَ الدين بالتخلّف، أجل قد يُشْكِلُ الأخذ بنظريّة دينية منافية لنظرية علميّة، حتى لو كانت النظرية الدينية تتصل بحكم شرعي، إذ لا يمكن الوثوق بمستند حكم شرعي يكون على خلاف نظريّة علميّة، ولا سيما إذا كانت ترقى في رسوخها إلى مستوى يلامس حدّ اليقين.

(١) ذكرنا بعض النماذج لذلك في كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي» في مبحثين، وهما مبحث شروط حجيّة الخبر في المجال العقدي، ومبحث العلاقة بين العلم والدين. فراجع.

وفي ضوء هذا، تمكن الإشارة ـ مثلاً ـ إلى أنّ نظريّة التطوّر الداروينية ـ بصرف النظر عن قيمتها العلميّة وما إذا كانت ترقى إلى مستوى اليقين أم لا ـ لا يبدو أنّها تنافي ضرورة دينيّة، فإنّ دفعيّة خلق الكائنات ليست من أصول الدين ولا من ضرورياته وقطعياته، وإنّما هي ـ أعني دفعية الخلق ـ هي نتاج فهم اجتهادي لنصوص الدين، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً أمام إعادة قراءة النصوص الدينية في هذا المجال أو تأويلها[1]، بل إنّ النصّ القرآني يتحدث عن الخلق التدريجي للكون، فهو يصرّح بأنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ويعتبر ذلك مدعاة للتفكّر والتدبّر والتذكّر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٥٩][2]، إنّ ذلك يفرض علينا الابتعاد عن إعطاء قراءة نهائية للنص الديني، وإبقاءه مفتوحاً على كافة القراءات المستجدة، فضلاً عن أن ذلك يحتّم علينا عدم التسرّع في إصدار أحكام تكفيريّة بحق المؤمنين بهذه النظرية العلمية أو تلك، أو تكفير ورفض النظريّة نفسها.

وربما يعترض البعض قائلاً: إنّه حتى لو وضعنا قواعد تعالج مشكلة التنافي بين التعاليم الدينيّة وبين معطيات العلم الحديث فهذا لا يعني صدقيّة الدين، لأنّ كثرة التنافي بين الدين والعلم هي في حدّ ذاتها تشكّل حجّة للملحد، إذ لو

(١) يقول الشهيد مطهري:«.. وعلى فرْض صحّة نظرية التطوُّر، وفرض تنافيها مع بعض ظواهر القرآن الكريم في نشأة الإنسان، ألا يُمكن تفسير القرآن بنحو لا يجعله يصطدم مع هذه النظرية أم أنّ التعارض بينهما مستحكم؟! أليست الظواهر القرآنية قابلة للتّوجيه والتّأويل؟ إنّنا إذا جعلنا القرآن الكريم محورَ كلامنا، فسوف نجد أنّه يُبيّن قصة آدم كنموذج. ولا يُوظِّف كيفية خِلقة آدم لإثبات العقيدة الإلهيّة، وإنّما يُركّز عليها لبيان المقام المعنوي للإنسان، وبيان سلسلة من المسائل الأخلاقية. وبالتالي من الممكن جداً أن يؤمن الإنسان بالله والقرآن، وفي نفس الوقت يُؤَوّل قصة آدم بتأويل معين. فلدينا اليوم أفراد يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ والقرآن، ويُفسِّرون خِلقة آدم في القرآن بتفسير ينسجم تماماً مع العُلوم الحديثة. وعلى أيِّ حالٍ، فليس من الإنصاف أنْ تُجعل هذه النظرية ذريعة لإنكار القرآن والدّين، فضلاً عن الجحود بالله»، انظر: الدوافع نحو المادية ص٧١، وانظر أيضاً: كتاب: الله خالق الكون ص٦١٣.

(٢) راجع حول ذلك: سورة السجدة آية ٤ وسورة يوسف الآية ٣.

كان الدين صواباً ومن عند الله كما يزعم المؤمنون بنظرية الخالق لما حصل أي تنافٍ بين الوحي والعلم، ويضيف المعترض: إنّ القضايا العلمية ثابتة بالتجربة والاستقراء، بينما التعاليم الدينية تستند إلى النقل وادّعاء الوحي، ولذا كان من الطبيعي تقديم العلم على الدين!.

ونقول في الجواب:

أولاً: إنّ دعوى التنافي بين الوحي والعلم هي ـ في أصلها فضلاً عن كثرتها ـ دعوى غير مسلّمة، وما يبدو من تنافٍ على هذا الصعيد إنّما هو بين فهم النصّ الدينيّ وبين معطيات العلم الحديث، ومعلوم أنّ النصّ الدينيّ لا سيّما القرآني منه هو في بعض جوانبه حمّال أوجه، ما يجعله قابلاً للتفسيرات المختلفة، وقد ينتشر أو يسود فهمٌ معيّن له ويكون هذا الفهم معارضاً لبعض المعطيات العلميّة، مع أنّ هذا الفهم ليس مقدّساً ولا يشكّل حجةً علينا، بل إنّ فتح باب الاجتهاد يعني الاعتراف حكماً بمشروعية القراءة الجديدة لهذا النص، وهذه القراءة لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار تطور وعي الإنسان وتطور معرفته وثقافته والتي يشكّل العلم الحديث أحد مصادرها، ما يعني أنّ التطور العلمي يساهم في فتح النص القرآني على آفاق جديدة وقراءات جديدة، وهو ما يفرض علينا أخذ التطور العلمي والثقافي بنظر الاعتبار أثناء قراءة النصّ ومحاولة استنطاقه.

أجل، لا يمكننا أن ننكر وجود حالات تنافٍ صارخة بين العلم وبين بعض الموروث الديني، الذي لم تثبت صحّته واعتباره، بل ربما كان مندرجاً في دائرة الموضوعات[1].

ثانياً: إنّ ابتناء القضايا العلميّة على التجربة والاستقراء لا يجنّبها الخطأ ولا يحفظها من الزلل، فقد تتغيّر المعطيات العلميّة من زمن لآخر ويتبيّن خطأها،

(١) انظر للتوسع حول هذه النقطة وبعض النماذج ذات الصلة: كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي» ص ٣٦٤.

وكثيراً ما يبدِّل العلماء التجريبيّون آراءهم ويكتشفون خطأ النظريات السابقة، وفي المقابل فإنّ ابتناء المفاهيم الدينية على أساس الوحي لا يُعدُّ نقصاً ولا عيباً فيها، فإنّ الوحي المستند في حجيّته إلى العقل يمثّل حجّةً ساطعة على الإنسان، ولا يسوّغ لأحد إنكاره جملةً وتفصيلاً لمجرد بعض التشويش أو عدم قدرته على الجمع بين معطيات النصّ الدينية ومعطيات العلم.

٣ ـ أسباب الإلحاد ودوافعه

والدراسة الموضوعية تقودنا إلى أنّ وراء ظاهرة الإلحاد ـ بصرف النظر عن بعض الافتراضات العلميّة الحديثة ـ جملة من الدوافع أو العوامل المؤثّرة في انطلاقتها والمساعدة على انتشارها:

أ ـ الأُلفة بالمحسوس

ربّما كان الدافع الرئيس الذي يخلق في النفس البشريّة ميلاً نحو الإلحاد، أو يعزّز النزعة الماديّة هو أنس الإنسان بالمحسوس وأُلْفَتُه بالمرئي والملموس، بينما الله سبحانه موجود فوق المادّة لا يُرى ولا يُلمس ولا يُمسّ. فألفة الإنسان بالمادّة وقوانينها تدفعه لا شعورياً إلى استبعاد فكرة الربّ الذي لا تدركه الأبصار ولا الحواس، وقد أشار الله تعالى إلى دور هذه النزعة الماديّة في الدفع نحو الشِّرك والإلحاد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا** ﴾[الفرقان: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ **وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۞ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا** ﴾[الإسراء: ٩٠ ـ ٩٢]، وهكذا فقد قال قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ له: ﴿ **لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ** ﴾[البقرة: ٥٥].

ولكن لا يخفى أنّ ربط وجود الأشياء بالإدراك الحسي لها، هو ربط ساذج وتخيّل هو أقرب إلى الوهم، فما كلّ موجود يمكن إدراكه بالحسّ، وبالتالي فليس من المنطقي في شيء نفي كل ما لا يخضع للحسّ والتجربة، إنّ عقولنا بمعناها المجرّد هي أئمة الأفكار والقلوب والحواس[1]، ومع ذلك فهي ـ أعني العقول ـ لا تُدْرَكُ بالحسّ المباشر ولا تخضع للتجارب.

ب ـ الغرور العلمي

وإنّنا نلحظ في دراسة بعض النماذج التي يتبنّى أصحابها الإلحاد، أنّها تنطلق من حالة «غرور علمي»، أو «سطحية علميّة»، تدفع بعض الأغرار إلى التسرّع في إطلاق الأحكام ونفي وجود الله تعالى، قبل التأمّل التامّ والتدبّر الكافي، ودراسة المسألة بشكل معمّق من جميع جوانبها؛ ولذا تكثر هذه الادّعاءات عند بعض الشباب الذين لم تختمر بنيتهم المعرفية بشكل كامل. إنّ التواضع العلمي يحتّم على الإنسان التروّي والتمهّل قبل أن يبتّ بمسألة بهذه الأهمية ـ أعني مسألة وجود الله تعالى ـ لمجرّد افتراض لم يرقَ إلى مستوى النظرية العلميّة، فضلاً عن أن يمثّل حقيقة علميّة. ومن هنا، فإنّ التجربة العلمية والخبرة المعمقة تعطي الإنسان درساً بليغاً في ضرورة التواضع العلمي والتروّي قبل المبادرة إلى إطلاق أحكام متسرّعة أو بناء تصورات «علميّة» على أسس وادعاءات فارغة.

د ـ ملاءمة هوى النفس

والإلحاد يلائم هوى النفس التي يستهويها التهرّب من التكاليف والالتزامات، والتخفّف من المسؤوليّات التي يرتّبها الإيمان بالله، فما دام لا يوجد إله ولا حساب، فما الضَّير في أن يندفع الشخص إلى ممارسة اللّهو الحرام وينغمس في

(١) من أجمل وأروع ما روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المجال قوله: «**العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء**»، انظر: «كنز الفوائد» للكراجكي ص ٨٨، وعنه: بحار الأنوار ج ١ ص ٩٦.

الشهوات، ويطلق العنان لغرائزه دون رادع من شرع أو خوف من حساب الله. إنّ الإيمان بوجود الله سيشكّل ضابطاً ورادعاً، وكذا الإيمان بيوم القيامة يفترض أن يخلق وازعاً رقابياً يدفع الإنسان إلى تحمّل مسؤوليّاته، ويفرض عليه نظاماً أخلاقياً واجتماعياً من نوع خاص. وأمّا من لا يريد أن يعيش حياته بمسؤولية وانضباط، فلا ضير عنده أن يتنكّر لوجود الله تعالـى، أو لوجود يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ **بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾ [القيامة: ٥ ـ ٦].

وهكذا فإنّ هوى النفس يعدّ دافعاً من دوافع الشرك بالله تعالى؛ لأنّ التوحيد، لا سيّما التوحيد في العبادة والطاعة يرتّب على الإنسان مسؤوليات تدفعه إلى التخلّي عن العادات والتقاليد اللاتوحيدية التي ورثها عن الآباء والأجداد، ولهذا فقد يندفع صاحب الهوى، وفراراً من الالتزام بمقتضيات العبادة والطاعة إلى القول بوجود إله آخر لم يأمره بذلك، ولم يكلّفه بهذه التكاليف الشاقة!

هـ ـ الاحتجاج على الواقع الديني

وقد يكون تبنّي بعض الأشخاص للإلحاد هو مجرّد ردّة فعل ساخطة على بعض الرؤى الدينية المتزمّتة، أو هو صرخة احتجاج في وجه بعض الممارسات اللّاإنسانية التي تقوم بها بعض الجماعات الدينية. وقد لاحظنا من خلال التجربة، أنّ بعض الشباب المسلم الذي يعيش حالة ضياع ونفور من الدين عندما تتحدّث معه محاولاً رفع شُبهاته وتبديد هواجسه فإنّك سوف تكتشف من خلال الحديث معه أنّ أساس المشكلة عنده ليست في عدم قبوله للدين أو في رفضه للإيمان بالله تعالى، وإنّما هي في نفوره من هذه النسخة المشوّهة والفظيعة التي يُراد تقديمها عن الإسلام، لدرجة أنّ بعض الشباب المسلم أصبح لديه يأس من إمكانية التغيير، ولذا تراه يخجل من انتمائه الديني.

كما أنّ ثمّة فجوة كبيرة بين شريحة لا بأس بها (ولعلها الأكبر) من «رجال

الدين» وبين الجيل الشاب، بحيث إنّ الكثير من «رجال الدين» بعيدون كلّ البعد عن هموم الشباب وهواجسهم، ولا يتفهمون قلقهم، ولا يستمعون إلى أسئلتهم، ولا يمتلكون الأسلوب الصحيح لمخاطبتهم والوصول إلى قلوبهم أو عقولهم، ولا يقتحمون منتديات الشباب ونواديهم وأماكن تجمعهم، بل يتعالون ويترفعون عن ذلك وينتظرون أن يأتيهم الشباب في بيوتهم ومساجدهم، معتبرين أنّه لا يليق بهم ولا يناسبهم كـ «رجال دين» أن يطرقوا أبواب الآخرين! مع أنّ الكثير من هذه الاعتبارات و«الشأنيات» لا أساس لها، بل هي مجرد أوهام وخيالات، فعالم الدين الذي يقتحم نوادي الشباب الرياضية والثقافية وأماكن تجمعهم للاستماع إلى همومهم وهواجسهم ويسعى إلى محاورتهم والإجابة عن أسئلتهم لن يضيره ذلك بشيء، ولن يوجب هتك حرمته، بل ربما نظر إليه الناس بعين الإكبار والاحترام على شجاعته وجرأته. إنّ من واجب علماء الدين وحماته أن ينزلوا من بروجهم العاجية إلى أرض الواقع ليعيشوا مع الناس وبينهم ويدخلوا الأسواق ويمشوا في الطرقات، ويقتربوا أكثر فأكثر من هموم الفقراء وأوجاعهم.

وفي المقابل، فإنّ على الشباب المسلم أن يكون يقظاً بصيراً فلا يغترّ بالمظاهر والألقاب والشكليّات التي يحوط بها البعض من دعاة العلم وتجار الدين نفسه، فلا يرضى (هذا البعض) أن يُذكر اسمه على المنابر أو غيرها إلا إذا سبقته وجرّته قافلة من الألقاب التبجيليّة، من قبيل: «صاحب السماحة والفضيلة، آية الله، العلامة، المجتهد ..» مع أنّه لا يمتلك من حقيقة تلك الألقاب شيئاً، ما يذكرنا بموقف الشاعر الحسن بن رشيق الذي رفض دخول الأندلس في زمن تقهقرها برغم إلحاح صديقه ابن شرف عليه بذلك، ولكنه أصرّ على الرفض وأنشأ في بيان حال تلك الديار المقسّمة وحال ملوكها الذين لا يشبهون الملوك سوى بالألقاب قائلاً:

مما يُزَهِّدُنِي في أرض أندلس أسماءُ مقتدرٍ فيها ومعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعِها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد[1]

إنّ على الشاب أن يفتش ويبحث عن العلماء الربانيين الذين يروون غليله الروحي، ويشبعون نهمه المعرفي، وهؤلاء العلماء موجودون على الدوام، فالأرض لا تخلو من حجة صالحة.

وإنّنا نوجّه دعوة إلى كل شاب مسلم حريص على مستقبل الرسالة الإسلامية بأن يبذل ـ قدر المستطاع ـ جهده في الدرس الديني المركّز، لا ليمتهن مهمة «رجل الدين»، فربما كان له تخصص علمي آخر أو ظيفة أخرى، وإنّما ليتسنّى لجيل الشباب امتلاك ثقافة دينيّة ذات بعدٍ منهجي أصيل، بما يؤهله لفهم الإسلام ونصوصه، ويمكنّه من حمله والدفاع عنه، أو نقله إلى فضاء أوسع، بالاستناد إلى لغة العصر التي يفهمها الشباب جيداً، فإنّ الدرس الديني ليس حكراً على جماعة معيّنة، وليس في الإسلام طبقة كهنوتية تحتكر فهم النص وشرحه.

٤ ـ هل الله خَلَقَنَا أم نحن خلقناه؟

في ضوء هذه الأُسس المنهجيّة المتقدّمة، يلزمنا دراسة ظاهرة الإلحاد ومراجعة كلّ ما يتشبّث به المنظِّرون لها. ويقيني أنّهم لا يملكون سوى شبهات قابلة للرد والتفنيد. وإذا كان المقام لا يسع للتوسّع أكثر في متابعة كلّ الشبهات، ولا سيما ما يُطرح مِن فرضيّات علميّة مؤيِّدة للفكر الإلحادي، هذه الفرضيّات التي ـ مع أنّها لا تزلزل اليقين بوجود الله تعالى ـ هي بحاجة ماسّة إلى دراسة علميّة متخصّصة، نأمل أن يقوم بها بعض أهل الخبرة من العلماء المؤمنين بوجود الله، بصرف النظر عن دينهم. ولكنّنا نكتفي في هذه العجالة ردّاً على ما يطرحه

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ ص ١٥٥، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ج ١٩ ص ٣٨، ونسب بعضهم البيتين المذكورين أعلاه إلى محمد بن عمار المهري الأندلسي.

ويردّده بعض الملحدين، حول تسخيف فكرة الإيمان بالله تعالى، حيث يُقال لنا: ألا زلتُم تبحثون عن وجود الله وتضيّعون أوقاتكم في هذه المتاهات، فإنّ مسألة الخالق قد غدت فكرة قديمة عفا عليها الزمن، أو يقال: إنّ «الله» هو مجرّد فكرة ذهنيّة ابتكرها «بعض العباقرة لإقناع الجماهير بأنّ في السماء قوة أزلية أبدية ترى كلّ شيء، وتسمع كلّ شيء وتهيمن بحكمتها على كلّ شيء»[1]. إننا نكتفي في الرد على أصحاب هذه الكلمات والدعاوى بالقول: إنّ وجود الله ـ لو أنصفتم ـ هو أمر بديهي، بل من أبده البديهيات، وتقضي به الفطرة الصافية والعقل السليم، وإنّ براهين وجوده هي أكثر من أن تحصى.

وأصدقكم القول: إنّي لا أفهم ولا أتخيّل كيف يمكن لعقلٍ منصف وموضوعي أن يتقبّل فكرة أنّ كوناً بهذه العظمة والدقة، وبهذا النظم والإبداع المنقطع النظير، وبهذا الجمال الساحر يوجد بلا خالق ولا منظِّم أو ينبعث من العدم واللّاشيء!!

ولعلّ هذا هو السبب في أنّنا لا نزال نرى الغالبية السّاحقة من بني الإنسان تتبنّى القول بوجود الله، بالرغم من تقدّم الحياة والتطوّر العلمي وسيطرة الإنسان على الطبيعة، وسيادة القانون في كثير من دول العالم. إنّ غالب الأفكار تَبلى وتصبح جزءاً من الماضي والتاريخ إلاّ فكرة وجود الخالق، فإنّها حافظت إلى يومنا هذا على حضورها وفاعليتها لدى مختلف الشرائح الاجتماعية وعلى اختلاف مستوياتها الفكرية، الأمر الذي يؤشّر ليس على فطريّة الاعتقاد بوجود الله تعالى وحسب بل وبداهة ذلك، بما يحتّم على كلّ عاقل أن يدرس هذه الفكرة ويلاحظ ما يساق لها من أدلّة وبراهين.

ثمّ كيف نفسّر ظهور هذا الاعتقاد والميل الفطري عند الأحداث، وربما الأطفال في سنّ التمييز، حيث نلاحظ أنّهم يتوجّهون إلى الآخرين بالسؤال عن

(١) انظر: الدين، تأليف: محمد عبد الله دراز، نقلاً عن بعض من أسماهم السوفسطائية ص٨١.

بدء الخلق، وكيف وجد الإنسان وكيف خلقت السماوات والأرض، ومن الذي نظّمها ورتّبها، وإذا قيل لهم: إنّ كل ذلك وجد هكذا من دون موجد ولا خالق ولا منظّم، فإنّ فطرتهم وعقلهم القاضييْن بأنّ وراء كلّ مسبب سبباً يدفعانهم إلى الاستغراب والتعجب. إنّ هذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على فطريّة هذا الميل وأنّه مغروس في الوجدان الإنساني.

وكيف لنا أيضاً أن نفسِّر ظهور هذا الميل عند بني الإنسان عامّة في الصعاب والشدائد؟ فالقضايا الفطريّة قد تغيب وتحتجب عنا بسبب الانغماس والانهماك في مشاغل الحياة وهمومها، ولكن سرعان ما تستيقظ وتصحو، وغالباً ما يصحو هذا الإحساس بوجود إله ذي قوة قادرة عندما نواجه بعض الصعاب التي يفقد فيها المرء الأمل بقدرته وإمكاناته الذاتية، أو بقدرة غيره على إنقاذه ممّا هو فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥].

هذا ولكن ربّما يفسِّر البعض ظهور هذه الأسئلة عند الأحداث والفتية، بأنّ هذا لا علاقة له بالفطرة، بل إنّ مرده إلى التربية التي غرست هذا المفهوم في الأذهان، وأنّ ظهوره لدى الإنسان في الشدائد والصعاب مردّه إلى ما يقال من أنّ الغريق يحاول التمسّك بالقشّة أملاً في النجاة وخوفاً من احتمال المؤاخذة والمساءلة.

إلا أنّ هذين التفسيرَين غير مقنعَين، أمّا إرجاع الخوف عند الشدائد والصعاب إلى الأمل وخوف المساءلة، فإنّها حتّى لو كانت صحيحة فهي لا تنافي ما نقوله.

وأمّا إرجاع الميل المذكور لدى الأطفال إلى التربية حصراً، فهو تفسير مرفوض، وليس مقنعاً، لأنّ انتشار الإيمان بالله تعالى عند معظم بني الإنسان منذ فجر التاريخ وإلى يومنا هذا لا نعتقد أنّه أمر يسهل تفسيره بالتربية فقط،

لأنّنا نجد ظهور هذا الميل عند أشخاص لم يعمل أحد على تربيتهم على الدين والمعتقدات الإيمانية.

ثم إذا كان هذا الأمر، وهو الإيمان بالخالق، ليس فطرياً وإنّما منشأه التربية، فإنّنا نسأل: لِمَ لم تستطع التربية المعاكسة إقناع ملايين الناس بالإلحاد، مع أنّ الفكر الإلحادي الذي كان مهيمناً في الاتحاد السوفياتي ـ مثلاً ـ عمل على التبشير بالإلحاد والدعوة إليه في المدارس والجامعات، مستخدماً كلّ وسائل الثقافة والتوجيه لمدّة سبعين عاماً تقريباً، وسعى إلى تسخيف الدين ومنع التبشير به، ومع ذلك كلّه لم يستطع أن يُجذّر الإلحاد أو يُزيل الإيمان من النفوس، ولذا فإنّه وبمجرد انهيار النظام المذكور وجدنا أنّ ملايين الناس عادت إلى فطرة الإيمان بالله تعالى!

ولك أن تسأل أيضاً: إنّه إذا كانت التربية هي التي غرست فكرة الإيمان بالله في أذهان الأجيال اللاحقة، فمن غرس هذا المفهوم عند أبناء الجيل الأول من بني الإنسان؟ إننا لا نجد توجيهاً مقبولاً لذلك سوى فطريّة الإيمان.

ربما يقال: إنّ الجهل هو الذي دفع الإنسان الأول ونتيجة خوفه من بعض الظواهر الطبيعية التي لم يجد لها تفسيراً علمياً إلى ربطها بقوة غيبيّة أسماها الإله، متوهّماً أنّ بعض هذه الظواهر كالمطر أو الشّمس أو الأنهار أو الكواكب كائنات حيّة ولها شعور، وهي عندما تغضب فإنّها تنتقم وترسل غضبها وتعبّر عن سخطها من خلال الزلازل والفيضانات، أو عبر الكسوف أو الخسوف، أو غيرها من الكوارث الطبيعية، لذا حاول اتقاءها بتقديم القرابين إليها، أو عبادتها، أو ما إلى ذلك، هكذا انطلقت فكرة وجود الخالق وهكذا انتشرت وتطوّرت.

إلاّ أنّ هذا التفسير أيضاً لا يمتلك قوة إقناع، ولا حجة إثبات، لأنّ مفاده أنّ الإيمان بالخالق والإله فكرة انطلقت من حالة الجهل بالطبيعة وعدم القدرة

على تفسير بعض ظواهرها المخيفة، وهذا معناه أنّ الإنسان عندما استطاع أن يفسّر الطبيعة ويفهم ظواهرها ويعثر على تفسير علمي لأسرارها لم يَعُدْ بحاجةٍ إلى مثل هذا الإيمان أو الاعتقاد. مع أنّ الأمر بالعكس كما نلاحظ، فإنّ الإيمان بالله يزداد قوة وحضوراً كلّما ازداد فهم الإنسان للطبيعة، وتكشفت له أسرارها المذهلة وخباياها العجيبة ونظامها الدقيق، حيث يزداد العالم والعاقل يقيناً أكثر من ذي قبل بأنّ مثل هذه الطبيعة على ما عليه من الدّقة والتنظيم والروعة، ما كانت لتوجد عبثاً ولا أن تبتدع نفسها بنفسها.

وختاماً يمكننا القول: إنّ الإنسان إذا تجرّد من الهوى والعناد وغيرها من المؤثرات اللّامنطقية ونظر إلى الأمور نظرة ثاقبة، فإنّ ذلك سيقوده إلى الله تعالى، وإلى الاعتراف بأنّ وجوده تعالى ليس ممّا يحتاج إلى براهين وأدلّة يقيمها غيره عليه، فهو أشدّ وضوحاً من غيره، فكيف يكون غيره هو المظهر له، وكما جاء في الدعاء المنسوب للإمام الحسين عليه السلام: **«كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظْهِر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بَعُدْتَ حتى تكون الآثار هي التي تُوصل إليك، عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»**(1). ولكن ربّما يخفى الشيء لشدّة نوره وظهوره، وكما قال السبزواري في المنظومة:

يا من هو اختفى لفرط نوره   الظّاهر الباطن في ظهوره(2)

(1) «بحار الأنوار» ج٦٤ ص١٤٢.

(2) هذا البيت هو ممّا استهل به السبزواري منظومته الفلسفية الشهيرة، انظر: شرح غرر الفرائد ـ قسم الأمور العامة والجوهر والعرض، تحقيق: مهدي محقّق، انتشارات جامعة طهران، ١٣٦٩هـ، ص٣.

٢

الشباب والعلاقة مع الله تعالى

مع تخطي الشبهات حول وجود الله تعالى، ننقل الحديث إلى مرحلة لاحقة، وهي تحديد مسؤولياتنا تجاه الله تعالى، ويهمنا هنا تركيز الحديث عن علاقة الشباب بالله تعالى، حيث يفرض السؤال نفسه: كيف يبني الشباب علاقة صحيحة وناجحة مع الله تعالى، بعيداً عن الطقوس الجامدة والفارغة من الروح والمضمون؟

الجواب: إنّ العلاقة الناجحة مع الله تعالى لها مراتب متعدّدة ومتدرّجة، وأرقى هذه المراتب هي مرتبة المحبّين الذين تقوم علاقتهم مع الله على أساس الحبّ وليس الخوف أو الطمع[(١)]. وإذا دخل حبّه تعالى في قلوبنا فإنّها ستحيا وتظلُّ عامرة. وأعتقد أنّ البرنامج العبادي الناجح هو الذي يوقد جذوة الحب الإلهي في قلوبنا، ليكون الله حاضراً فيها، والقلوب التي يحضرها الله يخرج منها الشيطان مذموماً مدحوراً. وعن الخطوات العملية لهذا البرنامج، فإنّي أُحيل أحبتي القراء الكرام على ما سجّلته في كتابي: «وهل الدين إلاّ الحب؟» وتحديداً في المحور الخاص المعدّ لبيان هذه القضيّة، وهو بعنوان «دور الحبّ في العلاقة مع الله».

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «**إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ**»، انظر: نهج البلاغة ج ٤ ص ٥٣.

١ ـ خطوات على الطريق

وبصرف النظر عما ذكرناه في ذلك الكتاب، فإنّه يهمّني هنا أن أشير إلى خطوتين أساسيتين في كيفيّة بناء العلاقة الناجحة مع الله تعالى:

الخطوة الأولى: هي إحساسنا بأهميّة هذه العلاقة وضرورة حضور الله في حياتنا، وهذا الإحساس رغم بداهته وفطريته، لكنه قد يغيب في غمرة الشباب وزهوه ولهوه، وإذا غاب ـ لا سمح الله ـ فسوف تغيب معه الكثير من الكمالات الروحيّة والمعنويّة التي تهيىء الشباب لحالةٍ من السمو الروحي والاستقرار النفسي والعاطفي والاجتماعي، ولهذا نوجِّهها نصيحةً مخلصةً لكل شاب: احرصْ على هذا الإحساس الفطري بحضور الله في قلبك، واعملْ على تنميته، وانسجمْ مع مقتضياته، ولا تسمحْ له بأن يغادرك، وبالأحرى لا تسمح لأهوائك أن تعبث بك فيغادرك ذاك الإحساس الفطري النقي بوجود الله تعالى وحضوره في حياتك، فأنت ـ دون سواك ـ محتاج إليه في فكرك وعاطفتك وسلوكك.

أيها الشاب العزيز.. إنّي أتوجّه إليك بالسؤال: أليس التفكير هو علامة النجاح في هذه الحياة؟ بالتأكيد سوف يكون جوابك بالإيجاب، فالشخص الذي يفكّر لأمر المستقبل ويخطّط له ويعمل لأجله هو شخص ناجح بكل تأكيد.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّي أسألك سؤالاً آخر: أليست الآخرة عند المؤمن هي المستقبل الأبقى والأوفى، ولا قيمة للدنيا وأعمالها وأموالها وجاهها إن خسر الإنسان الآخرة؟ قال الله تَعالَى: ﴿ **بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ** ﴾[الأعلى: ١٦ ـ ١٧]، وقال سبحانه وتَعالَى: ﴿ **وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ** ﴾[القصص: ٦٠] فهل ترانا نخطط للآخرة ونفكّر بأمرها ونهيّئ لها عدتها وزادها؟

إنّ زاد الآخرة هو كلّ عمل يقرّبنا من الله تعالى ويرضيه عنّا ويبعدنا عن

غضبه ونقمته، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[التحريم: ٦]. إنّ زاد الآخرة هو تقوى الله، قال الله تَعَالَى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[البقرة: ١٩٧].

والخطوة الثانية: هي المبادرة إلى وضع خطّة عمليّة تؤمّن لنا سلامة العلاقة مع الله تعالى، ولسنا بحاجة إلى ابتكار خطّة من عندنا، فالخطّة موضوعة ومعدّة من قِبل الله تعالى، وهي تتمثّل بالسير على جادة الشريعة ومنهجها اللّاحب الواضح المعالم، بحيث لا يقدّم الإنسان رِجْلاً ولا يُؤخّر أخرى حتّى يعلم أنّ لله في ذلك رضا، وبذلك يضمن سعادة الدارَين.

ولا ريب أنّ العبادات الشرعية ـ بكافّة أنواعها من الصلاة إلى الدُّعاء، والذِّكر إلى الصوم، إلى غير ذلك من أشكال العلاقة مع الله تعالى ـ هي الوسائل والطرق التي أعدّها الله تعالى لعباده ليتواصلوا من خلالها معه، بل ليصلوا بواسطتها إليه؛ ولذا فإنّ هذه المنظومة العبادية يُفترض ـ في الحد الأدنى ـ أن توفِّرَ وتَضْمَنَ للعباد قدراً معقولاً من الاستقرار الروحي، وتفتح للراغبين في الاستزادة باباً يقرّبهم من الله تعالى زلفى، ليعيشوا سموّاً روحياً ويأنسوا بلذيذ مناجاته.

ولنا عودة إلى تفاصيل البرنامج العبادي الشرعي عمّا قليل تحت عنوان «الشباب ومشكلة الجفاف الروحي».

٢ ـ فضل الشاب العابد

وأعتقد أنّ روح الشباب وفطرته النقيّة تجعله أكثر تفاعلاً وحيويّة في العلاقة مع الله تعالى، وأشدّ ارتقاءً بالعبادة من غيره من الناس. ولكنْ وفي الوقت عينه حيث كان مَيْلُ الشباب إلى اللّهو واللّعب والراحة وانجذابه إلى المغريات أكثر

من غيره، فإنّ ذلك سيعطي لعبادته أهميّةً خاصّة، وربّما يكون ثوابه عند الله تعالى أكثر من غيره، ومن هنا ورد في الأحاديث النبوية الشريفة امتداح الشاب العابد وتفضيله على الشيخ الكبير، وهذه باقة من الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

عن رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكةَ، يقول: انظروا إلى عبدي! ترك شهوته من أجلي**»[1].

وعنه ﷺ: «**إنّ الله تعالى يحبّ الشاب التائب**»[2].

وعنه ﷺ: «**ما من شيء أحبّ إلى الله تعالى من شاب تائب، وما من شيء أبغض إلى الله تعالى من شيخ مقيم على معاصيه..**»[3].

وعنه ﷺ: «**فضل الشاب العابد الذي تعبّد في صباه على الشيخ الذي تعبّد بعد ما كبرت سنه كفضل المرسلين على سائر الناس**»[4].

وعنه ﷺ: «**سبعة في ظلّ عرش الله عزّ وجل يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل تصدّق بيمينه فأخفاه عن شماله، ورجل ذكر الله عز وجلّ خالياً ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل، ورجل لقى أخاه المؤمن فقال: إنّي لأُحِبُك في الله عزّ وجل، ورجل خرج من المسجد وفي نيته أن يرجع إليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها، فقال: إنّي أخاف الله رب العالمين**»[5].

وثمّة حديث يعزى إلى الرسول الأكرم ﷺ يقول فيه: «أوصيكم بالشبان خيراً فإنهم أرّق أفئدة»، ويتم تداوله على ألسنة العامة والخاصة[6]، ولكننا ورغم التتبع

---

(١) انظر: كنز العمال ج١٦ ص٧٧٦.
(٢) انظر: كنز العمال ج١٥ ص٧٨٦.
(٣) كنز العمال ج١٤ ص٢١٧.
(٤) كنز العمال ج١٥ ص٧٧٦.
(٥) الخصال للصدوق ص٣٤٣، وصحيح البخاري ج٨ ص٢٠.
(٦) لاحظ كتاب «قواعد في بناء الشباب»، لسماحة الشيخ اليعقوبي ص ٥ وغيرها.

لم نعثر على مصدر لهذا الحديث، ولم يرد في كتب الشيعة ولا في كتب السنة ولو بسند ضعيف أو مرسل.

٣ـ لصوص الطريق

ولكنّ طريق العلاقة مع الله والسعي إليه، هي طريق محفوفة بالمخاطر وملأى باللّصوص وقطّاع الطرق الذين يعملون على إضلال الناس، ويزيّنون لهم المعاصي، ويوسوسون لهم، ويسعون إلى حجبهم عن الله تعالى، هذا ناهيك عن النفس الأمّارة بالسوء. ومن هنا كان العبد بحاجة إلى اعتماد منهج أصيل في مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، والعمل على تخليتها من الرذائل ثم تحليتها بالفضائل، وعلى رأسها حبُّ الله سبحانه.

والمجاهدة ـ مجاهدة النفس ـ بالنسبة للشباب هي عملية سهلة وصعبة في الوقت عينه. أمّا سهولتها فبسبب قرب الشّاب إلى الفطرة وإلى كلّ خير، كما مرّ في الرواية[١]، فهو في مقتبل العمر ومفطور على حبّ الخير ومتحفّز نحو التغيير، ولم يَعْتَد ارتكاب الحرام ليغدو عادة قاهرة أو طبيعة آسرة، وروحه متحفّزة ومتوثبة وضميره الديني يقظٌ، ونفسه اللوّامة فعّالة أكثر من غيره. وأمّا صعوبتها فبسبب قوّة الغريزة لدى الشاب وكثرة المغريات المحيطة به، ما يجعله عرضة للوقوع في شباك الإغراء والإثارة. ومع ذلك تبقى مرحلة الشباب هي الفرصة المثلى لتهذيب النفس وتزكيتها.

والسؤال: ما هو المنهج الأمثل لتزكية النفس وتهذيبها بالاستناد إلى ما جاء في القرآن الكريم وصحيح السنة؟

(١) المروية عن الإمام الصادق عليه السلام وجاء فيها: «**عليكم بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير**»، انظر: الكافي ج٨ ص٨٣.

النوازع المتصارعة

وقبل أن نجيب عن السؤال حول كيفية تهذيب النفس، لا بدّ أن نُذكّر بما تقدّم من أنّ النفس الإنسانية وإن كانت تولد وهي تحمل فطرة صافية، ولكنّها قد تتلوّث إمّا بالتربية الفاسدة أو بالثقافة الخاطئة، بل إنّ من خصوصيّات هذه النفس أنّ فيها نوازع داخليّة قد تؤثّر في صفائها، فهي ميّالة إلى الانجرار مع المصالح والغرائز ولو على حساب المبادئ، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بـ «هوى النفس»، قال تَعالَى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾[النجم: ٢٣]. كما أنّها ـ أعني النفس ـ ميّالة إلى اللّهو والدَّعة والراحة والتحرّر من القيود والتخفّف من الأعباء، ولهذا ورد في بعض المناجاة المنسوبة[١] إلى الإمام زين العابدين عليه السلام شكاية هذه النفس إلى الله، وطلب العون والتوفيق منه تعالى لتهذيبها وإصلاحها، تقول المناجاة المذكورة: «**إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة ولسخطك متعرّضة تسلك بي مسالك المهالك وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل طويلة الأمل إن مسّها الشر تجزع وإن مسّها الخير تمنع ميالة إلى اللّعب واللّهو مملوءة بالغفلة والسهو**»[٢].

ومن هنا نعرف السبب في أنّ إحدى أهم وظائف الأنبياء عليهم السلام هي تهذيب النفس وتزكيتها، كما ذكر القرآن الكريم. ﴿**هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ**﴾[الجمعة: ٢].

لكنّ ما تقدم من حديث عن نوازع النفس لا ينبغي أن يصيبنا بالذعر أو يدفعنا إلى اليأس والإحباط، لأنّ هذه النوازع ليست قدراً قاهراً بحيث تلغي

(١) وإنّما قلنا منسوبة له عليه السلام، لعدم ثبوت انتساب هذه المناجاة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، كما حقّقنا ذلك في ملاحق كتاب «وهل الدين إلا الحب؟» ص٢٣٢.

(٢) انظر: مناجاة الشاكين، بحار الأنوار ج٩١ ص١٤٣.

إرادة الإنسان أو تصادر حريته واختياره، على أنّ الله تعالى ـ وفي قبال هذه النوازع ـ قد زوّد النفس الإنسانية بهداية الفطرة وبدوافع ومقتضيات الخير، أو ما يمكن أن نسميه بالضمير الداخلي، وما يسميه القرآن بـ «النفس اللّوامة» والتي وقعت محلاًّ لِلقَسَم الإلهي، في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ١ ـ ٢].

ثم إنّه وفي خضم هذه النوازع المتصارعة على صعيد النفس، يبدأ الصراع الداخلي لدى الفرد، ويأخذ بالتفكير: أيختار طريق الهدى والخير والكمال الروحي على صعوباته ومشاقّه، أم يختار الطريق الذي يؤمِّن له مصالحه ويحقّق رغباته، وهو في الغالب طريق سهل هيّن ومزروعٌ بالورود؟

وفي خضمّ هذا التجاذب يسقط الكثيرون في معركة الإرادة، ولعلّهم أكثرية الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣]. وقد كان قابيل أول أبناء الجيل البشري الذين سقطوا في الامتحان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٣٠].

ووسط هذا الاشتباك أو الصراع الداخلي، تبرز أمامنا أهميّة جهاد النفس كطريقٍ لا مفرّ منها لتغليب نوازع الهداية، ومقتضيات الفطرة السليمة ونداء الضمير الصاحي على الهوى ووساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء. وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما أكدّت عليه النصوص الدينية المختلفة، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث بسريّة، فلمّا رجعوا قال: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر**، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: **جهاد النفس**»[1]. وإنّما كان جهاد النفس جهاداً أكبر، لأنّ الإنسان هنا في معركة مع نفسه وأهوائه الداخلية، وليس في معركة مع عدو من

(١) الكافي ج٥ ص١٢.

الخارج يعتدي عليه أو ينتهك عرضه أو يحتل أرضه، إنّه أمام عدو الداخل، وقد ورد في بعض الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»[1].

٤ ـ أمثل الأساليب في عمليّة تهذيب النفس

وهنا نعود إلى السؤال المتقدّم حول أمثل الأساليب وأفضلها في مجاهدة النفس وتهذيبها؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال، نقول (مع الأخذ بعين الاعتبار ما ذكرناه حول أسلوب العلاقة الصحيحة مع الله): إنّ الطريق الأفضل والأسلوب الأمثل لتهذيب النفس يتمثّل في اتباع عدة خطوات:

أ ـ التزام منهج الكتاب والسّنة

الخطوة الأولى: هي الالتزام في عمليّة تهذيب الروح والنفس بنهج الكتاب والسُّنة المتمثّل بالعمل بالتكاليف الشرعية، والأخذ بالمنظومة العبادية والروحية التي جاءتنا عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام. (ستأتي الإشارة إلى هذه المنظومة) والأخذ بالمنظومة المذكورة لا بدّ أن يترافق مع إعداد وقت لمحاسبة النفس وتهذيبها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ**﴾[النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. إنّ المؤمن بحاجة إلى تخصيص

(١) رواه ابن فهد الحلي مرسلاً في كتاب: «عدة الداعي ونجاح الساعي» ص ٢٩٥، وقال العجلوني في «كشف الخفاء»: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك» رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شاهد من حديث أنس، ويجري على ألسنة كثيرين «أعدى عدويك» بالتثنية في الموضعين، ولا أصل له بهذا اللّفظ، والمشهور على الألسنة «أعدى عدوك» بالإفراد في عدوّك، وما أحسن ما قيل:

إنّي بليت بأربع ما سُلِّطوا ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلّهم أعدائي

(كشف الخفاء ج ١ ص ١٤٣).

مثل هذا الوقت للاختلاء بنفسه لمحاسبتها ومساءلتها، وقد ورد في الحديث النبوي المشهور: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن تُوزنوا وتجهّزوا للعرض الأكبر**»[١]، ولنا حديث عن المحاسبة وكيفيتها وآثارها الطيبة سيأتي في فقرة لاحقة تحت عنوان «الشباب والفراغ الروحي».

ب ـ بناء العلاقة مع الله على أساس الحبّ

والخطوة الثانية على هذا الصعيد هي السعي الجادّ في سبيل استشعار عظمة الله تعالى، وإبقاء جذوة حُبّه متقدة في النفوس، ومعلومٌ أنّ المحبّ لا يعصي حبيبه، بل يحرص على الدوام لنيل رضاه وكسب محبته.

وأعتقد أنّه ليس أمام الإنسان المسلم من طريق للوصول إلى مستوى مقبول من الاستقرار الروحي، إلاّ الطريق الذي رسمه القرآن الكريم والذي تقدّمت أهم خطواته العمليّة، وسيأتي مزيد من الحديث عنه، فهذا الطريق هو الموصل ليس إلى حالة من العروج أو السمو الروحي فحسب، بل إنّه سيغرس محبّة الله في القلب، ومَنْ ذاق محبّة الله فلن يتّخذ معه شريكاً في الحبّ، فضلاً عن اتخاذ شريك له في الطاعة والعبادة والخالقية، وقد ورد في المناجاة «**إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام عنك بدلاً ومن ذا الذي أَنِس بقربك فابتغى عنك حِولاً**»[٢]. ومن يبني علاقته مع الله على أساس الحب، فلن يُشغل بالَه حديثُ الجنة والحور، بل يغدو رضا الله غايته وطموحه، يقول أحد الشعراء:

رضـاك رضاك لا جنـات عدن وهـل عـدن تطيب بـلا رضاكا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ**

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٩٩، الباب ٩٦ من أبواب جهاد النفس، الحديث ٩.

(٢) مقطع من مناجاة المحبين المنسوبة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، راجع حول سند هذه المناجاة ما ذكرناه في ملاحق كتاب: «وهل الدين إلاّ الحب؟» ص٢٣٢ وما بعدها.

ﭐلۡفَوۡزُ ﭐلۡعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٧٢].

وهكذا فإنّ من يعيش محبّة الله تعالى لن تؤلمه نار جهنم بقدر ما تؤلمه نار الهجر وفَقْد الحبيب.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك**»[1].

ج ـ أهميّة القدوة في حياة الشباب

إلى ذلك، فإنّ ثمّة خطوة ثالثة تساعد كثيراً في عملية تهذيب النفس وإصلاحها، وتتمثّل باتّخاذ قدوة صالحة، والقدوة في هذا المجال هي النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ومن تربّى في مدرستهم من الأولياء والصلحاء والعرفاء. ولا ريب أنّ استحضار سيرة هؤلاء ومواقفهم وتجاربهم في تزكية النفس الأمارة، هي خير معين للشباب في مهمّة التزكية والتهذيب.

ويجدر بالخطاب الديني أن يعمل على تقديم النماذج الشبابية التي تخرّجت من مدرسة الإسلام الأصيل إلى أجيالنا المعاصرة، ورغم الأهميّة الخاصّة التي يوفّرها لنا استلهام النماذج المعصومة باعتبار أنّ تجربتها وسلوكها وفكرها مصون من الخطأ والزلل، فإنّي أشعر أنّ لاستحضار النماذج غير المعصومة، والتي تربّت في مدرسة المعصومين ميزة خاصة؛ لأنّ ذلك:

أوّلاً: أدعى للاقتداء بهم وتمثّل سلوكهم، وأبعد عن محاولة الاحتجاج والتعلّل بعدم القدرة على الاقتداء، كما يدّعيه البعض عادة عندما يُدعى إلى الاقتداء بالمعصوم. مع أنّ هذا العذر ليس صحيحاً، لأنّ عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام لا تلغي بشريته ولا تنفي وجود الغرائز لديه.

(١) مقطع من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل.

ثانياً: وأضف إلى ذلك أنّ استحضار هذه النماذج الشبابية التي تخرّجت من مدرسة المعصومين عليهم السلام، يمثّل تقديراً ووفاءً لهؤلاء وتنويهاً بأسمائهم وتعريفاً بأشخاصهم ومواقعهم، وهم في الأعمّ الأغلب شخصيّات مجهولة لهذا الجيل الشبابي بل لعامة المسلمين! وقد يكون التقصير أو القصور في التعريف بهؤلاء من قِبَل أهل العلم والأدب، هو أحد الأسباب التي تقف خلف ظاهرة تقليد الشباب المسلم لرموز من خارج الفضاء الإسلامي من الممثّلين أو المطربين أو لاعبي كرة القدم أو غيرهم.

٥ ـ من عرفاء مدرسة الوحي

وبالحديث عن القدوة الصالحة يمكننا القول: إنّ المدرسة القرآنية وتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام قد استطاعت أن تربّيَ جيلاً من عباد الله الصالحين، الذين عرفوا الله حقّ المعرفة، بعيداً عن الخطوط المنحرفة للسلوك الروحي. ونكتفي بذكر عدّة من هؤلاء، وهم من الجيل الشاب:

١ ـ الصحابي المتيقّن

ومن أبرز هؤلاء ذاك الشاب الصحابي الذي حدثنا الإمام الصادق عليه السلام عن قصّته قال ـ فيما رُوي عنه ـ : «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أصبحت يا فلان؟**

قال: أصبحت موقناً.

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنّه يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا منهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة يتنعّمون

في الجنة ويتعارفون وعلى الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثم قال: إلزم ما أنت عليه. وفي خبر آخر «**أبصرت فاثبت**».

قال الشاب: ادعُ لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستُشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[1].

٢ ـ مصعب بن عمير: من حياة الترف إلى الشهادة

والنموذج الآخر الذي نذكره في هذا المجال هو الصحابي الشاب مصعب بن عمير الذي ترك حياة الترف في مكة ليلتحق بالدين الجديد، ويسعى في نشر الإسلام والدعوة إليه ويبادر بكلّ اندفاع وحماس إلى حمل الرسالة الإسلامية إلى أهل يثرب (المدينة المنوّرة). لقد كان مصعب فتى مكة الجميل المترف المدلّل، وكان أبواه يحبّانه، وكانت أُمّه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وظلّ يعيش بين أبوين يكرمانه ويفضلانه على سائر أولادهما، إلى أن دخل الإسلام قلبه فترك حياة الترف واللهو، فجفاه أبواه دون أن يفتّ ذلك من عضده أو يوهن من عزيمته. فكان مع رسول الله في الشِعْب حتّى تغيّر وأصابه الجهد، ولكنّه في هذه الفترة اغتنى بالقرآن الكريم وتعلّم منه الشيء الكثير. ولهذا انتدبه النبي ﷺ إلى مهمة جليلة، وهي مهمة الذهاب إلى المدينة لتعليم أهلها القرآن الكريم وتعريفهم بالإسلام . فكان يخرج في كل يوم يطوف على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الاسلام فيجيبه الشبان منهم، وظلّ مصعب على إخلاصه للإسلام إلى أن استشهد في معركة أُحد بين يدي رسول الله ﷺ[2].

---

(١) الكافي ج٢ ص٥٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٩٦، وج ٣ ص ٥٩٢، وإعلام الورى بأعلام الهدى ج ١ ص ١٣٩،

٣ ـ الشاب التائب

والنموذج الثالث: هو أحد الشباب المعاصرين للإمام الصادق عليه السلام، ففي الحديث عن أحد أصحاب الإمام الصادق والمسمّى بعليّ بن أبي حمزة، قال: كان لي صديق من كتّاب بني أمية، فقال: استأذنْ لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له، فأذن له، فلمّا دخل سلّم وجلس، ثم قال: جعلت فداك إنّي كنت في ديوان هؤلاء القوم (بني أميّة) فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه! (أي لم أسأل ولم أهتم: أمن حلال هو أم من حرام؟).

فقال أبو عبد الله عليه السلام: **لولا أنّ بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم ما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلاّ ما وقع في أيديهم.**

فقال الفتى: جُعلت فداك فهل لي من مخرج؟

قال عليه السلام: **إن قلت لك تفعل؟**

قال: أفعل.

قال: **فاخرج من جميع ما كسبت من ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرف تصدّقت به، وأنا أضمن لك على الله عز وجل الجنة.**

فأطرق الفتى طويلاً، وقال: قد فعلت جُعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلاّ خرج منه حتّى ثيابه التي على بدنه، فقسمنا له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا إليه بنفقة.

وقاموس الرجال للتستري ج ١٠ ص ٨٦، وموسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ محمد هادي اليوسفي ج ١ ص ٦٥٣.

قال: فما أتى عليه إلاّ أشهر قلائل حتّى مرض، فكنّا نعوده قال: فدخلت يوماً وهو في السَّوق (الاحتضار) ففتح عينيه، ثم قال لي: يا علي لقد وفّى لي صاحبك، ثم مات فتولينا أمره..»[1].

إلى غير ذلك من الأسماء الشبابية البارزة التي تركت ملذات الدنيا وهاجرت إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ. وسوف نشير لاحقاً إلى مزيد من هذه النماذج التي استطاعت أن تنتصر على النفس الأمارة بالسوء وتخلّت عن ترف الدنيا ولهوها لأجل أن تحيا حياة متواضعة ولكنها مفعمة بالإيمان بما يضمن لها استقراراً روحياً منقطع النظير، وكان لها أيضاً دور هام في حمل الرسالة الإسلامية[2].

٤ ـ نماذج شبابية ذكرها القرآن الكريم

هذا لو قصرنا النظر على تاريخنا الإسلامي، أما إذا ذهبنا في جولة إلى تاريخ الرسالات السابقة وفتحنا سجلاته المشرقة فسوف نجد ـ أيضاً ـ الكثير من النماذج الشبابية التي تمثّل قدوة تحتذى، فهذه القديسة مريم عليها السلام هي نموذج الفتاة الطاهرة العفيفة، وقد خلّد القرآن الكريم ذكرها في العديد من آياته المباركة، حتى خصصت سورة قرآنية باسمها، وهؤلاء فتية أهل الكهف الذين فرّوا من قومهم ومجتمعهم الغارق في الشرك والوثنية والتجأوا إلى الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ

(١) الكافي ج ٥ ص ١٠٦.
(٢) انظر: المحور الرابع، فقرة «دور الشباب في عملية النهوض».

أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[الكهف: ١٣ ـ ١٦].

إنّنا نتوجّه إلى شبابنا اليوم بالقول: هؤلاء هم سلفكم الصالح وهؤلاء هم قدوتكم الذين عليكم الاستلهام من هديهم والسير على خطاهم، وليس قدوتكم المطرب الفلاني أو الممثلة الفلانية أو لاعب الكرة الذي قد لا يملك في سجله شيئاً من الإنجازات سوى نجاحه في اللعب، ولكنّه في ميزان القيم والأخلاق قد يكون إنساناً عادياً جداً..

٣

الطرق غير المشروعة في تهذيب النفس

وفي مقابل الطريق المتقدّم وهو الطريق المشروع، فإنّ ثمّة طُرقاً أخرى غير مشروعة في بناء العلاقة مع الله تعالى، أو في عملية تهذيب النفس وتزكيتها، وفيما يلي نشير إلى ثلاث طرق منها:

١ ـ طريق الإرجاء

وهي الطريق التي توجز العلاقة بالله تعالى وتختصرها بالبُعد الاعتقادي القلبي أو العقلي، ولا تُولي العمل بالأركان (فعل الواجبات وترك المحرّمات) أهميّة تُذكر. فالمهم لدى أصحاب هذا الاتّجاه أن يكون قلبك نابضاً بحبّ الله، وأن يكون عقلُك موقِناً بوجوده تعالى، ولا همّ بعد ذلك إن عملت بمقتضى ما علمته أم لم تعمل!

إنّ هذه العقيدة قد تبنّاها قديماً المرجئة (فرقة إسلامية منقرِضة) ولا يزال صدى هذه العقيدة يتردّد إلى يومنا هذا، حيث نجد أنّ بعض المسلمين عندما يستنكر البعض عليهم انغماسهم في المعاصي وإطلاقهم العنان لغرائزهم وتَرْكَهم العبادات والفرائض فإنّهم يبرّرون ذلك بمنطق المرجئة عينه فيقولون لك: «إنّ الإيمان في القلب»، أو «إنّ الأساس هو أن يكون قلبك نظيفاً ولا تعتدي على أحد»، أو أمثال ذلك من الكلمات التي يتذرّعون بها ويبرّرون بها ضعف إرادتهم ونقص إيمانهم.

ولا ريب أنّ هذه العقيدة هي عقيدة باطلة وغير سديدة، فالإيمان ليس فكرة ذهنية مجرّدة أو نبضة قلب فحسب، وإنّما هو بالإضافة إلى ذلك سلوك سويّ وخُلُق طيّب والتزام بالفرائض والواجبات وترك للرذائل والمحرّمات، وقد سئل علي عليه السلام ـ كما في الرواية ـ عن الإيمان فأجاب: «**الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللّسان وعمل بالأركان**»(١).

ومن هنا فقد نبّه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من خطورة هذا الرأي على الشباب الذين تستهويهم هذه الأفكار كونها تناسب أهواءهم وغرائزهم، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة**»(٢). وللسبب عينه فقد ورد التحذير من الغلاة وخطرهم على الشباب أيضاً، لأنّ ما يحملونه من فكرٍ يقوم على الاكتفاء بالمعرفة ويقلّل من أهميّة العبادة يشكّل خطراً على الشباب، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «**احذروا على شبابكم الغُلاة لا يفسدونهم، فإنّ الغلاة شرُّ خلق الله ..**» (٣)، وقد بحثنا هذا الموضوع في محلّ آخر، فليراجعْ(٤).

٢ ـ طريق المتصوّفة

والطريق الثاني هي التي يعتمدها أهل التصوّف أو العرفان السلبيّ الذي يدعو للاعتزال والابتعاد عن ملذّات الدنيا. والوجه في عدم شرعيّة هذه الطريق، هو أنّ تقوى الله لا تعني الانعزال عن الحياة أبداً، بل إنّ التقوى الحقيقيّة هي التي يعيش معها الإنسان في ميدان الحياة، وينطلق في مساراتها دون أن يغرق في ملوّثاتها.

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٥٠، وروي نظيره عن الإمام الصادق عليه السلام، انظر: الكافي ج٢ ص٢٧.

(٢) الكافي ج٦ ص٤٧، والمقصود بـ «الحديث» هو روايات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فإنّها مصدر أساسي بعد القرآن الكريم في بناء العقيدة الإسلامية الصحيحة.

(٣) الأمالي للطوسي ص ٦٥٠.

(٤) انظر كتاب: عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص٦٠ وما بعدها.

وإنّ وصول الإنسان إلى حالة الصّفاء الروحي والاطمئنان النفسي ليست مطلوبة كيف ما كان وبصرف النَّظر عن الطريق والوسيلة الموصلة، وإنّما هي مطلوبة من خلال الأخذ بالأساليب الشرعيّة، وهي أساليب تتميز بأنّها لا تُبعد الإنسان ولا تعزله عن الحياة، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان العارف الأوّل بالله تعالى، ولكنّ عرفانه لم يمنعه من أن يعيش في معترك الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة. وأمير المؤمنين عليه السلام كان العارف الثاني بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى وصل لدرجة «**لو كُشف ليَ الغطاء ما ازددت يقيناً**»[1]. ولكنّه مع ذلك كان يمارس عرفانه في وسط الميدان، ومن خلال مزاولة كلّ الأعمال المشروعة اجتماعياً وجهادياً وسياسياً، حتّى خُيّل إلى البعض وجود تنافٍ بين عرفانه عليه السلام واشتراكه في الحروب، أو بين زهده واستلامه للسلطة والحكم، يقول صفيّ الدين الحلّي:

جُمعت في صفاتك الأضدادُ ... فلهذا عزّت لكَ الأندادُ
زاهدٌ حاكمٌ حكيمٌ مجاهدٌ ... ناسكٌ فاتكٌ فقيرٌ جوادُ
شِيَمٌ ما جُمعن في بشرٍ قطّ ... ولا حاز مثلَهُنَّ العبادُ
خلق يخجل النسيم من اللطف ... وبأس يذوب منه الجمادُ[2]

والحقيقة أنّه لا تنافٍ بين هذه الصفات التي أشار إليها صفي الدين الحلّي، فيمكنك أن تكون زاهداً وأنت في موقع الغنيّ مالاً والرفيع جاهاً ومقاماً، كما بإمكانك أن تكون العارف بالله تعالى وأنت تعيش في معترك الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة.. وهذا الأمر ـ على صعوبة الالتزام به ـ ليس مستحيلاً ولا متعذّراً ولا متعسِّراً، فكمْ من شخص بلغ قِمّة الزهد والتقى وهو يمارس حياته كسائر الناس دون أن يعيش في الصوامع أو ينعزل عن أبناء المجتمع، وقد ذكرنا قبل قليل بعض النماذج الشبابية ممّن تربّوا في مدرسة الإسلام، فكانوا ـ بحقّ ـ من أهل

(١) عيون الحكم والمواعظ ص ٤١٥.
(٢) هذه الأبيات لعبد العزيز بن سرايا الحلي، انظر: أعيان الشيعة ج ٨ ص ٢٢.

العرفان، بيد أنّهم كانوا من عرفاء الميدان لا من عرفاء الصوامع.

على أنّ الله تعالى كما يريدنا أن نعبده، فإنّه يريدنا أن نعبده بالطريقة التي يريدها هو، لا بما نخترعه نحن من أعمال وطقوس، ولهذا وجدنا أنّ الله تعالى قد حدّد لنا أساليب وطرق العبادة الموصلة إلى رضوانه، ولم يترك الأمر لمزاج العباد، بل نهانا عن الابتداع في دينه، واختراع طُرق خاصّة لعبادته.

وقصارى القول: إنّ طريق العرفان الصحيح لا يوجب ـ إطلاقاً ـ انقطاع المسلم عن الدنيا وملذّاتها، وعن الناس والتواصل معهم، فالمؤمن يمكنه ـ بالإضافة إلى الالتزام بالواجبات العباديّة ـ أن يخصّص وقتاً لمناجاة ربه في الليل ـ كما هو المستحبّ ـ أما في النهار، فإنّه يتحرّك فيما يهمّه وما يعنيه من شؤون الحياة ومتطلّباتها، وهذا ما علّمه الله لنبيّه ﷺ حيث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۞ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا** ﴾[المزمل: ٦ ـ ٧]، ففي اللّيل تخصّص وقتاً لتنطلق في سياحة روحيّة تعرج بك إلى الله تعالى، وفي النهار تنطلق لتسبح وتتحرّك في مسارات الحياة الاجتماعية والسياسية والتجارية، وتسعى لتأمين مستلزمات العيش الكريم، لك ولعيالك، فتأكل وتشرب وتتزوج وتستعمل الطيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ** ﴾[الأعراف: ٣٢].

وقد ورد في نهج البلاغة، أنّ أمير المؤمنين عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل وهو في البصرة على العلاء بن زياد، وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة داره قال: «**ما كنت تصنع بسعة هذه الدار؟! أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تُقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة**».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين عليه السلام أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال: **وما له؟** قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا، قال عليه السلام: **عليّ به، فلما جاءه قال: يا عُدَيَّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أَمَا رحمت أهلك وولدك، أترى الله أحلَّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك!** قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك، قال: **ويحك إنّي لست كأنت، إنّ الله تعالى فرض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيّغ بالفقير فقرُه»**[(١)].

وهذا ما كانت عليه السيرة المطهّرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام، فهم رهبان الليل، فرسان النهار، وكما قال الشاعر في وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

هـو البكّاءُ فـي المحـراب ليلاً ... هو الضحّاك إذا اشـتدّ الحِرابُ

٣- طريق العرفان المزيّف

والطريق الثالث هي التي تعتمِدُ في عمليّة التهذيب الأساليبَ الملتبسة أو الملتوية، كتلك التي تدعو الشخص للالتزام ببعض الأوراد والأذكار الخاصّة، وبأعداد معيّنة وأوقات خاصّة مع كونها غير واردة في نصّ خاص، أو كتلك التي يأمر فيها الشخصُ أتباعَه ومريديه أن يحصوا زلّاتهم وأخطاءهم في سجلّ خاص، ثمَّ يَعْرِضُون ذلك عليه لتقييمها، ليعمل على توجيههم وإرشادهم! وهذا أسلوب غير مشروع، بل إنّه يتنافى مع التعاليم الإسلامية الآمرة بالستر وعدم فضح الإنسان نفسه أمام الآخرين: «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا»[(٢)].

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨٧، بيان: : «يقدروا أنفسهم»، أي يقيسوا أنفسهم بالضعفاء، ليكونوا قدوة للغني في الاقتصاد وصرف الأموال في وجوه الخير ومنافع العامة وتسلية للفقير على فقره حتى «لا يتبيغ»، أي يهيج به ألم الفقر فيهلكه»، انظر: هامش الصفحة المذكورة من نهج البلاغة .

(٢) المشهور أنّ هذا الكلام هو حديث شريف، ولكنّنا لم نعثر عليه فيما تسنى لنا مراجعته من المصادر الحديثية

وأغرب من ذلك، هو الأسلوب الذي نُقل عن البعض دعوة أتباعه إلى الأخذ به، وهو يتمثّل في دعوة الرجال ـ مثلاً ـ إلى تعمّد النظر في وجوه الحسان من النساء والتأمّل في مفاتنهن، والخلوة بهن، مع عدم وجود رابط شرعي بين الطرفين، بل إنّ بعضهنّ من المحصنات، شريطة أن يترافق ذلك ويتزامن مع السعي التام وبذل الجهد في إماتة الغريزة الجنسية وتدريبها على عدم الانجذاب الغرائزي إلى الجنس الآخر. وذلك على قاعدة أنّ «العين لا ترى نفسها إلا بمرآة»، والمرأة الأجنبية هي المرآة التي يختبر المؤمن إيمانه وإرادته من خلال النظر إليها، ووصل الأمر بهؤلاء إلى حدّ الدعوة إلى ما يسمونه «الزواج الروحي»، وهو عبارة عن علاقة بين الجنسين يزعمون أنّها علاقة روحيّة بحتة ويتواصل فيها الطرفان مع عدم وجود رابطة شرعية بينهما تحت هذه المظلّة، فيتحادثون ويخرجون في نزهات مشتركة!

فهذا الأسلوب المبتدَع ليس من منهج القرآن ولا منهج رسوله ﷺ ولا منهج أهل البيت عليهم السلام في شيء، ولا من سيرة العرفاء الحقيقيين في شيء. إنّ العرفان الحقيقي يعتمد الأساليب المشروعة في عملية تهذيب النفس وإصلاحها، ولا يلتمس مثل هذه الأساليب الملتوية والمشبوهة، والتي قد تُعدُّ باباً من أبواب الانحراف أكثر ممّا قد تساعد على تهذيب النفس، فالقرآن الكريم يدعو المؤمنين والمؤمنات إلى غض أبصارهم عند النظر إلى الجنس الآخر، لأنّ ذلك أزكى لنفوسهم وأطهر لهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ**

للفريقين، ولكننا عثرنا على ما يقرب منه معنى، وهو ما روي عنه ﷺ: «**اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها، فمن ألمّ بشيء منها فليستتر بستر الله، وليتُب إلى الله**»، انظر: كنز العمال ج ٤ ص ٢٠٨، وج ١٦ ص ١٢. وعلى كل حال فمضمون الحديث صحيح.

أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣٠ ـ ٣١].

والسؤال هنا: كيف تنسجم مثل هذه الأساليب التي تحثّ على النظر إلى وجوه النساء في سبيل تهذيب النفس مع دعوة القرآن الكريم إلى غض البصر؟! وأين تلتقي مثل هذه الدعوات المزيّفة مع دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام إلى التعفّف والحياء واجتناب النظرة تلو النظرة؟! ففي الحديث عن الأصبغ بن نباته عن علي عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي لك أول نظرة، والثانية عليك ولا لك**»[(١)]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها لله عز وجل لا لغيره أعقبه الله إيماناً يجد طعمه**»[(٢)]، فلاحظ كيف أنّه عليه السلام قد اعتبر أنّ ترك النظر المحرّم هو الذي يجعل الإنسان يتذوّق طعم الإيمان، وأمّا تعمّد النظر وتكراره فهو يجعله في معرض السقوط؛ فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة**»[(٣)].

وأمّا المرآة التي نحتاج إليها كي ننظر من خلالها إلى ذواتنا فليست هي النظر إلى مفاتن النساء ولا سيما المحصنات، وإنّما هي مرآة الوحي والتي تعلّمنا بأن نعرض أعمالنا على القرآن الكريم وسيرة المعصومين عليهم السلام، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل.

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج ٤ ص ١٩.
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه.

وإنّنا ننبّه الشباب المسلم ونحذّرهُم من الوقوع في شباك هؤلاء الدجّالين أو الانخداع بهذه الأكاذيب التي لا توصل إلى هدى ولا تنفع في تهذيب النفس وإصلاحها. وقد علّمتنا التجارب أنّ أمر أصحاب هذه الدعوات المزيّفة سرعان ما يُفتضح، فيَضِلُّون عن الطريق ويُضِلُّون أتباعهم، وفي أضعف الإيمان فإنّ هذه الأساليب تضع سالكيها على حافة الانحراف وتُوقعهم في الشطحات وتعرّضهم للسقوط في الشبهات واقتحام الهلكات.

أحبتي الشباب..

لا تمكّنوا اللصوص المدّعين للعرفان زوراً وكذباً من أن يعبثوا بإيمانكم ويُفسدوا عليكم دينكم أو يلوثوا فيكم أغلى ما تملكون وهو الروح الطاهرة، من خلال هذه الخدع والتلفيقات والتمويهات التي لا تمتّ إلى الدين بصلة، فهذه طرق لا خير فيها، ولو كان فيها خير لسَبَقَنا النبي ﷺ وآل بيته عليهم السلام إلى الأخذ بها والدعوة إليها، كما لا تسمحوا للنفس الأمارة بالسوء أن تخدعكم وتغريكم بالتكاسل أو توهمكم بالعجز عن تهذيب النفس وإصلاحها والوصول إلى قدر معقول من الصفاء الروحي الذي يمنحكم الاطمئنان والسلام النفسي.

أيّها الشباب..

إنّ بعض الناس من ذوي النوايا الخبيثة وربّما أصحاب القلوب الطيبة ـ أيضاً ـ قد يسيئون إليكم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فيقولون لكم: لا داعي لإتعاب أنفسكم في هذا السن المبكر (سنّ الشباب) بالجهد والعمل والالتزام بمبادىء الدين والاجتناب عن الملذات المحرمة، فالحياة ـ هكذا يقول الموسوس لكم ـ لا تزال أمامكم، وفرصة العبادة متاحة لكم في قادم الأيام، فاستمتعوا الآن في مرحلة الشباب بملذات الدنيا وغداً وفي سنّ الكهولة تتوبون إلى الله تعالى، وهو يقبل التوبة عن عباده ويحبّ التوابين، وبذلك تفوزون بنعيم الدنيا والآخرة!

إنّي أنصحكم نصيحة المخلص والمحبّ لكم أن لا تصغوا إلى هذا الكلام ولو كان معسولاً أو قاله بعض «المحبين» لكم، لأنّني أسألكم: مَنْ يضمنُ لكم أن لا يأتيكم الموت بغتة قبل أن توفّقوا للتوبة؟ ومَنْ يضمنُ لكم أنّكم إذا اعتدتم على المعاصي فلن تُدْمِنُوا عليها ويصعب عليكم بعد ذلك التخلّص منها؟! إنّ إمامكم زين العابدين عليه السلام يعلّمكم درساً في هذا المجال، حيث يقول في بعض مناجاته: «**ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحيي من ربي**»(١).

إنّ شبابكم هو أغلى ما تملكون فلا تضيّعوه أو تُفنوه في معصية الله تعالى، بل ابذلوه في العمل الصالح وفي طاعة الله، وبذلك تتركون بصمة في هذه الحياة وتنالون الفوز والنجاة والسعادة الأبدية، استمعوا إلى وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال حيث يقول مخاطباً أبا ذر الغفاري رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، ما من شاب يَدَعُ لله الدنيا ولهوها، وأهرَم شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صدّيقاً**»(٢).

أحبتي الشباب ..

إنّ أرواحكم عزيزة ونفوسكم غالية وأجسادكم ثمينة وإنّ الله تعالى مجدُه قد جعل ثمنها الجنة، فلا تبيعوها بأبخس الأثمان؛ في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**أَمَا إِنَّ أَبْدَانَكُمْ لَيْسَ لَهَا ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا**»(٣).

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٩١، وانظر: المزار للشهيد الأول ص ٢٦٢.
(٢) الأمالي للشيخ الطوسي ص ٥٣٥.
(٣) الكافي ج ١ ص ١٩.

٤

الشباب ومشكلة الجفاف الروحي

عوداً على بدء وعطفاً على ما سبق، فإنّ حالة اليقظة الروحيّة والعلاقة مع الله تعالى والتي يطمح إليها كلُّ إنسان مؤمن، تعترضها عقبات وصعابٌ، ويقف في طريقها بعض اللصوص الذين يصدّون عن سبيل الله كما أسلفنا، فيُبتلى المرء بمشكلة التصحّر الروحي والتلّوث الأخلاقي. والشباب ربما كانوا هم أكثر عرضة للتلوّث الروحي، بسبب كثرة المغريات التي تلاحقهم وتكاد تحاصرهم وتضغط على غرائزهم، ولذا لا يمكننا ونحن نتحدث عن الشباب وعلاقتهم بالله سبحانه أن نغضَّ الطرف عن كيفية معالجة مشكلة التصحّر المذكورة. ومن المؤمَّل أن يكون إبعاد الشباب عن هذه الحالة المَرضيّة هو أكثر أملاً من إبعاد الشيوخ. والمعالجة تحتاج إلى منهج متكامل، ولكن قد يكون لزاماً علينا في البداية أن نسلّط الضوء على بعض مظاهر وأعراض حالة الجفاف الروحي، ثم نتطرق إلى أسبابها، ونعرج بعد ذلك على كيفية معالجتها:

١ ـ من مظاهر الفراغ الروحي

إنّ لمشكلة الجفاف الروحي هذه عدة مظاهر تتبدّى في سلوكنا وحياتنا:

أولاً: الصلاة الميتة، فترانا نقوم للصلاة كسالى، ونصلي وقلوبنا لاهية عن ذكر الله تعالـى، وهذه الحالة في بعض مستوياتها قد تشكّل علامة نفاق، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ١٤٢].

ثانياً: اللامبالاة تجاه المواعظ المُذَكِّرة بالله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**﴾[الأنبياء: ١ ـ ٣].

ثالثاً: أدعيتنا الفارغة من الروح، وتلاوتنا الجامدة لآيات القرآن والتي تنطق بها شفاهنا دون أن تلين لها القلوب ولا تقشعر لها الجلود، فكأنّما يقرأ أحدنا القرآن وفي أذنيه وقرٌ وصَمَمٌ، كما حدثنا الله تعالى عن بعض الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[لقمان: ٧]، بينما المؤمن الذي يعيش الله تعالى في قلبه تراه يخشع لذكر الله تعالى، وتلاوة آياته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[الأنفال: ٢].

رابعاً: قساوة قلوبنا تجاه أحداث ينبغي أن تهزّ ـ بحسب طبيعتها ـ وجدان الإنسان من الأعماق وتحرّك مشاعره، وذلك من قبيل مناسبات الموت والمصائب المفجعة، ولكننا مع ذلك قد لا نتأثّر بها ولا نهتزّ لها! حيث ترى بعض الناس يمشون في جنازة إنسان أو يمرّون عليها وهم يضحكون ويمزحون، أو يدخلون المقابر وهم يتحدّثون بأحاديث المال والتجارة والدنيا، وكأنّ الموت على غيرهم قد كُتب، أو كأنّهم مخلّدون في هذه الدنيا ولن يُودَعُوا ـ كما أُودِعَ أسلافهُم ـ في تلك الحفر والتي مهما «**زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر وسدّ فرجها التراب المتراكم**»، كما يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٧١.

٢ ـ أسباب هذه الظاهرة

إنّ لحالة الجفاف الروحي التي تعتري الإنسان أسباباً عديدة إذا ما وقفنا عليها نكون قد أمسكنا بطرف الخيط لحلّ هذه المشكلة، ومن هذه الأسباب:

أولاً: الانغماس في الدنيا ومحرّماتها

وهذا دون شكّ يُعدّ سبباً أساسياً للغفلة عن وجود الله تعالى، وإليك ذكر بعض المصاديق لهذا العنوان:

أ ـ المعاصي والذنوب: إنّ كل ذنب يقترفه العبد ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ هو كسهم أو طلقة يوجّهها إلى قلبه، ما يؤدي مع الوقت إلى شلل القلب وموته وتحوّله إلى كتلة سوداء قاتمة لا تنبض بالحياة أو الروح، ولا تلين أو تخشع لذكر الله، وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه؛ وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرّان الذي ذكره الله**». ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[المطففين: ١٤](١). إنّ ذنوبنا ومعاصينا هي التي تتسبب في طردنا من باب الحبيب، وتُفقدنا لذّة مناجاته، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح المروي عنه: «**باعدتني ذنوبي عن دار الوصال**»(٢).

وهذا المضمون مروي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة (نقطة) بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا [تـ] غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[المطففين ١٤]»(٣).

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ١٠٥.

(٢) نقله العلامة المجلسي عن كتاب الاختيار، انظر: بحار الأنوار ج٨٤ ص٣٤٠.

(٣) الكافي ج٢ ص٢٧٣.

ب ـ الإسراف في الأكل والشرب: قال تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾ [الأعراف ٣١]، فإنّ الإسراف في الأكل والشرب يُميت ـ أيضاً ـ القلوب، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب، فإنّ القلوب تموت كالزروع إذا كثر عليه الماء**»[١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياكم والبطنة فإنّها مقساة للقلب مكسلة عن الصلاة**»[٢]. وفي وصايا لقمان الحكيم: «**إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة**»[٣].

هذا لو كان الطعام والشراب محلّلاً، أمّا لو كان محرّماً، كما لو تناول لحم الخنزير أو الميتة أو أكل المال المسروق أو المُقامَر عليه، أو شرب الكحول وغيرها ممّا حرّمه الله تعالى، فإنّ هذا دون شك سيترك أثره السلبي على روحيّة الإنسان ويورثه قسوة في القلب، وقد يكون له آثار أخرى.

ثانياً: الانحرافات الفكريّة والوساوس النفسيّة

فإنّ هذه الانحرافات والوساوس تعدّ صوارف ذهنيّة تعيق الإنسان عن التوجه الروحي المطلوب وتجعله يغفل عن نفسه وعن واجباته تجاه ربه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ** ﴾[الحشر: ١٩]. والغفلة عن ذكر الله لها أسبابها المختلفة، ومن هذه الأسباب ارتكاب الذنوب والمعاصي، والابتعاد عن جادة الشريعة بترك الأعمال العبادية كالصلاة والصيام والدعاء ونحوها.

(١) مكارم الأخلاق ص ١٥٠ وعنه بحار الأنوار ج ٦٣ ص ٣٣١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٩ ص ١٨٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ١٠١.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١ ص ٨٦، وتنبيه الخواطر وتنزيه النواظر (مجموعة ورّام) ج١ ص ١٠٠.

٣ـ الملينات للقلب

هذا كلّه في توصيف مشكلة الجفاف الروحي وبيان أسبابها، فماذا عن العلاج؟

والجواب: إنّ الإسلام قد أعدّ برنامجاً روحياً متكاملاً يحفظ للروح صفاءها، ويبعث الحياة في القلب، فما هي معالم هذا البرنامج التي تنتشلنا من تحجّر القلب وجفاف الروح؟

هناك ثلاث خطوات أساسية على هذا الصعيد:

الأولى: المساءلة والمحاسبة

الثانية: إيقاظ النفس (مهمة التخلية).

الثالثة: البرنامج الإسلامي للتعبئة الروحيّة (مهمة التحلية).

وإليك تفصيل الكلام في هذه الخطوات:

أولاً: محاسبة النفس

إنّ من الطبيعي والمنطقي أن تكون الخطوة الأولى على هذا الصعيد هي العملُ على محاسبة النفس ومعاتبتها ومساءلتها، فالغفلة عن النفس ونسيانها يؤديان إلى تعريضها للمهالك، ويصاب الشخص بالأمراض الروحيّة والنفسيّة من دون أن يشعر بذلك، والأمراض التي لا يشعر بها صاحبها هي من أخطر الأمراض، في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر**»[1]، وعن الإمام السجاد عليه السلام: «**ابنَ آدم! إنّك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك وما كانت المحاسبة من**

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٩٩، الباب ٩٦ من أبواب جهاد النفس، الحديث ٩.

همك، وما كان الخوف لك شعاراً والحزن لك دثاراً، ابنَ آدم إنك ميت ومبعوث وموقوف بين يدي الله عز وجل ومسؤول فأعدَّ جواباً»(١).

أ ـ ثمرة المحاسبة

وأهميّة المحاسبة أنّها تعلّم الإنسان أن يتواضع علمياً وجهادياً وتقوائياً، فلا يتعالى على الناس لكونه أعلم منهم، ولا يشمخ ويستهين بالآخرين لأنّه جاهد أو ضحّى أو أنفق ماله في سبيل الله تعالى، أو صلّى وصام وحجّ بيت الله الحرام.. فالمحاسبة تحصّن النفس من الغرور والتكبّر وتحصّنها من الانحراف، قال علي عليه السلام فيما روي عنه: «**ثمرة المحاسبة صلاح النفس**»(٢). وعنه عليه السلام: «**مَنْ حَاسَبَ نَفْسَه رَبِحَ ومَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، ومَنْ خَافَ أَمِنَ ومَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، ومَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ومَنْ فَهِمَ عَلِمَ**»(٣).

إنّ المحاسبة على مستوى الفرد أو الجماعة هي بداية الصلاح والإصلاح، حيث إنّها تُرِي الإنسان أمراضَ النفس ومعايبها، فيعمل على تهذيبها وإصلاحها، بل إنّ تطوّر الإنسان معنوياً وفكرياً وسلوكياً هو رهن إقدامه المستمر على عمليات مراجعة نقدية، يجريها مع نفسه فيحاسبها ويسائلها.

ب ـ نقد الغير ونقد الذات

والغريب في الإنسان، أنّه يستسهل نقد الآخرين ومحاسبتهم على الصغير والكبير، لكنّه يغفل عن نفسه ويغضّ الطرف عن عيوبه ولا يرى قبائحه. وإنّ من أخطر تسويلات النفس الأمّارة، أنّها تثير في الإنسان الإعجاب بنفسه وعمله وتُلهيه عن رؤية عيوبه وتُشغله بمعايب الآخرين، بل إنّها تمنّيه وتزيّن

(١) أمالي الشيخ المفيد ص ١١٠، وأمالي الشيخ الطوسي ص ١١٥، وتحف العقول ص ٢٨٠.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ٢٠٨.
(٣) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٧.

له أعماله، فيرى سيئاته حسنات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾[محمد: ١٤].

إنّ أصدق الناس هو من كان صادقاً مع نفسه، وأغشّ الناس من غشّ نفسه، في الرواية: «كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّه عَنْه): يَا أَبَا ذَرٍّ أَطْرِفْنِي بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَكَتَبَ إِلَيْه أَنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ ولَكِنْ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ تُحِبُّه فَافْعَلْ، قَالَ: فَقَالَ لَه الرَّجُلُ: وهَلْ رَأَيْتَ أَحَداً يُسِيءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّه؟! فَقَالَ لَه: نَعَمْ نَفْسُكَ أَحَبُّ الأَنْفُسِ إِلَيْكَ فَإِذَا أَنْتَ عَصَيْتَ اللَّه فَقَدْ أَسَأْتَ إِلَيْهَا»(١).

ج ـ محكمة الضمير ومحكمة العدل

إنّ هذه المحاسبة الداخليّة من خلال محكمة الضمير الصاحي، هي الأساس لصلاح الإنسان فرداً ومجتمعاً، ومحالٌ أن ترجو العدل من إنسان وهو يمارس الظلم والغش مع نفسه، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولذا فمن رام إصلاح أسرته ومجتمعه، فعليه البدء بإصلاح نفسه.

وإذا سقط الإنسان في امتحان الضمير فَقَدَ إنسانيته، ولا يظنّ أولئك الذين سقطوا في محكمة الضمير، وأفلتوا من محاكم الدنيا من خلال الرشا والاحتيال وما إلى ذلك، أنهم سيفلتون من حكم العدل، فعليهم أن يتجهزوا لمحكمة العدل الإلهي التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

وإنّ المسؤول الناجح في وطنه هو الذي يبدأ بإعداد منهج تربوي، ويهتم بوزارة التربية والتعليم قبل غيرها من الوزارات. ومن هنا نفهم لماذا كانت الوظيفة الإلهية الأسمى بالنسبة لأنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام هي تهذيب النفوس

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٥٨.

وتربيتها وإصلاحها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢]، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يبعثوا جباةً ولا طغاة، بل هداةً وأطباءً للنفوس.

د ـ كيفية المحاسبة

وعن كيفية المحاسبة يقول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ على ما ورد في الحديث ـ: «**يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حلٍّ ذلك أم من حرام؟**»(١).

وفي حديث آخر: سئل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف يحاسب الرجل نفسه؟

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفس إنّ هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً، والله سائلك عنه فيما أفنيته، فما الذي عملت فيه؟ أذكرتِ الله أم حمدتيه؟ أقضيت حقَّ أخ (حوائج) مؤمن؟ أنفّست عن كربته؟ أحفظتيه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظته بعد الموت في مخلفيه؟ أكففت عن غيبة أخ مؤمن بفضل جاهك؟ أأعنت مسلماً؟ ماذا الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه فإن ذكر أنه جرى منه خير، حمد الله عز وجل وكبّره على توفيقه، وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله عز وجل وعزم على ترك معاودته**»(٢).

ثانياً: المواعظ المنعشة للروح (التخلية)

بعد أن يكتشف الإنسان نفسه وآفاتها من خلال عمليّة المساءلة والمحاسبة، تأتي الخطوة الثانية على صعيد إصلاح النفس، وهي خطوة ترمي إلى تخلية النفس من الملوثات، بإيقاظها من سباتها.

(١) مكارم الأخلاق ص ٤٦٨.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ ص ٣٨، وتنبيه الخواطر ونزهة النواظر ج ٢ ص ٤١٤.

وأفضل ما يساعد على إيقاظ النفس وإنعاشها، هو المواعظ الروحيّة والتربوية التي تذكّرنا بالله واليوم الآخر، وتعلّمنا أنّ الإيمان الحقيقي ليس في الشكل ولا الذي يقف عند حدود اللسان، وإنّما هو الذي ينفذ إلى الروح والقلب، ليصبح هذا القلب حَرَماً ووطناً يسكنه الله، بحيث إذا ذكر الله باسمه أو بصفات جماله وجلاله أو بآياته اهتز القلب لذكره حباً وعشقاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد: ١٦].

والحقيقة، أنّ الإنسان مهما عصى وطغى وتجبّر، يظلّ لديه استعدادٌ داخلي كفيل بإيقاظه من كبوته.

والمواعظ المنعشة ليست بالضرورة أن تكون متمثلة بالاستماع إلى المحاضرات المطولة، فقد تكفي آية صغيرة أو كلمة مختصرة لتحرّك وجدان الإنسان التائه أو العبد الضال وتوقظه من سباته. يُحكى عن الفضيل بن عياض «أنّه كان يقطع الطريق .. وكان سبب توبته أنّه عشق جارية، فبينما كان يرتقي الجدران إليها سمع سامعاً تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فقال: يا رب قد آن، فرجع وآوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتّى نصبح، فإنّ فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمّنهم، وجاور الحرم حتّى مات»[١].

ورُوي أنّ الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّ ذات يوم على باب شخص معروف اسمه بِشْر، فسمع من البيت صوت الملاهي والأغاني والرقص، وخرجت جارية من

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ٤٨ ص ٣٨٢.

البيت تحمل القمامة فرمتها في الطريق، فقال لها الإمام عليه السلام: «**يا جارية هل صاحب هذا الدار حرّ أم عبد؟** فقالت: بل حرٌّ، فقال: **صدقتِ لو كان عبداً لخاف من مولاه**، فلمّا دخلت قال مولاها: وهو على مائدة السّكر: ما أبطأك علينا؟؟! فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتّى لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب على يده»[١].

وقد لا تكون المواعظ من جنس الكلام أصلاً، فربَّ موقف بليغ ومعبّر يؤثّر في النفس أكثر من كل الكلمات والمطولات.

ومن هنا تعرف فلسفة هذه الآداب الإسلامية المشجعة على زيارة المرضى وعيادتهم، وحضور الجنائز وتشييعها، فإنّ ذلك يشكّل واعظاً للإنسان وموقظاً له، وفي هذا السياق تأتي وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي تدعو إلى استحضار الموت واستذكاره، ففي كتاب أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر قال: «**وأكثِروا ذكر الموت عندما تنازعكم أنفسكم إلى الشهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول: أكثِروا ذكر الموت فإنّه هادم اللذات، حائل بينكم وبين الشهوات**»[٢].

ثالثاً: البرنامج الإسلامي للتعبئة الروحية (التحلية)

وأما الخطوة التالية (الثالثة) بعد خطوة التخلية، فهي تحلية النفس وشَحْنُها روحياً، فمن يبذل الجهد لتطهير نفسه وتخليتها من كل الملوثات لا بدّ أن يبادر على الفور إلى تحليتها بالفضائل وشحنها بكل عناصر المناعة الروحيّة، والحقيقة أنّ مهمّة التحلية لا بدّ أن تترافق مع مهمّة التخلية حتى لا يعيش الإنسان حالة فراغ روحي. وهذه المهمة ـ أعني التحلية ـ قد أعدَّ لها الإسلام برنامجاً

(١) تفسير المحيط الأعظم للسيد حيدر الآملي ج ١ ص ٥٧١.
(٢) وسائل الشيعة ج٢ ص ٤٣٧، الباب ٢٣ من أبواب الاحتضار الحديث ٩.

تفصيلياً متكاملاً لا حاجة لنا معه لابتكار طرق أو أساليب من بنات أفكارنا، وهذا البرنامج ـ كما أسلفنا ـ هو عبارة عن منظومة العبادات الواجبة والمستحبة التي شرّعها الإسلام.

أ ـ محطات متنوعة وهدف واحد

والملاحظ في هذا السياق أنّ الإسلام أعدّ لنا محطات متعددة ومتنوعة للتعبئة الروحية:

- فهناك محطّات يومية (الفرائض والنوافل اليومية).
- محطّات أسبوعية (صلاة الجمعة).
- محطّات شهرية (استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، واستحباب العمرة المفردة في كل شهر قمري).
- محطّات سنوية (شهر رمضان، ليلة القدر، الحج).

إلى ذلك، فهناك جملة من الأنشطة العبادية أرادها الله تعالى أن تبقى مفتوحة، فمع أنّها قد تكون مستحبّة ومرغوبة في حالات معيّنة أو أوقات أو أزمنة محددة، ولكن لا مانع شرعياً من الإتيان بها في أيّ زمان أو مكان أو في أي حال، وذلك من قبيل الدعاء، فإنّ بابه مفتوح أمام العبد، وهكذا الصوم أو الصلاة. فصحيح أنّ هناك أزمنة رغّبت الشريعة في اتّخاذها أوقاتاً للعبادة، لكنْ ثمّة مجالٌ للإنسان أن يصوم في أيّ يوم أراد، باستثناء أيام مخصوصة نصّت الشريعة على حرمة الصوم فيها كالأعياد، وله أن يصلي في أيّ ساعة شاء وأحبّ، فالصلاة ـ كما جاء في الأحاديث الشريفة ـ «**خير موضوع، من شاء استقلّ ومن شاء استكثر**»[1]، نعم، عليه أن يلتزم بالطريقة المشروعة والمنصوصة للصلاة، فلا يبتكر صلاة خاصّة

(١) بحار الأنوار ج٧٩ ص٣٠٩، نقلاً عن كتاب الإمامة والتبصرة.

به ويعتبر أنّ لهذه الكيفيّة التي اخترعها خصوصيّة يواظب عليها، فهذا يوقعه في محذور الابتداع في الدين. وقد ذكرنا سابقاً، أنّ الله تعالى في الوقت الذي يريدنا أن نعبده، فإنّه يريدنا أن نعبده بالكيفية التي يريدها، ولهذا لا يحقّ للإنسان أن يبتكر صوماً خاصّاً به كصوم يومين متتالين ـ مثلاً ـ وهو ما يعرف بصوم الوصال، أو ما إلى ذلك.

ويبقى الباب الأوسع المفتوح أمام العبد والأبعد عن القيود هو باب الدعاء، فالله تعالى يحبُّ أن يرى العبد وهو يدعوه ويناجيه في أي زمان أو مكان، وعلى كل حال، وبأي لغة أو لسان، وإن كان للأدعية المأثورة خصوصيةٌ وميزة لا تبلغها الأدعية التي يخترعها سائر الناس، فالأدعية المأثورة قد صدرت عمّن يعرف أكثر من غيره كيف يخاطب ربّه ويناجيه.

ومن الأنشطة الروحية الهامة: زيارة مراقد الأنبياء والأئمة عليهم السلام والأولياء، فهي تشكّل فرصةً مثالية للشحن الروحي المعنوي، كما هي مناسبة للتربية والتهذيب من خلال استحضار مواقف الشخصية المزورة وتراثها، واستلهام عطائها الفكري والروحي والرسالي.

ب ـ دور المسجد في التربية الدينية

وكما أنّ ثمة أزمنة مختلفة أرادها الله أن تشكّل محطات للقائه تعالى، فإنّ ثمّة أمكنة أيضاً تمثّل فرصةً للقاء. صحيح أنّ بإمكان المؤمن أن يعبد الله تعالى في أيّ مكان أحبّ وأراد، لكن ثمّة أمكنة خاصة جعلها الله محفوفة بأجواء روحيّة خاصّة، ومن أبرز هذه الأماكن المساجد، حيث يشكّل المسجد المنطلق والأساس لبناء الشاب المسلم بناءً روحياً وفكرياً متوازناً، فالحضور في المسجد مغمورٌ بألطاف إلهية جمّة، وهو ذو فوائد روحية واجتماعية ورساليّة عديدة، ففي الحديث عن علي عليه السلام، أنّه كان يقول: «**من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى**

الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء»[1].

ولأجل هذه الأهمية التي يحتلّها المسجد في البناء الروحي والثقافي كانت انطلاقة النبي الأكرم ﷺ من المسجد في بناء وإعداد وتربية الجيل الإسلاميّ الأول الذي قاد الرسالة وحمل الإسلام إلى العالم، وعلى هَدْيِ النبي ﷺ لا بدّ أن تسير كلّ الحركات الإسلامية وكلّ الدعاة والعلماء الرساليين الذين يعملون على تربية جيل إسلامي يفقه الإسلام ويحمله إلى العالم، ولا يمكننا أن نتصوّر وجود جماعة إسلامية لا يكون المسجد هو أساس انطلاقها وحركتها.

عزوف الشباب عن المساجد

وإنّه لأمر يثير الاستغراب والقلق حقّاً، ما نلحظه ونشاهده من عزوف الكثير من الشباب المسلم عن ارتياد المساجد! وهذا أمرٌ لا بدّ أن يحرّك الرساليين ويستنفرهم لدرس هذه الظاهرة والتعرّف على أسبابها، فهل المشكلة هي في ضعف البرنامج الروحي في المساجد؟ أو في عدم جاذبية الخطاب الديني لأئمّة المساجد بل ومنفريته أحياناً، كما نلاحظ في تلك المطوّلات الخطابية التي يلقيها بعض أئمة المساجد على المصلّين الذين قد يغلبهم النعاس أو يغطّ بعضهم في نوم عميق؟! أو أنّ المشكلة تكمن في تحويل المساجد إلى مراكز حزبية ذات لون سياسي معيّن، ما قد يجعل الآخرين ممّن لا يلتقون مع هذا الخطّ السياسيّ يعزفون عن ارتيادها؟

قد تكون المشكلة كامنة في كلّ ما تقدّم، الأمر الذي يفرض علينا المبادرة إلى

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص ٤٧٤، ومن لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٢٣٧، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج ٣ ص ٢٩٤، وروي نحوه عن رسول الله ﷺ، انظر: الخصال للصدوق ٤١٠.

رفع الموانع وطرح البدائل والمحفِّزات؛ ومِنْ أهمِّ هذه المحفزات، أن نعمل على تثقيف الناس بأهميّة ارتياد المساجد وفوائد ذلك وآثاره الإيجابية، وأن ننزل من بُروجنا العاجية ونتخلّى ـ نحن طلاب العلوم الدينية ـ عن فكرة «أنّ العالم كالكعبة يُزار ولا يزور»، فإنّها فكرة خاطئة ومنفّرة، ولا أساس لها في الدين؛ والصحيح هو ما كان عليه رسول الله ﷺ حيث كان يبادر إلى الناس في أسواقهم وبيوتهم ويدعوهم إلى الله تعالى وإلى ارتياد بيوت الله، ولنعم ما وصفه به تلميذُه أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «**طبيب دوّار بطبه قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه. يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عُمي، وآذان صم، وألسنة بكم. متبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة**»(١).

ولا يقلّ غرابة عن ذلك ما نلحظه أيضاً من تعالي بعض الأشخاص الذين كانوا ذات يوم في عداد الرساليّين عن الحضور الى المساجد، وذلك بمجرد تسلّم أحدهم لمسؤولية معينة في البرلمان أو الوزارة أو غير ذلك، وكأنّهم يتّخذون المسجد سُلّماً أو مطيّة للوصول إلى تحقيق رغباتهم وأغراضهم! إنّ الإنسان الرسالي هو إنسان مسجدي، وتسلّمه لمسؤولية معينة يفرض عليه أكثر من أي وقت مضى أن يكون بين الناس ومعهم في المساجد وغيرها، وعليه أن يتذكّر على الدوام قول الله تعالى في مخاطبة نبيه الأكرم ﷺ: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾[الكهف: ٢٨].

إنّ التزام المؤمن بهذا البرنامج الروحي وفق المنهج الشرعي المذكور كفيل بأن يعمر قلوبنا بحبّ الله تعالى ويجعل حياتنا عامرة بذكر الله، وكما قال أمير

(١) نهج البلاغة ج١ ص٢٠٧.

المؤمنين عليه السلام في دعائه: «**أسألك بحقّك وقُدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة..**»[1].

والسؤال الكبير هل نستفيد من هذه الفيوضات والعطاءات؟ هل تنفذ الصلاة إلى قلوبنا وأرواحنا أم أنّها تحوّلت إلى طقوس جوفاء تعوّدنا الإتيان بها وأدمنّاها حتى لو تركناها استوحشنا؟ هل نستحضر الله في كلّ أفعالنا وفي كل حالاتنا وأوقاتنا؟ هل نشعر برقابة الله تعالى ونتحسس وجوده أم أنه أهون الناظرين إلينا؟!

وما أبلغ الموعظة المروية عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، حيث «جاءه رجل وقال: أنا رجل عاصٍ ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة فقال عليه السلام: **افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل زرق الله وأذنب ما شئت، والثاني: اخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت، والثالث: اطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء مَلَكُ الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت**»[2].

---

(١) مقطع من دعاء كميل بن زياد.

(٢) انظر: بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١٢٦، وراجع حول هذا الموضوع كتاب: «الجفاف الروحي» للسيد عبد الله الغريفي.

٥

تشوّه العبادة في زمن التصحّر الأخلاقي

إنّ المنظومة العباديّة المتقدّمة كفيلة في حال تطبيقها بحذافيرها والالتزام بها بشرطها وشروطها، بأن تأخذ بأيدينا إلى حالة متوازنة من الاستقرار الروحي، الذي نحتاجه في حياتنا، هذا ولكنّ العبادة ـ كغيرها من المفاهيم الدينية الأصيلة ـ قد تعرّضت للكثير من التشوّه، مع مرور الزمان وتعاقب الأيام. والتشوّه الذي أصاب العبادة يمكن رصده على أكثر من صعيد:

١ ـ تحويل العبادة إلى طقوس

الصعيد الأول: على مستوى المضمون الروحي الفاعل والمؤثر، فقد تمّ تحويل العبادة إلى مجرّد طقس وعمل شكلي لا روح فيه، فهو خالٍ من المضمون والحيوية، باختصار: لقد تحوّلت الصلاة إلى مجرّد عادة حتى لو تركها المرء استوحش كما جاء في الحديث[1]، أما كمْ تكون هذه الصلاة مغيّرة في حياتنا؟ وكم يُطهّر الصوم من قلوبنا؟ هذا ما لا نعتني به ولا نعيره كبير اهتمام، ونلاحظ أنّ أداء العبادة في كثير من الأحيان يصبح أمراً ضرورياً، لا باعتبار حاجتنا الروحية إليها، ولا لكونها تمثّل استجابةً لأمر الله تعالى، بل باعتبار أنّها أصبحت جزءاً مكمّلاً من صورتنا الاجتماعية، ولذا نسمع من يقول: أنا عمري خمس وأربعون

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام: **«لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربّما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»**، انظر: الكافي ج٢ ص١٠٤.

سنة وإلى الآن لم أحج ماذا سيقول عني الناس؟! أو يقال لشخص: أنت صرت ابن عشرين أو ثلاثين سنة وإلى الآن لم تصم أو لم تذهب إلى المسجد؟! فالمسألة إذاً ليست ماذا سيكون حالي عند الله تعالى، والموضوع ليس ماذا أريد أو ما أحتاجه أنا، وإنّما الموضوع ماذا يريد الناس وما الذي سيقولونه عني!

وهكذا تمتدّ الشكلانية إلى علاقتنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام، فتجد ـ مثلاً ـ أنّ بعض الشباب تكون كل علاقته بالإمام علي عليه السلام أن يضع وشماً على عضده يتضمن عبارة «لا فتى إلاّ علي ولا سيف إلاّ ذو الفقار»، أو يعلق سيف الإمام عليه السلام في رقبته، مختصراً الإمام علياً عليه السلام بالسيف، هذا هو التشويه والمسخ الحقيقي للدين والرموز الدينية، تماماً كما أنّ بعض النساء تسير في الشوارع بلباس فاضح متهتّك، ولكنّها تضع الصليب أو صورة السيدة العذراء أو آية قرآنيّة في عنقها!

العبادة ليست شكلاً ولا مظاهر ولا أعمالاً استعراضية، ولم تُشْرَّعْ لأجل ذلك، العبادة روح تحلّق مع بارئها، أنت في الصلاة لست في حالة رياضة بدنية، كما كان يقال لنا ونحن صغار، بل أنت في رياضة روحية، أنت تقف بين يدي الله تعالى، أنت في حالة عروج إلى الله، ويجب أن نتحسس هذا الأمر بمشاعرنا ونعيشه في أعماق قلوبنا، وأنت عندما تدخل إلى المسجد، فلا بدّ أن تشعر بشعور مختلف عن دخولك لأيِّ مكان آخر، ألا وهو شعور من يدرك ويعي أنّه في بيت من بيوت الله، ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾[النور: ٣٦]، لقد كان الواحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام إذا توجّه إلى الصلاة تغيّر لونه، وإذا كبّر تكبيرة الإحرام ارتعدت فرائصه، فإذا سئل: لماذا أصابك ذلك؟ يقول: أتدرون بين يدي من أقف؟ إني أقف بين يدي مليك السماوات والأرض، أقف بين يدي العزيز المقتدر، ففي الحديث أنّ علي بن

الحسين عليه السلام كان إذا توضأ للصلاة وأخذ في الدخول فيها، اصّفر وجهه وتغيّر لونه، فقيل له مرة في ذلك؟ فقال: «**إني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم**»[1].

إنّ العبادة التي تنطلق من قلب مقبل على الله سوف تمنحنا الأمن والاطمئنان، لأنّ الله تعالى هو مصدر الأمن والسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[الحديد: ١٦]، هذه هي حقيقة الصلاة! وظيفتها أن تمنحك الاطمئنان والسلام الداخلي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[الرعد: ٢٨]. وفي ضوء ذلك، تكون العبادة حاجة لنا ولنفوسنا القلقة والخائفة، ولقلوبنا المليئة بالأمراض والأحقاد، فالعبادة هي التي تساهم في تطهيرها من كلّ ذلك.

٢ ـ تقزيم العبادة

الصعيد الثاني: والتشوّه الثاني الذي أصاب العبادة هو تشوّه على مستوى الامتداد والشمولية، حيث تمّ تقزيم العبادة وإلغاء دورها ووظيفتها الاجتماعية والإنسانية، فالعبادة غدت صلاة وصوماً وحجّاً ودعاءً... ولا شك أنّ هذه تأتي على رأس العبادات وهي عمادها، لكنّ عبادة الله لا تنحصر بذلك، فهي أوسع من ذلك بكثير، فالأنشطة الإنسانية والخدمات الاجتماعية عندما يؤديها الإنسان لوجه الله، أو بهدف تخفيف أوجاع المعذبين ولا يريد بذلك منهم جزاءً ولا شكورا، فإنّها تكون أعمالاً عبادية، ولنسمع إلى بعض كلمات علي عليه السلام وهو يرشدنا إلى هذا المفهوم الواسع للعبادة:

١ ـ يقول الإمام عليه السلام: «**إنّ من العبادة لين الكلام وإفشاء السلام**»[2]. فطبقاً لهذا الحديث فإنّ كلّ كلمة طيّبة تبلسم جراح فقير أو محتاج أو تواسي مريضاً أو

(١) دعائم الإسلام ج١ ص١٥٨.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص١٤٢.

تعزّي مفجوعاً .. فإنّها عبادة، وكلّ من يُلقي السلام على الآخرين فإنّه في حالة عبادة لله، وما أجمل هذا المعنى الذي يتيح لنا أن نعبد الله في حديثنا مع الناس وسلامنا عليهم!

٢ ـ وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «**أفضل العبادة غلبة العادة**»(١)، وهذا الحديث يوسّع مفهوم العبادة، ويجعله شاملاً لمجاهدة الإنسان لنفسه في سبيل التخلّص من العادات السيئة التي ورثها من أهله أو أصدقائه أو غيرهم. فعندما تكون معتاداً على أمر مضرٍ أو قبيح كالتدخين أو الإدمان على المخدِّرات ـ مثلاً ـ، وتجاهد نفسك للتخلّص من هذه العادة القبيحة، فأنت تقوم بأفضل أنواع العبادة.

٣ ـ وفي كلمة ثالثة له عليه السلام: «**أفضل العبادة العفاف**»(٢)، وفي ضوء هذا الحديث، فإنّ مفهوم العبادة يتّسع ليشمل سلوك الإنسان وتعامله مع الجنس الآخر، فعندما تقع عينا الشاب على امرأة لا تربطه بها رابطة شرعية، فيمكنه أن يعصي الله بهذه النظرات عندما ينظر بشهوة إلى الآخر، ويمكنه أن يعبد الله بهذه النظرات، عندما يحرص على أن تكون نظراته بريئة، بل إن ذلك هو من أجمل وأفضل مصاديق العبادة، وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**غضّ الطرف عن محارم الله سبحانه أفضل عبادة**»(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما تقدم عن تقزيم العبادة وإلغاء وظيفتها الاجتماعية والإنسانية، هو ظاهرة عامة لدى كافة المسلمين على اختلاف مستوياتهم العمريّة، بيد أنّها تبرز بوضوح لدى الشباب في زماننا، حيث نلاحظ أنّ جيل الشباب يعزف عن الكثير من الأنشطة الاجتماعية، كزيارة الأرحام، أو عيادة المرضى، أو غير ذلك.

(١) المصدر نفسه ص١٣١.
(٢) الكافي ج٢ ص٧٩.
(٣) عيون الحكم والمواعظ ص٣٤٩.

ميزان قبول الصلاة

وعن هذا الترابط الوثيق بين العبادة وبين سلوك الفرد في المجتمع، نجد أنّ بعض النصوص الإسلامية تعتبر أنّ ميزان قبول العبادات المعروفة كالصلاة ونحوها عند الله تعالى، إنّما هو بمدى تأثيرها على حياة الفرد وتغييرها لسلوكه في المجتمع، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ **إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ**﴾[العنكبوت: ٤٥]. وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اعلم أنّ الصلاة حجزة الله في الأرض، فمن أحبّ أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته، فلينظر، فإن كانت حجزته عن الفواحش والمنكر، فإنّما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز**»(١).

وهناك قصة رائعة في هذا المجال حدثني بها بعض المؤمنين وخلاصتها: أنه كان يعمل أجيراً في زراعة الأرض وفلاحتها عند رجل مسيحي، وكان هذا الفلاح المسلم عندما يأخذ استراحة الأكل عند الظهيرة يستغلّها لأجل الصلاة والطعام معاً، وقد لاحظ ربُّ العمل ذلك، فسأله ذات يوم: لماذا تصلي؟ قال: إنّ الله تعالى يقول لنا في القرآن: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ**﴾[العنكبوت: ٤٥]، قال له: فسّر لي ذلك، قال له: إنّ صلاتي تعلمني أن لا أسرق ولا أغش ولا أخون ولا أغتاب.. قال: إذا كان الأمر كذلك فبدل أن تكون فترة استراحتك هي ربع ساعة فلتكن نصف ساعة!

٣ ـ العبادة عز للمؤمن

الصعيد الثالث: ومن التشوّهات التي أصابت العبادة هي أنّ العبادة تُسهم في إنتاج الشخصية الضعيفة، كما يقول البعض، وهذا مفهوم خاطئ بكلّ تأكيد،

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص٢٣٧.

فالعبادة لا تهدف إلى إذلال الإنسان وسحق شخصيته، كما قد يتخيّل البعض، كلا، بل العبادة ترمي إلى بناء الشخصية العزيزة القوية، لأنّ الانحناء أمام الله تعالى يعلّمك أن تظلَّ مرفوع الرأس أمام خلق الله جميعاً، لأنّهم عبادٌ مربوبون ومخلوقون مثلك، ولهذا فإنّ حالة الشكوى الوحيدة التي لا يشعر فيها أحدنا بالذل والحقارة هي الشكوى لله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً إلهي أنت كما أحبّ فوفقني لما تحب**»[1].

أحبتي الشباب.. إنّ العبادة لا تهدف إلى إذلالكم أو خدش كرامتكم، بل إلى بناء الشخصيّة العزيزة، لأنّك عندما تقف بين يدي الله تعالى فإنّك ـ حتى لو كنت تشعر بعنفوان الشباب وقوّته ـ تقف أمام مصدر القوة، لتستلهم منه القوّة، وتستمد منه الصبر والعزيمة، ولذا كان أقوى الناس وأشجعهم على مرّ التاريخ هم أعبد الناس وأكثرهم خضوعاً لله، وكما قال الشاعر في وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

«هـو البكّاء في المحـراب ليلاً   هو الضحّاك إن جدّ الضراب»[2]

٤ ـ العبادة الواعية

الصعيد الرابع: والتشوّة الرابع هو التشوّه على صعيد الوعي، فالعبادة التي يريدها الله تعالى منا هي العبادة الواعية التي تفتح قلوبنا وعقولنا على الخير، ولا يريد منا العبادة العمياء الصمّاء التي نؤديها دون وعي ودون بصيرة، أو نؤدّيها وقلوبنا سوداء تحمل الحقد للآخرين، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «**تَفكُّر ساعة خير من قيام ليلة**»[3]، وفي الحديث أيضاً أنّ الإمام علياً عليه السلام رأى

(١) الخصال للصدوق ص٤٢٠.

(٢) من قصيدة للناشىء الصغير (ت ٣٦٥هـ)، انظر: أعيان الشيعة ج ٨ ص ٢٨٤.

(٣) المحاسن للبرقي ج١ ص٢٦.

خارجياً يتهجّد فقال: «**نوم على يقين خير من صلاة في شك**»[١]. وعنه عليه السلام: «**التفكّر في ملكوت السماوات والأرض عبادة المخلصين**»[٢]. وإنّ هؤلاء الذين يعبدون الله تعالى وهم يفتقدون العقل والبصيرة هم أضرّ على الدين من أعدائه والمعلنين الحرب له[٣].

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٢٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص٥٣.
(٣) للتفصيل حول ذلك راجع ما ذكرناه في كتاب: العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي ص٢٣٥ وما بعدها.

المحور الرابع

الشباب ودوره في عملية النهوض

أولاً: الأمّة وأزمة الهوية

ثانياً: ركائز عمليّة النهوض

ثالثاً: عملية النهوض: مقدمات وشروط

رابعاً: دور الشباب في عملية النهوض

في المحور الثاني المتقدم من محاور هذا الكتاب، تحدثنا عن الدور الذي لا بدّ أن يقوم به الشباب في العمل على إعمار هذه الحياة، بما يحقّق للإنسان حياة مستقرة وهانئة، وتحدثنا كذلك عن دورالشباب في المجال الرساليّ.

وأمّا في هذا المحور، وهو المحور الرابع فنتطرّق إلى نوع آخر من العمل الرساليّ والجهاديّ، لا يقلّ أهميّة عن سابقه. ومن المفترض أن يكون الشباب هم خميرة هذا العمل وركيزته وقاعدته الأساسية، ألا وهو العمل في سبيل نهوض الأمّة وتحرّرها وإخراجها من حالة الركود والتخلّف، ومن أسر الماضي وزنازينه المظلمة إلى آفاق المستقبل ورحابته، حيث المكانة اللّائقة بهذه الأمّة، بوصفها شاهدة على الأمم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران: ١١٠].

والحديث عن نهوض الأمة ودور الشباب في عمليّة النهوض يحتّم علينا البحث في عدّة عناوين أساسية:

١ ـ في العنوان الأول نُطلّ على واقع الأمة في دراسة ترصد الأسباب التي أعاقتها عن أن تحتلّ موقعها اللّائق بها بين الأمم..

٢ ـ وفي العنوان الثاني نتطرّق إلى ركائز عملية النهوض وأسسها.

٣ ـ وفي العنوان الثالث يدور حديثنا عن الشروط المساعدة على عملية النهوض.

٤ ـ وفي العنوان الرابع نتحدث بإيجاز عن دور الشباب في عملية النهوض.

١

الأمّة وأزمة الهوية[١]

عندما نتحدث عن النهوض، فلا شك أنّ الشباب هم قطب الرحى في هذه المهمّة، ولكن من اللّازم قبل كلّ شيء أن يكون لدى الشباب إرادة التغيير، وواقعنا ـ نقولها بكلّ أسف وحسرة ـ لا يشي بذلك، فما نرصده في هذا الواقع هو أنّ الجيل الشابّ يعاني من مشكلة الاستلاب الفكريّ وضياع الهُويّة وضعف الثقة بالذات، وهذا الضياع يدفع الشباب إلى حالة من التغرّب الفكريّ والحضاريّ. ومن هنا كان لا بدّ أن نُوليَ هذه القضية أهميّة خاصة، لأنّها تعبّر عن أزمة بنيوية عميقة تهدّد كيان الأمّة بالسقوط الحضاريّ الذريع. وهذا ما سوف نُوضحه فيما يلي:

١ ـ الأمّة وسؤال الهُويّة

في البدء ثمّة من يتساءل: عندما تتحدثون عن نهوض الأمة فهل نحن لا نزال أمّة أساساً؟ أم نحن أشلاء أمّة؟ هل نحن أمّة واحدة أم أنّنا أمم غير متّحدة؟

سوف أتجاوز هذا السؤال المغرق في اليأس والإحباط لأقرَّ بأنّنا لا نزال أمّة تجمعها الكثير من الأهداف المشتركة على مستوى الدّين واللّغة والأرض والثقافة.. لكن أيّ أمة نحن؟

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ غالب فقرات هذا العنوان وما يليه هي ـ في الأساس ـ محاضرة ألقيت في إحدى ليالي عاشوراء، في مسجد الإمامين الحسنين عليهما السلام ـ حارة حريك ـ بيروت ٢٠١٥م. وقد أعدنا صياغة المطالب وخففنا من الاستشهادات المتصلة بالثورة الحسينية.

بنظرة سريعة إلى حال أمتنا، ماذا نجد؟ وماذا نرى؟ هل يختلف اثنان أنّنا في حالة يرثى لها، بحيث إنّه وأينما امتدّت بنا الباصرة أو حلّقت المخيلة، فسوف نرى أمّة حائرة تائهة متشتّتة قد أضاعت بوصلتها الأساسية، أمّة ـ كما أرى وترون ـ متناحرة ممزّقة، تفتك بها الصراعات المذهبية والعرقيّة والحزبيّة، أمّة مسلوبة الإرادة يعمل الآخرون على مصادرة عقولها وطاقاتها وثرواتها، وإذكاء نار الفتنة في كلّ ساحاتها وبين كل تلاوينها المذهبية والعرقية والقومية!

وفي ظلّ هذه الواقع، فإنّ الأسئلة تتزاحم علينا، والسؤال الأبرز: لماذا نحن على هذه الحالة من التخلّف الحضاري والتردّي الفكريّ، والانحطاط الأخلاقيّ والتشظّي الاجتماعيّ؟ أكُتِبَ علينا الذلّ والهوان؟ على طريقة ذلك الشاعر:

مشـيناها خطـىً كُتبـت علينـا ومـن كُتبت عليه خطىً مشـاها

وهذه الأسئلة لم تعدْ تطرح بين النخبة أو في الصالونات المغلقة، بل إنّها غدت تُطرح عبر الشاشات وفي وسائل الإعلام من قبل الكثيرين من الشباب المسلم ممّن لا يمكننا تخوينهم ورميهم بالعمالة والتغرّب كما هي العادة الدارجة؟ فالكثير من المخلصين أخذوا يتساءلون همساً أو علناً: من نحن؟ ولماذا هذه حالنا يا ترى؟ ألم يَأْنِ لنا أن نصحوَ من هذا السُّبات العميق؟ وكيف نصحو وهناك من القيود والأغلال ما يمنع الصحوة ويعرقل الحركة والنهوض، سواء كانت قيوداً داخلية أو خارجية؟ وما السبيل إلى ذلك؟

وكلّ هذه الأسئلة مشروعة وعلينا أن نفكّر بتقديم إجابات مقنعة عليها، ومن الضروريّ أن نتصدّى للإجابة عليها بروحيّة الواثق بنفسه وبانتمائه الحضاريّ والدينيّ، لا بروحية المهزوم الضعيف.

ودعوني مرّة ثانية أكرر القول: إنّني ـ وبالرغم من هذه الصورة السوداوية التي نراها من حولنا ـ لست متشائماً ولا يائساً من إمكانية التغيير والإصلاح، فأنا

لا أغفل وجود علامات مضيئة وتجارب مشرقة معاصرة في هذه الأمة، ويبقى تعويلنا كبيراً على الجيل الشابّ في أن ينهض ويستلم زمام المبادرة ويضع الأمة على الطريق المستقيم، بما يشكّل الخطوة الأولى في طريق الانطلاق إلى مستقبل مشرق وغدٍ أفضل. ولكنّني أتحدّث عن المسار العام للأمة، أتحدّثُ عن المليار ونصف المليار مسلم الذين لا وزن و«لا ريح» لهم، وفقاً للمصطلح القرآني[1].

وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين حاضر الأمّة وماضيها، فقد نجد أكثر من قاسم مشترك بين مرحلتنا الزمانية وبين تلك المرحلة، وبين واقعنا وذاك الواقع، وهذا ما سوف ينفعنا في معرفة الأسباب وتقديم الحلول والعلاجات، لأنّ أمراض الأمم والشعوب ـ وبخلاف أمراض الفرد الجسديّة أو النفسيّة التي تختلف من شخص لآخر، وقد تستجدّ أمراض لم تكن معهودة في الزمن السابق ـ هي في الأعمّ الأغلب متقاربة ومتشابهة، وذات مناشئ معروفة ومتجانسة.

٢ ـ فقد الثقة بالذات: أعراض ومخاطر

ومن أبرز وأخطر هذه الأمراض التي تفتك بالأمم مرض فقدان الثقة بالذات، بحيث تعيش الأمة حالة من الاهتزاز وعدم التوازن وحالة من الضياع الفكري والتذبذب النفسي. ومعلوم أنّ الثّقة بالنفس والذات هي الحصن المنيع لسلامة الفرد وحماية الأمة، فهي بمثابة جهاز المناعة لدى الأشخاص، فكما أنّ جسد المرء إذا فَقَدَ مناعته فإنّه يصبح عرضةً لهجوم «الفيروسات» الانتهازية الكامنة وغزو الجراثيم المسمّة، كذلك هو حال الأمة إذا فقدت ثقتها بنفسها فإنّها ستفقد مناعتها وحصنها الحصين وتصبح عرضة للغزو الثقافيّ أو غزو العقول والإرادات.

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومرض فقدان الثقة بالذات له الكثير من التداعيات والأخطار السلبية على كيان الأمة، وإليك أهمّ هذه المخاطر:

١ ـ الازدواجية بين المشاعر والمواقف، وانفصام الشخصية بين ما يُعلم وما يُعمل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[الصف: ٢ ـ ٣]. ولو رجعنا إلى جعبة الماضي وحقبة التاريخ، فسوف نجد نماذجَ كثيرة تعبّر عن هذه الازدواجية، فهكذا كان حال أهل الكوفة وغيرها من البلدان الإسلامية إبّان نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد قالها الفرزدق عندما التقاه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الطريق وسأله عن حال الناس خلفه فأجابه: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[(١)]، إنّ مقولة «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» تعكس حال الأمة اليوم أيضاً، أليست قلوب مئات الملايين من العرب والمسلمين مع الفلسطينيين، لكنّ سيوفهم (سيوف المال، والنفط، وغيرهما) هي لخدمة الصهاينة المحتلين!

٢ ـ الشلل التّامّ وضعف الإرادة، وهذه الحالة واضحة للعيان، فمنْ يتأمل في واقع الأمة الإسلامية التي بلغ تعدادها المليار والنصف المليار نسمة، سيجدها أمة متفكّكة خائرة القوى لا ريح لها، وإلاّ فكيف لهذه الأمة بكلِّ إمكاناتها وقدراتها وعديدها أن تعجز عن تحرير أرضها السليبة في فلسطين وفكّ أسرها من الصهاينة المحتلين الذين لا يتجاوز عددهم بضعة ملايين! وإنّك عندما تشاهد بعض المسيرات المليونية في بعض العواصم العربية وهي تهتف باسم القدس وفلسطين يتمالكك إحساس بالعزّة والفخار، ولكن سرعان ما تتبدّد الآمال عندما تتبخّر الجماهير ويتفرّق الجمع ويولّون الدّبر، ما يذكّرني بما جرى مع مسلم بن عقيل سفير الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الكوفة، حيث اجتمع عليه

---

(١) انظر: دلائل الإمامة للطبري ص ١٨٢، وفي تاريخ الطبري ج٤ ص٢٩٠ جاءت كلمة الفرزدق كالتالي: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميّة»..

وبايعه الألوف من أهالي الكوفة، ثم بين ليلة وضحاها تبدّدت عنه تلك الجموع وانفضّت الجماهير التي بايعته، ليجد مسلم نفسه وحيداً فريداً على باب تلك المرأة الصالحة «طوعة»(١).

٣ ـ الخوف من المواجهة الفكرية وعدم الاستعداد للاستماع إلى الآخرين، وهذا من النتائج الطبيعية للمرض المشار إليه، فإنّ مَنْ يفقد الثقة بالذات يتهرّب من الحوار والمحاججة، وإذا أجاب فإنّ جوابه يكون على طريقة: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾[البقرة: ٨٨]. بينما الشخص الذي يمتلك الثقة بنفسه لا يهرب من الحوار ولا النقاش ولا يخيفه ذلك، أمّا الإنسان الضعيف في حجّته، فالهروب من المواجهة هو أسلم الطرق بالنسبة إليه، والتشويش والتعمية هي أفضل خياراته، كما حدثنا القرآن الكريم عن بعض المشركين: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، ويصل الأمر إلى حدّ أن يسدّ الإنسان أذنيه عن الاستماع إلى دعوة الحقّ، كما حصل مع ذاك الصحابيّ الأسعد بن زرارة، الذي دخل مكّة في بداية الدعوة الإسلامية، وكان مُحرِماً وخوّفه بعض عتاة المشركين من الدخول إلى المسجد الحرام حتى لا يسحره محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بكلماته، فسأل ابن زرارة: ما الحلّ إذن وأنا محرم وأريد الطواف؟ قال له ذلك القرشي: الحلّ أن تضع في أذنيك القطن، وتذهب للطواف فلا تسمع شيئاً من كلامه، وهكذا كان!(٢). إنّ سياسة وضع القطن في الأذنين لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

٤ ـ انهيار منظومة القيم لدى الإنسان، لأنّ فقد الثقة بالذات سيجعل الإنسان عرضة للتفلّت الأخلاقيّ وحقلاً خصباً للغزو الفكريّ والثقافيّ، ومن البديهيّ أنّ المنظومة الأخلاقية هي الحصن الأخير التي تحمي إنسانية الإنسان فبانهيارها تنهار إنسانيته، ويستسهل بعدها ارتكاب كلّ الفظائع أو الجرائم، ومن هنا وجدنا

(١) انظر بشأن ذلك: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧٧، والإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٥٤.
(٢) انظر: حول هذا الموضوع ما سجلناه في كتاب: عاشوراء ـ قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص٨٦.

أنّ الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء حاول في نهاية المطاف أن يستصرخ الضمير الإنسانيّ في تلك الزمرة التي حاصرته ومنعت عنه الماء، وتعرّضت لأطفاله وعياله، فقال عليه السلام: «**إن لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم**»[1]، فهذا الكلام يكشف بوضوح عن انهيار منظومة القيم والأخلاق عند تلك الجماعة.

٥ ـ هدر الطاقات والعقول: إنّ النتيجة الطبيعية لفقدان الأمة ثقتها بذاتها هو هدر الطاقات والعقول والكفاءات والمقدرات، وتغدو هذه الطاقات والعقول عرضة للنهب أو الهجرة إلى دول أخرى. أليس هذا حالنا؟ ألا تتحدث الأرقام عن أنّ عشرات الآلاف من أصحاب العقول المبدعة والكفاءات المميّزة من أبناء أمتنا لم يجدوا ملجأً آمناً أو سبيلاً للعيش الكريم في بلدانهم، ما اضطرهم إلى اللجوء إلى الغرب الذي فتح أبوابه لهم وقدّم لهم كل المحفزات والإغراءات.

هذه حال أمتنا اليوم، أمة يمكن لكل إنسان عاقل أن يرصد ـ وبكل سهولة ـ فيها الكثير من الأعراض أو الأمراض المشار إليها.

والسؤال بعد هذا: ما هو السبيل إلى النهوض؟

(١) الكامل لابن الأثير ج٤ ص٧٧.

٢

ركائز عمليّة النهوض

إنّ عمليّة نهوض الأمّة لا تحصل صدفة ولا تحقّقها الأمنيات ولا المواعظ والخطابات والشعارات، بل هي عمليّة دقيقة لها ظروفها وأسسها ومرتكزاتها وشروطها الحضارية التي لا بدّ أن تستنفر لأجلها كلّ الطاقات والإمكانات والعناصر البشرية التي تملك علماً ووعياً وإخلاصاً للأمة من أجل العمل على توفير تلك الظروف وتهيئة تلك الأسس والشروط، وإليك أهم هذه الشروط والركائز:

١ ـ المراجعة النقدية

الركيزة الأولى والأكثر أهميّة في عمليّة النهوض تتمثّل بـ«العودة إلى الذات»، والعودة إلى الذات عنوان صغير في حروفه، كبير في مضمونه، ولن يتسنّى لأمتنا أن تصحو أو تستفيق من كبوتها وتخرج من هذا النفق المظلم الذي دخلته منذ قرون إلاّ بالعودة إلى الذات، ولكنّ ذلك يفرض علينا قبل كلّ شيء أن نحدّد هذه الذات، فمن نحن فكرياً وحضارياً؟ ما هي مقومات هويتنا التي تحددّ علاقتنا بالآخر وتحكم نظرتنا إليه؟

وهذا يفرض علينا القيام بوقفة مطوّلة مع الذات، وقفة مراجعة مع أنفسنا لمساءلتها ومحاسبتها، ولا أقصد بالمحاسبة أو المساءلة هنا، المساءلة الفردية، مع أنّ محاسبة ومساءلة أنفسنا ـ كأفراد ـ ضرورية ومهمّة، بيد أنّنا نتحدّث هنا

عن الأمة ككيان، له شخصيّته المستقلة عن شخصيّة الفرد. هذه الأمّة مدعوّة بنُخَبِها وبأهل الوعي والبصيرة فيها، وبكلّ أفرادها الذين يدركون حالة التقهقر الحضاري التي أصابت الأمة إلى القيام بمراجعة نقدية، فلتطرح الأسئلة الجريئة، وأول تلك الأسئلة هو سؤال الذات والهُويّة فأيّ ذات نحن؟ وماذا نريد؟ وإلى ماذا نتطلع ونطمح ونصبو؟ ما موقفنا من التاريخ وكيف نستعيده؟ فلنسأل أنفسنا كأمّة أين كُنّا وأين أصبحنا؟ ولماذا؟ ما هي مكامن الخلل فينا؟ هل الخلل فينا أم في فكرنا وديننا؟ أم في تلقّينا لهذا الفكر؟ أم الخلل في إرادتنا؟ لماذا يتحوّل الإنسان المسلم إلى شخصيّة دموية وحشية بكلّ معنى الكلمة؟ لماذا تمزّقنا شيعاً وأحزاباً ولم نجد سبيلاً إلى الآن نعتمد عليه في إدارة الاختلاف أو تنظيمه؟ إنّ انتماءنا للإسلام يحتّم علينا أن نطرح هذه الأسئلة وسواها، وأن يساهم كلّ واحد منّا في التفكير بإيجاد الحلول والإجابات عليها.

باختصار: إنّ المنطلق الأساسي للعودة إلى الذات يكمن في وعي الإنسان بأمراضه ومشكلاته، وعلامة الوعي هو التفكير، ومفتاح التفكير هو السؤال، وعليه فكلّ الأسئلة المتقدّمة هي أسئلة مشروعة كما قلنا، وهي علامة صحيّة ومؤشّر طيب على وعي الأمّة لمشكلاتها وأمراضها، وتلك هي البداية الطبيعية لأي عمل تصحيحي تغييري، فالتفكير بذلك يعبّر عن إدراكنا للمشكلة، وإحساسنا بها، لأنّ أخطر الأمراض وأشدّها فتكاً هي تلك الأمراض التي لا يعيها الإنسان ولا يحسّ بها إلاّ بعد فوات الأوان، وإذا أحسّ بها فلا يعيرها بالاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وإنّ منطق السُّنن التاريخية يعلّمنا ويؤكّد لنا، بما لا مجال للّبس فيه، بأنّ هذه الوقفة والمراجعة مُكلِفة وتحتاج إلى معاناة وكبد ومجاهدة وإلى الكثير من

التضحيات والشهداء، أقصد شهداء الوعي الذين سوف يغتالهم الجهل بسهام التضليل والتكفير، لكنّ طريق التضحيات هذا هو الأمل الوحيد لاستفاقة الأمّة ونهوضها.

والمتأمّل في تاريخ الأمم والشعوب التي استطاعت أن تحجز لها مكانة في سجلات التاريخ الذهبية، لا يخالجه شكٌ في أنّها ما استطاعت النهوض من كبوتها إلا بعد قيامها بمثل هذه المراجعة.

خلاصات ونتائج

ويقيني أنّ المراجعة النقدية التأمّلية ستُفضي إلى عدّة خلاصات ونتائج، ومن أهمّها على الإطلاق أنّ الدين ـ وخلافاً لما يعتقد به كثيرون ـ في نصوصه ومفاهيمه وقيمه ليس سبباً لمآسينا وتخلّفنا وتمزّقنا.

أيّ ديـن تركَ النّـاسَ طريقـاً وطريقاً   وأحـالَ المنهجَ اللّاحبَ سـبعينَ فريقا

فالمشكلة ليست في الدين بل في فهمنا له وفي كيفية تلقينا لنصوصه وتمثّلنا لقيمه، إنّ الدين الذي يحمل عنوان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] لا يمكن أن يكون نقمة علينا وعلى البشرية جمعاء.

وقد تسأل: إذا لم تكن المشكلة في الدّين ففي أيّ شيء هي يا ترى؟ وقد طرح عليّ بعض الشباب، ذات يوم سؤالاً مفاده: لماذا تقدّم الغرب وتأخّرنا؟! أليس الدين هو سبب تخلفنا ومآسينا؟ لقد ترك الغربيون الدين وتخلوا عنه فتقدموا، فلماذا لا نتخلى نحن عن الدين عسى أن نلتحق بركب التقدم الحضاري؟

وأجبته بما يلي: إنّ سؤالك هذا عن سبب تخلف الأمة قد شغل عقل المفكّرين الإسلاميّين منذ عقود طويلة، وقد قُدِّمت إجابات عديدة عليه، كان من أبرزها الرأي الذي عزا السبب إلى الاستبداد وقد تبنّى هذا التفسير المفكر الكبير عبد

الرحمن الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». بينما ذهب آخرون إلى أنّ المشكلة هي في الاستعمار الخارجي الذي عمل جاهداً من أجل الهيمنة على بلاد المسلمين، ونَهْبِ ثرواتهم والتدخل في شؤونهم، وسعى في تفريقهم وتمزيق وحدتهم وشق صفوفهم وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية فيما بينهم، وقد لا يكون تدخل الاستكبار العالمي ـ تأثيراً أو تشويهاً ـ في الحراك الشعبيّ الذي حصل مؤخّراً في الكثير من الدول الإسلامية والعربية (نحن نتحدّث عن العقد الأول وبدايات العقد الثاني من الألفية الثالثة) هو آخر تدخلاتهم على هذا الصعيد.

وهكذا قدّمت وجهات نظرٍ أخرى على هذا الصعيد في محاولة تفسير التخلف المشار إليه. ولو أنني أردتُ تقديم تعليق مختصر على هذه القضية فأقول: إنّه لا شكّ عندي أنّ كلاًّ من الاستعمار والاستبداد له نصيب في هذا التخلّف الذي نتخبط فيه والواقع المزري الذي نعيشه، ولكنّ ما أعتقده أنّ السبب لا ينحصر بهذا أو بذاك، بل المشكلة أعمق من ذلك، إذ إنّ الاستبداد ما كان ليجثم على صدر الأمّة كلّ هذه المدة الطويلة لو لم يكن فيها قابلية للتكيّف مع المستبد والانحناء له والخضوع لسلطانه، كما أنّ الاستعمار هو الآخر ما كان ليستمرّ إلى يومنا هذا ـ ولو بعناوين جديدة وبراقة ـ لو لم يجد أرضية صالحة له، وقد قالها المفكّر الجزائري مالك بن نبي «لو لم يكن فينا قابلية الاستعمار لما استُعمرنا». إذن أين تكمن المشكلة؟

المشكلة في الثقافة

المشكلة باختصار شديد، وبحسب ما أُقدِّر: تكمن في الثقافة المهيمنة على الواقع الإسلامي منذ قرون طويلة والتي صاغت عقل المسلم بطريقة معينة جعلته:

أولاً: يتقبّل الاستبداد ويتماشى معه، وذلك عندما تمّ التنظير الشرعيّ والدينيّ للاستبداد بحجّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد دعا إلى إطاعة السلطان ولو كان فاسقاً فاجراً، وهكذا جعلت هذه الثقافة المشوّهة الإنسان المسلم يتقبّل الاستعمار والذّلّ والعبودية أيضاً، بعنوان أنّ ذلك هو قضاء الله وقدره، ولا رادّ لقضائه وقدره.

ثانياً: وجعلته (وهذا هو الأخطر) عقلاً عقيماً عن الإنتاج والإبداع والتطوير، فهو في صراع مع العلم، وفي توجس من كلّ جديد، ومردّ ذلك إلى أنّه تمّ تلقينه جملة من المفاهيم المزوّرة التي أُلبست لبوساً إسلامياً، وكان تأثير هذه المفاهيم خطيراً، إذ إنّها أَرْخَتْ بظلالها على واقع المسلمين فأورثتهم شللاً ووهناً وتسليماً للأمر الواقع وتماهياً معه.

إنّ المشكلة تكمن هنا، أعني في الثقافة والفكر، ولا بدّ من إعادة انتاج عقل المسلم على الأسس السليمة والمفاهيم الصحيحة التي جاء القرآن الكريم للتبشير بها. فالنهوض يبدأ عندما يتمّ تحرير العقل الإسلاميّ من كلّ الأوزار التي أثقلت كاهله، وهذا الأمر ليس بمستحيل، لأنّ عقل المسلم ليس عقيماً، وليس صحيحاً أنّ عقله من تراب وعقول الآخرين من ذهب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ في الإسلام، ورغم كلّ محاولات التشويه والتطويع والتزوير، قوة فكريّة وروحيّة قادرة على تغيير واقع المسلمين نحو الأفضل، شريطة أن يثقوا بأنفسهم وبقدراتهم، ويأخذوا بأسباب العلم ويبتعدوا عن الانشغال بالتفاهات والهوامش، ويخففوا من غلواء العصبيّات القاتلة التي تمزّق وحدتهم وتعيدهم إلى الجاهلية الجهلاء. ولنا عودة إلى هذا الموضوع عمّا قليل، حيث سنتحدث عن ضرورة تحرير العقل من القيود والمكبلات التي تعيقه عن العمل المثمر.

التاريخ قاعدة انطلاق نحو المستقبل

وقد يتخيّل البعض أنّنا عندما نطرح شعار العودة إلى الذات، فإنّنا نريد للحياة أن تعود إلى الوراء، لنعيش في كهوف الماضي وزنازينه، أو نعيش على زهوه ونشوة انتصاراته، أو أنّنا نريد أن نتشبث بتراثنا بغثّه وسمينه، مع أنّ هذا الماضي قد يكون جزءاً من تخلّفنا!

بيد أنّ هذا التخيّل غير صحيح على الإطلاق، فنحن نؤمن ونعتقد أنّ العودة إلى الذات لا تعني الانسلاخ عن عصرنا لنعيش في غيابات الماضي، ولكنّها لا تعني حتماً أن ننسلخ عن هُويّتنا وثقافتنا وننزع لبوسنا، فلا استنساخ تجربة الآخرين ومحاكاتهم ـ كما يستهوي بعض المتغربين ـ هي الحلّ الصحيح لمشكلاتنا، ولا استنساخ تجربة ماضينا المنصرم ـ كما يريد بعض الماضويين منّا ـ هي الحلّ السحريّ لأزماتنا، فلا بدّ أن نتوازن، ففي الوقت الذي لا يحقّ لنا أن ننقطع عن عصرنا ومنجزاته، فلا يجوز لنا أن ننقطع عن تاريخنا ومحطّاته المشرقة. إنّ أمّة بِلا تاريخ هي أمة بلا هُويّة وبلا حاضر وبلا مستقبل.

المطلوب إذاً أن نبنيَ على هذا التاريخ لا أن نسكن فيه، وأن نعيد قراءته لا أن نقدّسه تقديساً أعمى أو نتجمّد فيه، أن نبنيَ عليه للانطلاق إلى المستقبل، وأن نفكّك بين ثابته ومتحرّكه، وأن نميّز صفوه من كدره، وأن لا نخلط بين ما هو مقدس وما هو نسبي، لأنّنا ـ مع الأسف ـ أضفيْنا هالة من القداسة على هذا التاريخ بكلّ مفاصله ورموزه، حتّى أضحينا مسكونين فيه كما هو مسكون فينا، وهكذا أصبح الكثيرون منّا يعيشون على الأطلال، فلا مشروع لديهم ولا إنجازات لهم سوى التغنّي بذكرى الأجداد، دون عمل جدّي هادف إلى استعادة تلك الأمجاد أو تثمير تلك الانتصارات.

وهذه النتيجة هي ـ أيضاً ـ من أهمّ الخلاصات التي توصلنا إليها المراجعة النقدية.

٢ ـ الثقة بالذات

الركيزة الثانية التي لا بدَّ من البناء عليها والانطلاق منها في عمليّة النهوض هي الثقة بالذات، فهي القاعدة الأساسيّة في نهوض الأمم وتقدّمها؛ وهذا الواقع المشرذم والمأزوم الذي نعايشه لا ينبغي أن يبعث فينا حالة من اليأس أو يدفعنا إلى الإحباط، ومشكلة البعض منّا أنّه يريد القيام بمراجعة نقديّة لتاريخه وتراثه تحت وطأة الانهزام النفسيّ والمعنويّ ومن منطلق الشعور بالدونية، ولهذا شرّقوا وغربوا.

إنّ بداية انهيار الأمم وتقهقرها هي بداية فقدها ثقتها بذاتها، فالأمم الرائدة والتي يكتب لها البقاء هي التي لا تخجل بانتمائها ولا تمحو ذاكرتها ولا تنسى أو تتناسى انتصاراتها. إنّ بعض دعاة التغيير لا يُخفون آراءهم في هذه المسألة، فهم يدعون المسلمين إلى إجراء قطيعة مع تراثهم، والانطلاق إلى المستقبل مجرّدين عن كلّ التأثيرات النفسية والثقافية والاجتماعية لهذا الموروث! وهكذا يريدنا البعض أن نكون أمّة بلا ذاكرة لينسينا حتّى انتصاراتنا المعاصرة ويزيل من قاموسنا ذكريات العزّ والكرامة. إنّ هؤلاء الذين يخجلون من حاضرهم أو ماضيهم المشرق، أو يتناسون هذا الحاضر وذاك الماضي، إنّما يعملون من حيث يشعرون أو لا يشعرون على أن تبقى هذه الأمة على الهامش وفي الظلّ.

إنّ التاريخ بسننه وعطاءاته هو قاعدة الانطلاق نحو المستقبل، والأمة التي تخجل من تاريخها فهي تهرب من ذاتها، وأمّة كهذه لن يُكتب لها النجاح، ولذا نجد أنّ الزيارة المعروفة للإمام الحسين عليه السلام تستحضر هذا الامتداد التاريخي للإمام عليه السلام، «**السلامُ عليك يا وراثَ آدم صفوة الله السلامُ عليك يا وراثَ نوح نبيّ الله السلامُ عليك يا وارثَ إبراهيم خليل الله السلامُ عليك يا وراثَ موسى**

كليمِ الله السلامُ عليك يا وارثَ عيسى روحِ الله السلام عليك يا وارثَ محمّد حبيبِ الله..»[1]، فالإمام الحسين عليه السلام ليس شخصيّة طارئة، إنّه خطّ ممتدّ وراسخ في أعماق التاريخ، وهكذا نحن كأمة، لسنا طارئين ولا شذّاذ آفاق، نحن أمّة لها تاريخها المجيد وإسهاماتها الحضارية المتمايزة.

وفي ضوء ذلك، فإنّ الخطاب التغييري لا بدَّ أن يبتعد عن ممارسة النقد على طريقة جلد الذات التي لا تُبقي بارقة أمل لدى أبناء الأمة، وتهدم ما هو موجود وقائم دون أن تقدّم البدائل، فهذا الخطاب ليس موفّقاً، بل إنّه سيزيد الأمّة وَهناً على وهن، وسوف يفاقم مشكلة الثقة بالذات ويزيدها استفحالاً، وهذه النقطة تشكّل مرتكزاً في عمليّة استنهاض الأمّة.

٣ـ الحاجة إلى حركة إصلاحية ثورية

الركيزة الثالثة: هي حاجتنا إلى حركة إصلاحية وثورية، وذلك لأنّ عمليّة إعادة الثقة بالذات أو عملية بناء الذات التي أصابها الضياع، وتحكّم بها داء ضعف الإرادة وتذبذب المواقف وازدواجيتها، ليست مسألة بسيطة أو سهلة، وإنّما هي عمليّة حساسة ومعقّدة وتحتاج إلى جهود جبارة وعمل دؤوب وكفاءات استثنائية. والذي أراه وأعتقده أنّه وفي هذه المرحلة من تاريخ أمتنا والتي تتميّز:

أولاً: بأنّ الإنسان المسلم يعيش فيها تحت وطأة الانهزام النفسي لا بسبب تفوّق الغرب علينا حضارياً فحسب، بل وبسبب سيطرته على معظم مقدراتنا وثرواتنا واحتلاله لبعض أرضنا وبلداننا كفلسطين وغيرها.

وثانياً: بأنّ عقل المسلم يعاني من سلفيّة متحجرة إقصائية تكفيرية دموية تستبيح النفوس والدماء والأعراض.

---

(١) مصباح المتهجد ص ٧٢٠.

في مرحلة كهذه، فإنّ مهمة إعادة الثقة بالذات والانطلاق نحو المستقبل تحتاج ـ فيما تحتاج إليه ـ إلى حركة إصلاحية ثوريّة، وبتعبير أدق هي تحتاج إلى حركتين: حركة ثورية وأخرى إصلاحية، وهاتان الحركتان تحتاجان إلى شخصيتّين قياديتّين: شخصيّة ثائر وشخصية مفكّر ومصلح، وقد تجتمع الصفتان في شخصٍ واحد.

وحاجتنا إلى الحركة الثوريّة وإلى شخصيّة الثائر تنبع من حاجة الأمّة المسلوبة الإرادة والتي فقدت ثقتها بذاتها إلى ما يعيد لها عنفوانها وثقتها بنفسها، ويمنحها الأمل بالتغيير. ولا شكّ أنّ الحراك الثوري المدروس كفيل بأن يحقّق ذلك، أو يساهم في تحقيقه، وهذا الحراك وإن كان مُكلفاً ويحتاج إلى الكثير من التضحيات، بيد أنّ هذه التضحيات العزيزة والثمينة لها دورها المؤثر في إيقاظ النفوس وتحريك الهمم والعزائم، لأنّها تشكّل صدمة عاطفيّة تهزّ الوجدان والمشاعر، وتحرّك الوعي الذي دخل في سبات عميق. إنّ هذه الصدمة هي أكثر من ضرورية ولا يُستغنى عنها، لأنّ الأمّة عندما تفقد ثقتها بذاتها فلن تنفعها المواعظ والتنظيرات الفكريّة والجهود الإصلاحية إن لم تترافق مع هزّة وجدانية من هذا القبيل، على أنّ النّاس ربما عرفوا الحقّ ولكنّهم لضعف إرادتهم وتعلّقهم بالمصالح الدنيوية والمؤقّتة لا يتّبعونه، بل ربّما حاربوه وعاندوه، فيأتي دور الثائر المضحي ليقدّم نموذجاً مختلفاً ما يساعد على إيقاظ الضمائر ويسهم في عودة الإنسان إلى فطرته وأصالته .

وهذا ما يجعلنا نفهم خيار الإمام الحسين عليه السلام في الإصرار على المواجهة حتى الرمق الأخير، لأنّه أدرك أنّ الأمة تحتاج إلى صدمة، وكانت نهضته هي الصدمة التي أيقظت الأمّة الإسلامية آنذاك. وذروة هذه الصدمة تمثّلت بأن يقدّم الحسين عليه السلام نفسه وعياله شهيداً على مذبح الحريّة، ليشكّل هذا الحدث بما

يتضمّنه من عناصر مأساوية دامية منقطعة النظير أكبر هزة لضمائر المسلمين الذين راعهم ما حدث، وسيطرت عليهم حالة الندم والإحساس بالتقصير والشعور بالذنب، ومن هنا انطلقت بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام حركات عديدة تحمل عناوين دالّة ومعبرة عن الجرح العميق الذي حفره استشهاده عليه السلام في نفوس المسلمين، كحركة التوابين مثلاً.

ولكن العمليّة الثوريّة هذه ليست كافية، ولن تؤدّي غرضها المنشود ـ وخلافاً لما قد يظنّه الكثير من الشباب المتحمسين ـ إن لم تترافق مع عمليّة إصلاحيّة ثقافية تعمل على التأسيس الفكريّ والفقهي، وهنا يأتي دور المُصلح والمُفكّر ليقوم بتصحيح الانحراف الفكريّ وتقويمه، بعد أن يكون الثائر قد هيّأ النفوس لتتلقى عملية الإصلاح وتتقبلها.

وقصارى القول: إنّ الأمة لتستفيق من كبوتها وتستعيد ثقتها بذاتها، تحتاج إلى مفكّر وثائر، فالمفكّر المُصلح يعمل على الاجتهاد في النصوص، والثائر يجتهد في إيقاظ النفوس. المُصلح يعمل على تحريك عجلة الدين التي أصابها التكلّس، بينما يعمل الثائر على تحريك نبض الأمة التي أصابها الشلل. وظيفة المصلح أو المفكّر أن يفكّ القيود عن عقل الإنسان، بينما وظيفة الثائر أن يحرّر الأمّة من قيود الظلم والعدوان. وربّما اجتمعت شخصيّتا الثائر والمُصلح في شخص واحد، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام، الذي كان المُصلح والثائر في الآن عينه، وقد تتعدد الشخصيتان، وهنا لا بدّ أن يكمّل أحدهما دور الآخر.

وعلينا أن نعيّ جيّداً أن المهمّتَين الثورية والإصلاحية لهما شروطهما وضوابطهما، ولا يمكن أن يحصل التغيير خارج تلك الشروط، وإليك توضيح ذلك باختصار:

أولاً: أُسس الممارسة الثورية

أمّا العمل الثوريّ فلا يمكن أن يُكتب له النجاح إلاّ إذا توفّرت فيه جملة من العناصر والمرتكزات وأهمها:

١ ـ شخصية الثائر وكفاءته وأهليته.

٢ ـ مشروعه الثوري والتغييري.

٣ ـ ممارسته الثورية، التي تلتزم ولا تحيد عن المعايير الأخلاقية الثورية.

مع توفّر هذه العناصر والشروط، يمكن للممارسة الثوريّة أن تكون فاعلة ومؤثرة.

ويفترض بنا أن نعي جيداً أنّ هناك عدة حقول للعمل الثوري:

الحقل الأول: هو العمل الثوري الجهادي في مواجهة أعداء الأمة، الذين ينتهكون العرض ويحتلّون الأرض، وأبرز مثال لذلك في عصرنا هم الصهاينة المحتلين لقسم من بلداننا وأرضنا.

الحقل الثاني: العمل الثوري الجهادي في مواجهة البغاة الساعين إلى شقّ عصا الأمة والتمرد على النظام الشرعي.

وهذان الحقلان قد تمّ بحثهما وتحديد شروطهما بالتفصيل في كتب الفقه الإسلامي، ولا نريد الخوض هنا في هذا البحث التخصصي، وإنّما نوكل ذلك إلى محله، أجل تجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من الفتاوى الفقهية المشهورة في الحقلين المذكورين هي حصيلة اجتهاد فقهي ويمكن إخضاعها لإعادة النظر والتأمل[1].

الحقل الثالث: هو العمل الثوري الذي يستهدف إسقاط أنظمة الاستبداد

(١) من قبيل الفتوى المشهورة حول أنّ الكافر إنّما يقاتل لكفره لا لعدوانه وحرابته، وقد ناقشنا هذه الفتوى في كتابنا العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي ص١٠٥ وما بعدها.

والجور وتغيير الواقع المنحرف، وذلك بالاعتماد على وسائل التغيير المعروفة والتي قد تتدرج في أساليب المواجهة شيئاً فشيئاً، وصولاً إلى استخدام الوسائل غير السلميّة، فهل هذا العمل الثوري مشروع؟ وماذا عنه في زماننا؟

التغيير الثوري في واقعنا المعاصر

والجواب: إنّ هذا النوع من العمل الثوري من حيث المبدأ هو عمل مشروع، ولدينا العديد من الأدلة والشواهد التي تؤكد مشروعيته[1]. بيد أنّ هذه المشروعية ليست مطلقة، وإنما لها ظروفها وشروطها وضوابطها. ولذا فنحن وفي تطلّعنا المشروع إلى التغيير الشامل والمتكامل علينا أن نعي أنّ ثمَّة منهجاً إسلامياً أصيلاً في عمليّة التغيير مضموناً وشكلاً، تنظيماً وإدارة، ولا يجوز للمسلم تخطي هذا المنهج في أي ظرفٍ من الظروف.

ودعونا نقولها بكل صراحة: إنّ التأمل الدقيق والبصير في واقع المجتمعات والبلدان الإسلامية المعاصرة وموازين القوى التي تحكمها يقود إلى رفض التسرع باعتماد العمل الثوري المسلّح كسبيل أساسي للتغيير في غالب هذه المجتمعات، ولا سيما بعد الأخطاء الكبيرة التي ارتكبتها الحركات الإسلامية في العقود الأخيرة، إن فيما يتصل بانجرار بعضها إلى لعبة الدم، أو وقوعها في فخّ إغراءات السلطة.

بديهي أننا لا ننكر مشروعيّة تطلّع الإنسان في عالمنا العربي والإسلامي إلى تغيير هذا النظام الفاسد الذي يرزح تحته وينوء بأعبائه، بدءً من نظام الاستبداد الذي هو رأس كل فساد وبلية، ووصولاً إلى كل مظاهر الظلم والفساد والانحلال الأخلاقي.. فإنساننا العربي والمسلم يحقّ له كغيره من بني الإنسان أن يعيش

(١) لسنا هنا بصدد استعراض أدلة شرعية العمل الجهادي الرامي إلى تغيير النظام الفاسد، ولكنّ قيام الإمام الحسين عليه السلام في وجه الطاغية يزيد هو خير دليل على مشروعيته، بل وضرورته

حياة حرّة كريمة في ظل نظام عادل يوفّر له الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية، دون أي تمييز أو ظلم أو إقصاء، وليس ثمّة ما يمنعه من التفكير والسعي لبلوغ هذا الهدف، ولكن إذا تسنّى له بلوغ الهدف المذكور بالحسنى، ومن خلال أساليب العمل السلميّ والحراك المدني بشتى وسائله فهو المتعين، إذ الأصل في الإسلام هو العمل السلميّ البعيد عن العنف وسفك الدم، وإذا اقتضى الأمر القيام بأعمال احتجاجيّة من المظاهرات والاعتصامات وصولاً إلى العصيان المدنيّ المدروس، فلا محذور في ذلك أيضاً، وأمّا اعتماد أسلوب العنف المسلّح في سبيل إسقاط النظام أو تغييره، فهذا أمر حساس ودقيق، ولا يجوز الإقدام عليه إلا في ظروف خاصّة وحالات استثنائية وبعد دراسة وافية ودقيقة لمعطيات الواقع ومعادلاته، وعلى أن يجري ذلك تحت إشراف القيادة الواعية والحكيمة والتي تمتلك الشرعية في هذا المجال، أما التسرّع في عسكرة الحراك الشعبي المطالب بالتغيير فهو مخاطرة كبيرة. والانفعال والارتجال ليس متاحاً ولا مسموحاً به في قضايا تمسّ أمن العباد واستقرار نظام البلاد، ناهيك عن أنّ ذلك لا يصنع تغييراً ولا يحقق نتيجة مفيدة، فوصول العمل التغييري إلى غاياته المرجوة هو رهن التخطيط الواعي والمدروس الذي يقدّر الإمكانيات ويدرس الظروف الموضوعية، السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن الضروري أيضاً دراسة أولويات الأمّة قبل الاندفاع إلى الشارع، فإذا كانت الظروف لا تشي بالقدرة على تغيير النظام المستبدّ والظالم، وكانت المعطيات تؤشّر إلى دخول الأمّة في نفق مظلم من الفوضى والاحتراب الداخلي فلا يشرع الحراك الثوري والحال هذه، لأنّ حفظ النظام العام أولوية بالنسبة للتشريع الإسلامي، وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «**والٍ ظلوم غشوم خيرٌ من فتنة تدوم**»[1].

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٥٠٥.

وأعتقد أنّ ثمّة شروطاً مهمّة لا بدّ من الأخذ بها لنجاح الحراك التغييري المنشود ووصوله إلى غاياته، ومن أهمّ هذه الشروط:

أولاً: الاعتماد على قدراتنا، فالتغيير والإصلاح إنّما يأتي من الداخل واعتماداً على أيدي وسواعد أهل البلاد، وليس من خلال طائرات أو دبابات الخارج، لأنّنا لا نريد استبدال مستبدّ داخليّ بمحتلّ خارجيّ.

ثانياً: رفض مذهبة الحراك التغييري، فإنّ ذلك مدعاة لمحاصرة هذا الحراك، وربّما إجهاضه.

ثالثاً: الابتعاد عن أسلوب العنف و«عسكرة» الحراك الشعبي، فهذا الأسلوب بحسب ما نلاحظ وتُعلِّمنا الدروس العمليّة المستفادة من واقعنا المعاصر ليس مأموناً ولا مضمون النتائج، وقد لا يُقيّض له أن يصل إلى غايته المنشودة، بل ربّما أدخل الأمة في نفق من الاقتتال والصراع الداخليّ الذي يفتت البلدان ويمزّقها ويثير الفتن بين أهلها وطوائفها ومذاهبها.

ثانياً: أسس العمليّة الإصلاحيّة

وأمّا العمليّة الإصلاحيّة، فإنّ حاجتنا إليها هي حاجة ماسّة وهي تنبع من أنّ الدين هو في معرض التشويه الدائم على مرور الزمن وتعاقب العصور، وحاله في ذلك كحال النبع الزلال الذي يخرج من عين صافية، ويظلّ كذلك إلى أن يسير في الأودية ويقطع الجبال والسهول.. فيحمل معه في رحلته الطويلة الكثير من الأوساخ التي تلوّث صفاءه، وهكذا هي حال الدين، فإنّه ينطلق في بادىء الأمر بنقاء تام وحيوية متميّزة، ولكنّ تعاقب الأزمان وتعدد الأفهام سوف يصاحبهما دخول بعض السلبيات على فهم النص وتفسيره، ومنها:

أولاً: دخول الكثير من الأهواء والأغراض الخاصة على تفسير النص الديني،

بما يعرّضه للتشويه والتحريف أو التطويع لخدمة بعض الأغراض السياسية أو غيرها.

ثانياً: اكتساب بعض القراءات (قراءات النص) قدسيةً معيّنة، لتصبح هي القراءة الرسمية المعتمدة، وتتحوّل بدورها إلى ما يشبه النصّ المقدس أو المتن المعتمد والذي يدور المتأخر في فلكه، وينحصر جهده في شرحه وفهمه والتعليق عليه، وتكثرُ الشروح على الشروح، وتتعدد حواشي الحواشي، وفي غمرة ذلك كله قد يغيب النص الأصلي، ويغدو مثقلاً بكثرة الشروح والحواشي، أو يتحوّل إلى ما يشبه الأحاجي والألغاز بسبب الذهنية التي تمنع من العودة المباشرة إليه، بعيداً عن القوالب التي وضعها الشّراح الأوائل.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي أنّ العقل الاجتهادي سوف يصاب بالتكلّس والتحجر والجمود، الأمر الذي يجعل حاجتنا ملحّة للعودة إلى النص الأساسي نفسه، واستنطاقه واستكناه معناه، بعيداً عن كل الشروح التي أثقلت كاهله، ومن الطبيعي أنّ هذا الأمر يحتاج إلى جرأة اجتهاديّة ترصدُ كلّ التشوّه الذي تعرّض له النصّ الديني وتعمل على تصحيحه وتنقيته ممّا علق به، وتملك استعدادَ الوقوف في وجه حرّاس القراءة الرسمية، وهنا تكمن أهمية فتح باب الاجتهاد، وهنا يكون التجديد، فالتجديد ليس مجرد شعارات وعناوين فضفاضة، والاجتهاد لا يعني التضلّع في فهم الشروح والحواشي، وإعادة إنتاج ما كتبه السلف بإخراج جديد، وإنّما الاجتهاد هو القوّة المحرّكة للدين، بما يجعله قادراً على المواكبة المستمرة لكل جديد.

بَيْدَ أنّ العمليّة الإصلاحية لن يكتب لها النجاح والتوفيق ولن تؤتى ثمارها ما لم تعتمد الأسس التالية:

١ ـ تحكيم العقل كقاعدة أساسية للفكر والسلوك، وكركيزة صلبة للإيمان

والتطوّر والإبداع. ومعلوم أنّ الإسلام قد أعاد إلى العقل مكانته، وأزال كلَّ العوائق التي تعيق حركة العقل، فحرّم الشعوذة والسِّحر والكهانة، وقد قالها رسول الله ﷺ عندما سمع في يوم وفاة ابنه عبارة: «كُسفت الشمس حزناً على إبراهيم» والتي ردّدها بعض المسلمين عندما شاهدوا كسوف الشمس في ذاك اليوم، فقال ﷺ: **«أيّها الناس إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يجريان بأمره، مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته..»**(١).

لقد وعى أسلافنا في مرحلة زمنيّة معيّنة قيمة العقل، وقرأوا النصّ بالعقل فتقدّموا، ولكنّ بعض الخَلَف جمّدوا العقل وحاصروه بالنصّ فتخلّفوا، هلّا تأمّلنا كم مرّة وردت كلمة «العقل» و«الفكر» ومشتقّاتهما في القرآن الكريم؟ نعم، لقد جعل المسلمون الأوائل العلم فريضة، وكان النبيّ ﷺ يفكّ أسرى المشركين لمجرّد أن يعلّم الواحد منهم عشرة من المسلمين، أمّا الآن فنحن من أجهل الأمم، نحن أمّة «إقرأ» ولا تزال الأميّة متفشية فينا! تقول الإحصاءات الرسمية للعام (٢٠١٣م) أنّ ٨٠٪ من طلاب المرحلة المتوسطة «البرويفه» في لبنان رسبوا في اللغة العربية!

ولا بدّ أن نحرّر العقل من القيود والمكبلات، لأنّنا أمة تقدس العقل، وتفاخر بذلك وتتغنّى به، ولكننا ـ فيما يبدو ـ نحاصر العقل بأسوار عالية من العادات والتقاليد التي تمنعه من الرؤية، كما أنّنا نتركه يحلّق في الأعالي ولا نسمح له بالنزول إلى الخطوط التشريعيّة العامّة والتفصيليّة بحُجّة أنّ دين الله لا يصاب بالعقول، مع أنّ الوارد في الحديث: **«إنّ دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة»**(٢).

(١) الكافي ج٢ ص٢٠٨، وتهذيب الأحكام ج٣ ص١٥٤.

(٢) الحديث مروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام، انظر: كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق ص ٣٢٤، وللتوسع حول دور العقل في بناء الثقافة الإسلامية يمكنكم مراجعة ما ذكرناه في كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي» ص٢٧١ وما بعدها.

إنّ مراجعة نقديّة لفكرنا هي أكثر من ضروريّة، ومن الضروريّ أن تتمَّ المراجعة بعيداً عن الضوضاء والصّخب، ومؤثّرات العقل الجمعي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[سبأ: ٤٦]. وبعيداً أيضاً عن ضغط التقاليد التي أصبح لها سطوة في مجتمعاتنا أبلغ من سطوة الدين، وإلا فبالله عليكم أليست كارثة أن ترى أنّ المرأة في بعض المجتمعات قد وصلت إلى القمر، بينما لا يزال البعض(١) من فقهاء المسلمين يحرّم عليها قيادة السيارة؟ إنّها التقاليد الصحراوية البالية والتي لا أساس لها في الشريعة الإسلامية، فقد كانت المرأة المسلمة ـ التي لا يزال البعض يناقش في حقّها في قيادة السيارة أو السفر بدون محرم أو يدعو إلى حبسها في البيت أو يشكك في قدرتها العقلية ـ تخرج لتقطع المسافات الطويلة لتحاجج الحكام، فهذه ـ على سبيل المثال ـ سويدة الهمدانية تخرج من الكوفة إلى الشام وتقف أمام معاوية، وتشكو ظلامتها وتخاطبه بكلّ عزّة نفس وبلاغة منطق(٢).

٢ ـ أن نعمل على تفعيل الثقافة النقدية، ثقافة الاختلاف، والرأي والرأي الآخر، ثقافة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤]، وقد قدّم لنا الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذجاً رائعاً على هذا الصعيد، فقد رأيناه يحرّض الناس على نقده وهو المعصوم، فقال لهم: «**فلا تكلّموني بما تُكّلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة. ولا تخالطوني بالمصانعة. ولا تظنوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي. فإنّه مَنِ استثقل الحقّ أن يُقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفّوا عن**

(١) هذه الفتوى معروفة عند علماء الوهابية فقد أفتى بها الشيخ ابن باز وغيره، انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ج١٧ ص٢٤٢.
(٢) راجع قصتها الرائعة في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور ص٣٠.

مقالة بحقّ أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملَك به منّي»[1]، لقد هدف علي عليه السلام بكلامه هذا إلى أن يعلّمنا منهجاً في التفكير وهو المنهج النقديّ، فننقد الحاكم عندما يخطئ، لأنّه ليس ظلّ الله على الأرض، هو إنسان معرّض للخطأ والنسيان وغيرهما من نقاط الضعف البشريّ، وإذا أخطأ فعلى الأمة أن تقوّمه وتحاسبه وفق آليات خاصّة، ومؤسّسات تُعنى بالمراقبة والمساءلة.

٣ ـ ومن هذه الأسس المهمّة في العملية الإصلاحية وفي بناء الذات والعودة الفاعلة والمؤثّرة إلى ميدان المنافسة: أن نبني علاقاتنا الاجتماعية والإنسانية على أساس متين وجامع يوحّد ولا يفرّق، أساسٍ يصهر في داخله كلَّ التنوعات الإنسانية. وهذا الأساس الجامع هو مبدأ الأخوّة الإنسانية، والذي يترجم عملياً بما مفاده: أنّ الناس كلّهم أخوة، وأنّ المواطنية تجمعهم تحت سقف واحد، مع غضّ النظر عن ألوانهم ومذاهبهم وأديانهم، وإذا كان البعض يدعو إلى «الشراكة» وهو المصطلح المتداول في قاموس السياسيين في بعض بلداننا كلبنان أو غيره، فإنّ الإسلام يطرح مصطلح الأخوّة، أخوّة الدين أو أخوّة الإنسانية. والأخوّة ليست شعاراً أو شعراً أو تعويذة، وإنّما هي منظومة من الحقوق والواجبات، فالإنسان أخو الإنسان، ولأنّه أخوه فعليه أن لا يخذله ولا يخدعه، ولا يظلمه ولا يغتابه، لقد تسامى عليّ عليه السلام إلى حدّ أنّه كان يقول لأعدائه وخصومه بأنّهم إخوانه، في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «**أنّ علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشِّرك ولا إلى النفاق، ولكنّه كان يقول: «هم إخواننا بَغَوا علينا»**[2].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: كان يقول عن الذين حاربوه وتمردوا على النظام

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٠١.

(٢) قرب الإسناد ص ٩٤.

العام، فاضطرّ لقتالهم: «**إنّا لم نقاتلهم على التكفير لهم ولم نقاتلهم على التكفير لنا، ولكنّا رأينا أنّا على حقّ، ورأوا أنّهم على حقّ**»[1].

ماذا يعني ذلك؟ إنّه يعني:

١ ـ أنّ علينا أن ندير اختلافاتنا وتنوعاتنا بالحوار لا بالسيف.

٢ ـ وأن التكفير لا يواجه بتكفير مضاد، بل بمنهج فكريّ يفكّك البنى التحتية للتكفير، ويعرّيه من الناحية الشرعية.

أضواء على مسيرة العمل الإصلاحي

وقبل أن نغادر حديث الإصلاح أرى من اللازم تسليط الضوء على أمرين أساسيين، لا غنى عنهما في نجاح مسيرة العمل الإصلاحي وبلوغها غاياتها المنشودة:

أحدهما: بيان شخصيّة المصلح ومنهجه الإصلاحي.

ثانيهما: بيان هدي القرآن الكريم في مواجهة الفساد.

١ ـ المصلح ومنهجه الإصلاحي

أما الأمر الأول فاختصار القول فيه: إنّ المصلح الناجح يحتاج إلى رؤية واضحة المعالم، ومنهج أصيل يسير على ضوئه، وخطة عملية يسير عليها في خطوات واعية متدرجة، كما أنّه يحتاج إلى عدّة فكرية وأخلاقية كافية لقيادة عملية الإصلاح، وتوضيحاً لذلك يمكننا القول:

أولاً: إن المصلح لا يتحرّك بعشوائية أو بطريقة انفعالية ولا يكتفي بإطلاق الشعارات في الهواء الطلق لمجرد الإثارة، كما أنّ المفروض بالمصلح أن لا ينقد

(١) المصدر نفسه ص٩٣.

لمجرد النقد، أو ينقد ليهدم وكفى، فهذا قد يكون ضرره أكثر من نفعه، وإنّما عليه ـ إن كان يروم الإصلاح حقاً ـ أن ينقدَ في سياق عمليّة البناء والترميم، وهذا ما يحتّم عليه أن يسعى باستمرار لتقديم البدائل، فعندما تنقد ما عليه المنبر الحسيني ـ مثلاً ـ فإنّ السؤال الملح الذي يواجهك: أين بديلكم عن المنبر التقليدي؟! ولا سيما أنّ لهذا المنبر ـ رغم سلبياته ـ الكثير من الإيجابيات، فعمليّة النقد إن لم تترافق مع تقديم بديل معقول قد تسهم في إبعاد الكثيرين عن القضية الحسينية نفسها، ومن الجيّد والضروري أن نعترف أنّ دعاة إصلاح المنبر الحسيني ـ مثلاً ـ لم يعملوا بما فيه الكفاية لتقديم البدائل الناجعة وإقناع الناس بها. وهكذا عندما ترفض عملاً اعتاده الناس فربما يجدر بك أن تقدّم لهم بديلاً مقدمة لإخراجهم مما هم فيه، لأنّ من اعتاد شيئاً يصعب عليه تركه إن لم تقنعه بالبديل، ولذلك فإنّ الدعوة إلى التبرع بالدم كبديل عن «التطبير» هي دعوة ينبغي لرافضي التطبير ـ وأنا منهم ـ أن يتبنوها ويروّجوا لها ويشجّعوا عليها.

ثانياً: إنّ حركة الإصلاح لا تبتعد عن الحكمة في الطرح والمواجهة، فالمصلح الذي يبتعد عن الحكمة ولا يتسلح بالبصيرة ولا العدّة المعرفية الكافية سيبقى مجرد ظاهرة صوتية يصرخ ويرتجل وينفعل ويقول كل ما يدور في ذهنه من أفكار فيما يتصل بهوامش الأمور وتفاصيلها، وشخص كهذا قد يكون من الظلم إدراجه في عداد المصلحين. إنّ الإنسان الحكيم الذي يروم الإصلاح عليه أن يخطط جيداً وأن يستخدم أفضل الأساليب التي تقنع الآخرين بفكره، ولا يكتفي المصلح أبداً بإطلاق الشعارات الرّنانة حتى لو صفّق لها الكثيرون، وقد يغري هذا التصفيق البعض فيعيش حالة من الزهو وهو يرى صدى مقولاته يتردد عبر وسائل الإعلام. المصلح من يتدبر مسبقاً في وقع كلماته وصدى مواقفه على الأمة ومدى تأثيرها سلباً أو إيجاباً على حركته الإصلاحية، وبالأحرى أن لا يدخل المصلح في معارك هامشية حول بعض سفاسف الأمور.

ومن هنا فإنّ ما كان يسميّه بعض الأعلام (رحمه الله) بأسلوب الصدمة في عمليّة الإصلاح لا يعني إطلاقاً ـ كما قد يخيّل للبعض ـ تناول قضايا الفكر والفقه والعقيدة والشعائر والطقوس ذات التجذر الاجتماعي باستخفاف أو استهزاء أو بطريقة سطحيّة مرتجلة بعيدةٍ كل البعد عن التأصيل الفكري والفقهي.

ثالثاً: إنّ الذي يقود عملية الإصلاح لا يمكن أن يعتمد منهجاً مستورداً من خارج البيئة الفكرية والحضارية للمجتمع والأمة التي ينتمي إليها، فضلاً عن أن يكون هو نفسه آتياً على ظهر دبابات المستكبرين والظالمين، وإنّما الذي يقود العمليّة الإصلاحيّة هم أشخاص مخلصون من نسيج تلك البيئة، عاشوا هموم الأمة وآلامها، فهؤلاء سيكون لهم مشروعيّة في دعواتهم الإصلاحية، وهؤلاء بسبب خروجهم من رَحِمِ المجتمع وتماسهم مع همومه وقضاياه سيدركون أكثر من غيرهم كوامن الخللِ ونقاط القوة فيه، وسوف يعملون بكل إخلاص لأجل التغيير المنشود..

رابعاً: ولا يقود عملية الإصلاح أيضاً المترفون والمنظرون من الأعالي وأولئك الذين يعيشون في البروج العاجية أو يسكنون «فنادق خمسة نجوم». وطبيعي جداً أنّ الإصلاح لا يأتي بمرسوم سلطاني أو ملكي، ولا يقوده الفاسدون، فما لم يكن الشخص صالحاً في نفسه مخلصاً في دعوته فلن يتسنى له أن يقود عمليّة الإصلاح، ففاقد الشيء لا يعطيه. صحيح أنّه ليس كل صالح يكون مصلحاً، ولكن لا يمكن أن تكون مصلحاً إن لم تكن صالحاً في نفسك.

خامساً: آسف للقول: إنّ تاريخ الحركة الإصلاحية يشير إلى أنّ الإصلاح بمعناه الشامل لم تقده المرجعية الدينية التقليدية أيضاً إلا في حالات نادرة جداً واستثنائية، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّ هذه المرجعية لم تجد وظيفتها الأساس في قيادة عملية الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، وإنما وجدت

أولويتها في حفظ الدين ولا سيما فيما يتصل باستنباط الحكم الشرعي وبيان الفتوى للمكلفين، ولهذا رأينا أن الذين قادوا عمليّة الإصلاح هم الفقهاء والعلماء الحركيون الرساليون المتفاعلون مع العصر والذين يعيشون وسط الميدان، ويعملون بكل صدق وإخلاص على بثّ روح الوعي والأمل في الأمة ونشر الثقافة النقدية بين أبنائها، ولسنا نعوّل اليوم إلا على هؤلاء في رفع مستوى الوعي في الأمة وبناء جيل حركي مثقف يقود عملية التغيير ويفرض نفسه على الجميع.

وأعتقد أنّ على المصلح أن لا يقتصر على إعداد نخبة واعية تؤمن بمشروعه الإصلاحي، بل عليه أن يعمل في موازاة ذلك على الاندماج الحركي والاجتماعي مع القاعدة الجماهيرية العريضة في الأمة، لأنّها الحاضنة لأي مشروع إصلاحي.

٢ ـ هدي القرآن في مواجهة الفساد

والأمر الثاني الذي علينا أن نتطرّق إليه في سياق الحديث عن الحركة الإصلاحية هو أن نتعرّف على الهدي القرآنيّ في مواجهة الفساد والمفسدين، لنسير على ضوئه في هذا المجال، ومعلوم أنّ الفساد سواء على الصعيد الأخلاقيّ أو السياسيّ أو الاجتماعيّ أو الاقتصاديّ هو أمّ الآفات وسبب دمار المجتمعات، ومؤشّر على انهيار الحضارات ومؤذن باستبدال الأمم بغيرها، ولا يمكن لأمّة أن تنهض ما دام الفساد ينخر في عظمها ويستشري في جسمها.

وفي مواجهة الفساد فإنّ الإسلام أعدّ برنامجاً واضحاً وبيناً، وأكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاثة عناصر أساسية في هذا المنهج:

أولاً: في المسؤولية

إنّ القرآن الكريم واضح في تحميل الإنسانِ وحده مسؤوليّة الفساد في هذه الحياة، ولا يحقّ لهذا الإنسان أن يتنصّل من هذه المسؤولية ويلقي باللائمة على القضاء والقدر ـ مثلاً ـ كما يفعل الكثيرون عندما تطالبهم بأخطائهم في محاولة

بائسة منهم للتهرُّب من مسؤولياتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

ثانياً: في الأسباب

لا يخفى على الإنسان البصير أنّ السبب الرئيس لكلّ فساد في هذا العالم هو في انحراف الإنسان عن دوره في نظام الخلافة الإلهية، هذا الدور الذي يفرض عليه ـ باعتباره خليفة الله على الأرض ـ أن يعمل في ضوء ما يريده المستخلِف وهو الله تعالى منه، وما يريده الله منه هو العمل على إعمار الأرض والحياة عمراناً روحياً ومعنوياً وأخلاقياً واجتماعياً ومادياً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]، ولكنّ الإنسان انحرف عن هذا الخطّ انحرافاً بيناً عندما اجتاحته الثقافة الماديّة الاستهلاكية التي عملت على «تغويله» (تحويله إلى غول) وتفريغه من الروح وتجريده من كلّ القيم والأخلاقيات.

ثالثاً: في العلاج

والفساد تارة يكون مقتصراً على الأفراد قلّوا أم كثروا، مع كون النظام غير فاسد، وأخرى يكون النظام الحاكم على المجتمع نظاماً فاسداً، ولا شك أنّ مواجهة النوع الأول من الفساد هي أسهل بكثير من مواجهة النوع الثاني، لأنّ الفساد من النوع الثاني ليس ناتجاً عن مجرّد انحرافات يقوم بها الأفراد، وإنّما هو نتاج نظام فاسد وثقافة منحرفة، لهذا ففي مواجهة فساد من هذا النوع لا يكفي العمل على إسقاط الفاسدين وتعريتهم، على أهمية ذلك وضرورته، لأنّه ـ ومع كون النظام فاسداً ـ فسوف يَخْلِفُهم أشخاص آخرون وربّما كانوا أشدّ فساداً منهم، فلا بدّ إذن لكلّ من يروم الإصلاح أن يعمل بكلّ إخلاص لإسقاط النظام الفاسد الذي لا ينتج إلا الفاسدين.

ولهذا نقول لكلّ الشباب الغاضبين على زعمائهم وحكوماتهم في العالم

العربي والإسلامي: تعالوا وبدل أن نحدّق بالأشخاص ونلعنهم، لنحدّق في النظام ونعمل على إسقاطه أو إصلاحه.

ومن أبشع أنظمة الفساد في بلادنا العربية نظام المحاصصة الطائفية والمذهبية والذي لا يسمح لأحدٍ في هذه البلدان بالعبور إلى وطنه أو أن يحتلّ المكانة اللّائقة به إلا من بوابة المذاهب وأمرائها.

ومع الأسف، فإنّ مشكلتنا أننا نتصرّف بانفعال ودون تخطيط أو تدبّر للعواقب، ولذا ترانا ننفّس غضبنا من أنظمتنا الفاسدة، إمّا بإحراق الدواليب في الشوارع وتلويث البيئة وقطع طريق المارة وإيذائهم، وإمّا برجم الزعماء وكَيْلِ الشتائم لهم، ومن ثم نُعيد إنتاجهم في أول فرصة انتخابية، لأنّهم يُحسنون ويُتقنون فنّ استثارة عصبياتنا المذهبية على بوابة الانتخابات أو في الكثير من المنعطفات.

وهذا مؤشر على أنّ المشكلة في النظام أكثر ممّا هي في الأشخاص، بل إنّ بعض الأشخاص في السلطة والإدارة ربّما كانوا صالحين في أنفسهم لكنّ انخراطهم في نظام فاسد سيدفعهم من حيث لا يشعرون إلى السقوط في فخّ الفساد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾[البقرة: ١١ ـ ١٢].

إنّ واجب الأمة بكافة شرائحها أن تعمل على إسقاط نظام الفساد، ولا مانع أن تكون البداية بالتمرد على الفاسدين الذين يشكّلون عائقاً أمام التغيير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾[الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢].

ولعلّ أخطر أنظمة الفساد التي لا بدّ من مواجهتها هي أنظمة الفساد السياسي الذي يتمّ تغطيته بلبوس «القداسة الدينية المزيّفة»، والحال أنّها ليست سوى عصبيّات مقيتة نتنة، ومن هنا لا بدّ من فضح هذا الزيف ومواجهة هذا التحالف

المشبوه بين «فقهاء السلطة» و«سلاطين الدنيا»، أو قُلْ بين السلطتَين السياسية والدّينية، فهنا مكمن الفساد وأصله، في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**صنفان من أمتي إذا صَلُحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي**، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: **الفقهاء والأمراء**»[١].

(١) الخصال للصدوق ص ٣٧.

٣

عملية النهوض: مقدمات وشروط

إنّ عملية النهوض حتى لو انطلقت على أسسٍ صحيحة وركائز سليمة ـ ممّا سلف الحديث عنه ـ بيد أنّها قد لا تتكلّل بالنجاحٍ، لعدم توفّر الشروط الملائمة للنهوض، ولهذا يكون لزاماً علينا أن نسعى إلى تهيئة الأرضية الملائمة وإعداد الشروط الضرورية وأن نُحسن اختيار الفرصة المناسبة لذلك واستغلالها بشكل جيد، وهذه النقطة نخصصها لبيان أهمّ الشروط والمقدمات الضرورية لنجاح هذه العملية، وسوف أشير فيما يلي إلى ثلاثة شروط أخال أنّ لها أهميّتها الخاصّة في نجاح عملية النهوض:

الشرط الأول: حُسن إدارة الوقت واستثماره(١)

إنّ من أهم شروط نهوض الأمم وتقدّمها، هو شعورها وإدراكها بأهمّية الزمن، وحسن إدارتها للوقت. وإنّ مقارنة سريعة على هذا الصعيد، بين حال أمتنا وبين بعض الشعوب المتطورة، ستكشف أنّ أمتنا هي من أكثر الأمم والشعوب تضييعاً وهدراً للأوقات. وحيث إنّ الشباب هم طليعة التغيير، فإذا لم يدركوا قيمة الوقت ويحسنوا إدارته واستثماره، فلن يكتب لهم ولهذه الأمّة النّجاح كما هو المرجوّ والمأمول.

(١) هذا العنوان هو في الأساس جزء من محاضرة ألقيت في اليوم الأول من شهر رمضان من العام ١٤٣٤هـ في مسجد الإمام الرضا عليه السلام في بئر العبد ـ بيروت، وأضفت عليه بعض النقاط والتوضيحات.

وطبيعيّ أنّ المعروف عن الشّباب ميله إلى اللّهو واللّعب، وأُنسه بالمرح والفرح، ورغبته في السمر والسهر. والتوجه إلى هذه الأمور ـ ما دام الشاب متحرّزاً عن فعل الحرام ـ لا ضير فيه، بل ربّما شكّل ذلك حاجة للشباب وفرصة له، ليجدّد نشاطه وحيويته كما سنشير إلى ذلك في المحور السّابع. إلا أنّ المشكلة تبدأ عندما يتجاوز الإنسان حدّ الاعتدال في اللّعب واللّهو، بحيث يُسرف في هدر الوقت وتضييع شبابه في الفراغ والبطالة، الأمر الذي يدفعنا للحديث عن قيمة الزمن في الإسلام، وكيفية إدارة الوقت واستثماره.

١ ـ قيمة الزمن

في البدء، لا بدّ لنا أن نبيّن قيمة الزمن في التصوّر الإسلاميّ، فالزمان ـ كما نعلم ـ هو ظرف ووعاء لحركة الأحداث والكائنات، وهو متكوّن من أجزاء: ثوان، دقائق، ساعات، أيّام، أسابيع، شهور، سنين، عقود، قرون.. وهو حركة مستمرّة في دورانها، لا تهمل ولا تمهل أحداً، فهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وهو أيضاً لا يتكرّر أبداً ولا يعود إلى الوراء. من هنا ندرك قيمة الزمن وحاجتنا إليه. إنّ الزمان بحسب التصوّر القرآني هو:

١) آية من آيات الله، كما أنّ اختلاف الزمن ـ ليل نهار ـ هو آية أيضاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢]، وفي آية أخرى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[يونس: ٦٧].

٢) وهو نعمة عظيمة وجليلة، ولأنّه كذلك فقد أقسم الله تعالى به في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم، فقال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[العصر: ١ ـ ٢]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[الشمس: ٣ ـ ٤].

وإذا كان الزمن آية ونعمة فهذا يُحَمِّلُنا مسؤولية، فمسؤولية الآية تفرض علينا التأمّل والتدبّر فيها وفي أسرارها ودقائقها، ومسؤولية النعمة تفرض علينا أن نستغلّها ونستثمرها، ولكن كيف نستثمرها؟

٢ ـ استثمار الوقت

إنّ بعض الناس لا يُحسنون استثمار أموالهم وإدارتها، وهذا ما يُؤدي إلى ضياع المال وخسارته، ومَنْ كان كذلك قد يُعدّ سفيهاً ويحجر عليه شرعاً، بمعنى منعه من التصرّف في أمواله. ولكنّ الكثيرين من الناس لا يحسنون إدارة أوقاتهم وليس أموالهم فحسب، وهذا النوع من السّفه تكون عاقبته وخيمة للغاية. والغريب أنّ هذا الأمر يشكّل ظاهرة عامة ولا سيما في أوساط الشباب، فكأنّنا متمرسون في الهدر، فكما نهدر المال نهدر الأعمار، وهدر العمر أخطر بكثير من هدر المال، فالمال يمكن تعويضه لكنّ الأعمار لا يمكن تعويضها، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «**ما أسرع الساعات في اليوم وما أسرع اليوم في الشهور وما أسرع الشهور في السنين وما أسرع السنين في العمر**»[(١)].

وإذا لم نحسن استثمار الوقت واستغلاله، فإنّنا سنُسأل يوم القيامة عنه، وقد مرّ في الحديث النبوي: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن حبنا أهل البيت**».

٣ ـ الفراغ مفسدة الشباب

وإنّ من لم يُحسن استثمار وقته وقع في حبال الفراغ، والفراغ مفسدة للإنسان ولا سيّما الجيل الشاب، وهو آفة خطيرة، فهو منبتٌ خصب للجريمة والرذيلة

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام) ج ١ ص ٧٨.

والإدمان على العادات السيئة، وهو سبب لانتشار الأمراض النفسيّة والخلقيّة، إلى غير ذلك من الآثار السلبية والعواقب الوخيمة التي يتركها الفراغ على الفرد وعلى المجتمع، يقول الشاعر:

إنّ الشباب والفراغ والجِدهْ   مفسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسَدَهْ[1].

وفي الدراسة الموضوعية لأسباب انتشار ظاهرة الفراغ في أوساط الشباب، نستطيع أن نذكر عدة أسباب:

أ ـ إنّ الفراغ هو حصيلة أو نتيجة مباشرة للمجتمع الصناعي الذي بالغ في الاعتماد على الآلة في عمليات الإنتاج بدل اليد العاملة، ما جعل المجتمعات تضجّ بجيش من العاطلين عن العمل الذين لم يجدوا فرصة مناسبة للعمل.

ب ـ أضف إلى ذلك سبباً آخر، وهو نمط العيش في بعض البلدان المرفّهة، وهو قائم على ثقافة مادية استهلاكيّة، وهو الذي يوفّر للكثير من الشباب مصادر سهلة للعيش دون حاجة إلى الكدّ والعمل، وكلّ ذلك على حساب أناس آخرين يعيشون الجوع والفقر المدقع، وقد تمّ تصدير هذا النمط في العيش والسلوك إلى معظم شعوب العالم.

٦ ـ كما أنّ السياسات الاقتصادية غير المتوازنة للكثير من الدول شكّلت سبباً ثالثاً لمشكلة البطالة والفراغ. ومن هنا، فإنّ الكثير من الشباب العاطل عن العمل، والذي يعيش فراغاً قاتلاً، بحاجة إلى إعادة تأهيل وتوجيه وتدريب لدمجهم في المجتمع، وهذا ما لا تهتمّ به، لا المؤسسات الحكومية، ولا منظّمات المجتمع الأهلي.

من الطبيعيّ، أنّ محط النظر ليس إلى الفراغ البنّاء الذي يملأه الشخص

(١) ينسب هذا الشعر لأبي العتاهية، انظر: الأغاني ج ٤ ص ٢٧٢، والجدَة بمعنى الغنى.

ببعض الأنشطة الترفيهية، والسياحية أو الرياضية، فهذا ليس فراغاً في الحقيقة، أو لنقلْ ليس فراغاً مذموماً؛ لأنّه ينطلق من تخطيط وتنظيم واعٍ لأوقاتنا، وإنّما محلّ الكلام هو في الفراغ المنطلق من حالة كسل أو تكاسل أو إحباط وتشاؤم، ممّا يدفع الشخص لتمضية أوقاته «كيفما كان»، وهذا أمر لم تألفه مجتمعاتنا في سالف الزمان. فقد كان معظم الشباب منخرطاً في العلم أو في العمل، وعرف عن بعض العلماء أنّهم كانوا عندما يتعبون من الدراسة العلمية الجادّة يتّخذون لأنفسهم أسباباً للأُنس، أو يقرأون بعض الكتب التي تشتمل على بعض اللّطائف، وما يمكن تسميتها بـ«المنوّعات» الثقافية والأدبية واللّغوية، وغيرها من اللّطائف المضحكة والمثقِّفة في الوقت عينه، والتي وضعوا لها كُتباً خاصة من قبيل كتب «الكشكول»، وكانوا يسمّون ذلك بـ«التحصيل في أيام التعطيل».

وتجدر الإشارة، إلى أنّ الفوضى في حياتنا، وفي إدارة أوقاتنا وتنظيمها، لا تَقِلّ ضرراً عن الفراغ، في كونها تشكل هدراً للوقت وضياعاً للعمر.

٤ ـ البرنامج الأمثل

ولك أن تسأل: ما هو البرنامج الأمثل لاستثمار الوقت، وملء الفراغ؟

والجواب: إنّ الإنسان الناجح هو الذي ينظّم حياته ووقته بطريقة فاعلة وبنّاءة، ويملأ أيامه وساعاته بما ينفعه ويُغني حياته وتجربته. فالخطوة الأولى هي تنظيم أوقاتنا على ضوء حاجتنا، ومتطلّباتنا الروحية والجسدية، والأُسرية والاجتماعية. وقد أرشدت الأحاديث الشريفة إلى تقسيم الوقت تقسيماً ثلاثياً، بما يصلح أساساً ومنطلقاً لعملية تنظيم الوقت، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يرمّ معاشه، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمل. وليس للعاقل أن يكون**

شاخصاً إلا في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذّة في غير محرم»[1].

بيان: يرمّ: يُصلح، والمرمّة : الإصلاح.

إنّ اعتماد برنامج منظَّم ومدروس، سيُبقي الإنسان في حالة تصاعد وتقدّم نحو الأفضل، سواء على الصعيد العلمي، أو الأخلاقي أو الروحي أو الاجتماعي.. ومن الخطأ الفادح أن تتساوى أيامنا، فعن إمامنا الصادق عليه السلام: «**من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلى النقصان أقرب، ومن كان إلى النقصان أقرب فالموت خير له من الحياة**»[2]. وهناك ما هو أسوأ من تساوي اليومَين، ألا وهو أن يكون غدنا أسوأ من يومنا، ومستقبلنا أسوأ من حاضرنا، أي أن نكون في حالة تراجع وتردٍّ روحي أو علمي وأخلاقي، «**من كان غدُه شرَّ يوميه فهو محروم**»[3]، ومن كان في نقص فالموت خير له.

وإذا وضعنا هذه القاعدة في حسباننا، فأعتقد أنّه ليس ثمّة برنامج عمليّ يمكن اعتماده في سبيل الحفاظ على وتيرة من العمل المرضي لله تعالى، كذاك البرنامج الذي وضعه لنا الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه المعروف عند الصباح والمساء، يقول عليه السلام: «**اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد ووفّقنا في يومنا هذا وليلتنا هذه وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير وهجران الشرّ وشكر النّعم واتّباع السُّنن ومجانبة البدع والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وحياطة الإسلام وانتقاص الباطل وإذلاله ونصرة الحقّ وإعزازه وإرشاد الضالّ ومعاونة الضعيف وإدراك اللّهيف**»[4].

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٩٣.

(٢) معاني الأخبار ص ٣٤٢.

(٣) كما في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: معاني الأخبار ص ١٩٨.

(٤) الصحيفة السجادية، من دعائه في الصباح والمساء.

إنّ كلّ فقرة من فقرات هذا الدّعاء، تمثّل خطوة في برنامج إدارة الوقت، وهي كما نلاحظ تجمع بين البعد الاجتماعي والإنساني والبعد الروحي والأخلاقي، ولا بأس بأن نُلقي نظرة سريعة تطوف بنا في رحاب هذه الفقرات الرائعة من هذا الدعاء الذي يُفترض أن نجعله وِرْدَنا في الصباح والمساء، حيث نلاحظ أنّه وفي مستهلّ المقطع المذكور وبعد الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار يتطلّع الداعي إلى الله طالباً منه التوفيق والسداد في جميع أيامه ولياليه، للأمور التالية فعلاً أو تركاً:

أ ـ «**استعمال الخير**»، بمعنى العمل به، والخير هو كلّ عمل صالح، من عبادة خالصة لله تعالى، أو نشاط اجتماعي تساعد به عيالك وتسعدهم، أو تخفّف فيه معاناة إنسان.. وستأتي في الفقرات اللّاحقة بعض أبرز وجوه الخير، وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد سُئل عن الخير: «**لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ ووَلَدُكَ، ولَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ وأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللَّه وإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللَّه، ولَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ، رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، ورَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ..**»[1]. وعنه عليه السلام: «**افْعَلُوا الْخَيْرَ ولَا تَحْقِرُوا مِنْه شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَه كَبِيرٌ وقَلِيلَه كَثِيرٌ، ولَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ واللَّه كَذَلِكَ، إِنَّ لِلْخَيْرِ والشَّرِّ أَهْلًا فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوه مِنْهُمَا كَفَاكُمُوه أَهْلُه**»[2].

ب ـ «**وهجران الشرّ**»، بمعنى رفضه وتركه، والشرّ هو كلّ قبيح ومحرّم، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**والشرّ جامع لمساوي العيوب**»[3].

---

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٢١.

(٢) االمصدر نفسه ج ٤ ص ٩٩.

(٣) انظر: شرح النهج لابن ميثم البحراني، ج ٥ ص ٤٢٦، وكذلك في بحار الأنوار ج ٦٦ ص ٤١١، ولكن في الكافي: «الشره جامع ..»، انظر: الكافي ج ٨ ص ١٩، وهكذا في عيون الحكم والمواعظ ص ٤٥، وفي النهج: «البخل جامع ..» انظر: نهج البلاغة ج ٤ ص ٩٠.

ت ـ «**وشكر النّعم**»، ونعم الله تعالى على العباد لا تعدّ ولا تحصى، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن، وشكرها يكون بأداء حقّها. ويرى بعض العلماء الأجلاء أنّ «الشكر عملٌ يتعلَّقُ بالقلب واللّسان والجوارح. فشكر النِّعم بالقلب: القصد إلى تعظيمه تعالى وتمجيده وتحميده عليها، والتفكّر في آثار لطفه بإيصالها ونحو ذلك. وباللّسان: إظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد والتهليل والتسبيح. وبالجوارح: استعمالها في طاعته وعبادته، والاحتراز من الاستعانة بها في معصيته ومخالفته»(١).

ث ـ «**واتّباع السّنن**»، واتّباعها بالاقتداء بها والعمل بها، والسُّنن: «جمع سُنّة، وهي لغة: الطريقة، وتطلق شرعاً على الأحاديث المرويّة عنه صلَّى الله عليه وآله، وعلى الطريقة النبويّة وهي ما سنّه النبيّ صلَّى الله عليه وآله، أي: شرعه، من مفروض أو مندوب وغير ذلك.. وقد تُطلق السُّنّة على ما يتعلَّق به الوجوب، وعليه قول أبي جعفر عليه السلام: «**كلّ من تعدّى السُّنّة ردّ إلى السُّنّة**»(٢)، وقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه(٣): «**السنّة سنّتان: سنّة في فريضة، الأخذ بها هدى وتركها ضلالة، وسنّة في غير فريضة، الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيرها خطيئة**»(٤).

ج ـ «**ومجانبة البدع**»، أي الابتعاد عنها، والبدعة هي كلّ أمر أحدثه الإنسان ـ زيادةً أو نقيصة ـ في الدين بما لم يأذن به الله ولم يقم عليه الدليل، وأمّا إذا كان الأمر المبتدع والمحدث ممّا لا علاقة له بالدين فهو ليس بدعة محرّمة ولا مبغوضة لله تعالى ولا سيّما إذا كان فيه نفع للإنسانية، فلا يجوز أن نخلط بين الإبداع والابتداع، فالإبداع هو أمر ضروريّ ولا غِنى عنه لتقدّم الأمم، وأما

(١) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام ج ٢ ص ٢٦١.
(٢) الكافي ج ١ ص ٧٧.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٧١.
(٤) رياض السالكين ج ٢ص ٢٦٢.

الابتداع وهو التصرّف في الدين زيادة ونقصاً فهو المحرم والمبغوض، وعليه يحمل قول النبي ﷺ ممّا ورد في الحديث: «**كلّ بِدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار**»(١).

ح ـ «**والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»، والمعروف هو كلّ ما أمر الله تعالى به ممّا فيه مصلحة العباد، أمّا المنكر فهو كلّ ما أبغضه الله تعالى ممّا فيه مفسدة العباد، وفريضة الأمر بالمعروف هي الفريضة التي تشكّل سياجاً لحماية الأخلاق الفاضلة وحصناً من تسرّب رذائل الأخلاق، وقد قلنا في بعض المحاضرات: إنّ أهمية هذه الفريضة تكمن في أنّها تحاصر الانحراف وتساهم في نشر الخير وتمهّد لبقاء الشريعة الإسلامية واستمراريتها حية وفاعلة في وجه كلّ محاولات التشويه والتضليل أو الخروج عليها، ولا نبالغ بالقول: إنّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الضامن لإقامة سائر الفرائض الإسلاميّة، إذ كيف ستبقى فريضة الصلاة وتستمرّ إقامتها إن لم نأمر بها باعتبارها عنوان المعروف؟! وكيف نحاصر شرب الخمر إن لم نَنْهَ عنه باعتباره رأس الخبائث وأم المنكرات؟! ومن هنا جاء في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام التعبير عنها بأنّها أمّ الفرائض، وأنّه لا تقام الفرائض إلاّ بها، يقول الإمام الباقر عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب وتحلّ المكاسب وتردّ المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر**»(٢).

وأرى لزاما عليّ هنا ـ ولو أنّي خرجت عن التعليق المختصر على فقرات الدعاء المذكور ـ أن أنبّه إلى أنّه قد دَخَلَتْ علينا بعضُ المفاهيم القلقة التي ساعدت في ترويج المنكر وأوصلَتْ الأمور إلى حدّ أن يصبح المعروف منكراً

(١) الكافي ج ١ ص٥٧.
(٢) وسائل الشيعة ج١٦ ص١١٩ ح٦ ب١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما.

والمنكر معروفاً، ومن جملة هذه المفاهيم التي تنتشر بين الشباب: مفهوم «الحرية الشخصيّة» للفرد والتي تسمح له أن يفعل ما يريد ما دام لا يعتدي على الآخرين، وليس من حقّنا ـ وفقاً لهذا المفهوم ـ الاعتراض عليه، وإنّما الذي يحق له أن يحاسبه ويعاقبه هو الله تعالى يوم القيامة فيما لو ارتكب ما يخالف الشرع، أمّا نحن فلا دخل لنا في الأمر ولا يحقّ لنا الاعتراض عليه.

وهذا الحديث البرّاق والمخادع لا نستطيع الموافقة عليه، لأنّ الكلام ليس في المنكر الذي يرتكبه الإنسان في داخل بيته، حتى يقال: إنّه لا يحق لنا أن نقتحم عليه بيته وخصوصيّته ونفضح أسراره ونشهّر به، وإنّما الكلام في المنكر الذي يمارسه المرء في الهواء الطلق ويفعله أمام الرأي العام، وهنا يكون الأمر مختلفاً، إذ لا يحقّ لأحدٍ بذريعة الحريّة الشخصية أن يسيء إلى المنظومة الأخلاقية والقيميّة التي تحكم المجتمع، هذا ما يقرّره الإسلام، أرأيت إلى الشخص الذي يلوّث البيئة العامّة بالغازات الضارّة أو نحوها (كحرق الدواليب وإلقاء القمامة في الطرقات مع ما ينتج عنها من تلويث للفضاء العام) ألا يحقّ لنا أن نمنعه من ذلك، لأنّه يسيء إلينا ويعتدي على أمننا الصحيّ في تلويث البيئة التي نعيش فيها؟ بالطبع يحقّ لنا منعه من ذلك، وهذا لا يناقش فيه أحد، وهكذا الحال لو أنّ شخصاً كان يرفع صوت المذياع في بيته أو في الشارع فيؤذي جيرانه أو المارة، فإنّ لنا حقّ الاعتراض عليه ومنعه من إقلاق راحة الناس وإزعاجهم وهذا مما لا خلاف فيه أيضاً.

والحال عينه ينطبق ـ باعتقادنا ـ على الشخص الذي يمارس «المنكر الشرعيّ والأخلاقي» علناً وأمام الملأ، كما لو كان يمشي عارياً في الشارع، أو يرتكب ما يخدش الحياء العام، أو تمشي المرأة سافرة متبرّجة إلى حدّ التعرّي، فإنّ من حقّنا أن نعترض عليها لأنّها تلوّث أجواءنا الإيمانية وتسيء إلى الأمن الأخلاقي

للمجتمع، فتعرِّض أبناءنا وشبابنا للانحراف وتشجّع بسلوكها بناتنا على الاقتداء بها، وهكذا من يحتسي الخمر علناً وفي شوارع المسلمين، فإنّه بذلك يعتدي على خصوصيتهم الإيمانية ويستفزّ مشاعرهم الدينية التي تنظر إلى الخمر باعتباره أم الخبائث والمنكرات.

ر ـ «**وحياطة الإسلام**»، وحياطته تعني تعهدّه وحمايته وحراسته من المحاولات التي تعمل على تشويهه، سواء صدرت من قبل أعدائه، أو من بعض المتخلّفين من أتباعه، أو اللصوص الذين يتّجرون باسمه ويحملون عناوين برّاقة تنتسب إليه، وذلك بالعمل على إبراز وجه الإسلام الحقيقي والمشرق، مع اعتماد كافّة الأساليب المشروعة المرتكزة على المنطق والبرهان، ومع الاستعانة بكلّ وسائل الاتصال والتواصل الحديثة.

ز ـ «**وانتقاص الباطل وإذلاله**»، فالباطل بما يمثّله من خطرٍ على الإنسان وكرامته وانتهاكٍ للقيم الأخلاقية وتجاوزٍ لمنطق العدل والحقّ لاً مفرّ من العمل على انتقاصه وإذلاله ومواجهته بإظهار نقاط ضعفه وبيان خدعه وضلالاته، ومواجهته بشتّى الأساليب المشروعة، ليبقى ضعيفاً مهاناً ولا يجد صدى في النفوس الضعيفة ولا يخلق إرباكاً في واقع الأمة.

س ـ «**ونصرة الحقّ وإعزازه**»، ونصرته تكون بالكلمة المدافعة عنه، وبالموقف العمليّ المؤيّد له والمنخرط في مشروعه، أو بالوقوف إلى جانب أهل الحقّ وأنصاره وتأييدهم والدفاع عنهم، وأما إعزازه فيكون بإقامة حجّته وتشييد أركانه وإظهار حقانيته والتبشير به والدعوة إليه.

ش ـ «**وإرشاد الضال**»، والضالّ هو الإنسان الحائر التائه عن الطريق سواء كان طريقاً ماديّاً يوصل الشخص إلى منزل من منازله، أو طريقاً معنوياً يوصل الإنسان إلى الهداية والرشد، وإرشاده هو أن تدلّه على مقصده بكلّ لطف ورفق، سواء

وصل أم لم يصل، وإرشاد الضالّ من أفضل أعمال البرّ، ففيه إحياء للرّوح وإنقاذ للنفس وانتشالها من طريق الضلال والعمى إلى طريق الإيمان والهدى، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْه بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم إِلَى الْيَمَنِ وقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ لَا تُقَاتِلَنَّ أَحَداً حَتَّى تَدْعُوَه، وأيْمُ اللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّه عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ وغَرَبَتْ**»[1].
وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله تَعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾[المائدة: ٣٢]،؟ فقَالَ: «**مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى فَكَأَنَّمَا أَحْيَاهَا، ومَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ هُدًى إِلَى ضَلَالٍ فَقَدْ قَتَلَهَا**»[2].

ص ـ «**ومعاونة الضعيف**»، والضعيف هو الشخص الذي لا حيلة ولا قوّة تمكّنه من بلوغ حاجاته، أو لا قدرة له تمنعه من ردّ ظلم الآخرين، «فلا يقدر على الامتناع ممّن يريد ظلمه وهضمه، أو يريد به مكروها»[3]. ومعاونته هي مساعدته برفع الظلم والأذى عنه أو بتمكينه من بلوغ حاجاته، وهذا العمل هو من أفضل الصدقات المستحبّة، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عونك الضعيف من أفضل الصدقة**»[4].

ض ـ «**وإدراك اللّهيف**». اللّهيف أو الملهوف هو المضطر المستغيث، وإدراكه يكون بتلبية استغاثته. والتعبير «بإدراكه» مُشْعِرٌ بشدّة حاجته إلى من يقف إلى جانبه، وكأنّه لولا إغاثته لتعرّض للهلاك. وفي فضل إغاثة الملهوف وردت العديد من الروايات، منها: ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنّه كان يحبّ إغاثة اللّهفان**»[5].

(١) الكافي ج٥ ص٢٨.
(٢) الكافي ج ٢ ص ٢١٠.
(٣) رياض السالكين ج ٢ ص ٢٧٣.
(٤) الكافي ج ٥ ص ٥٥.
(٥) الكافي ج ٤ ص ٢٧.

ومنها ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب**»(١).

وحبّذا لو يضع كلٌّ منّا لنفسه جدولاً شهرياً أو سنوياً يتضمّن هذه العناوين، ومن ثم يعمل على إنجازها.

٥ ـ فرصة التدارك

في ضوء ما تقدّم، يجدر بنا أن نبادر إلى تصحيح المسار قبل فوات الأوان، فلا زال في العمر بقيّة، فإن لم نسارع فقد تضيع البقية. هبْ أنّك ضيّعت الكثير من عمرك، وبقي لك القليل، فلا تضيّعْ هذا القليل، فلا تزال أمامك فرصة للتدارك، وأن «تأتي مؤخراً خير من أن لا تأتي أبداً»، وإذا ضيّعت دنياك فلا تضيّعْ آخرتك، والعمل للآخرة يظلُّ بابه مفتوحاً إلى آخر العمر، وباب التوبة والعودة إلى الله مفتوح إلى آخر لحظة من هذه الحياة، شريطة أن لا يحضرنا الموت، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا * وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا**﴾[النساء: ١٧ ـ ١٨]، ولهذا فعلى الإنسان أن لا ييأس من إمكانية التغيير، وأن لا يسيطر عليه ماضيه فيسقطه. علينا أن نندم على ما ضيعنا من أعمارنا وأوقاتنا في الماضي ونتطلع إلى المستقبل، ونتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء: «**واجعل مستقبل أيّامي خيراً من ماضيها**».

أيها الشباب! عمركم هو رأسمالكم الثمين، وهو بين أيديكم فلا تضيّعوا فرصته، أمامكم متّسع للتفكير ومن ثم التغيير، والتفكير هو المدخل الطبيعي

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٧.

للتغيير، ولا بدّ أن يبدأ التغيير بالنفس. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ**﴾[الرعد: ١١]، فليكن لنا محطّة للتأمّل والمحاسبة، وعلينا أن نقوم بـ (جردة حساب) وأن نسأل أنفسنا: ماذا فعلنا فيما مضى؟ أين قصرنا؟ هل تقدّمنا في علم أو عمل أو دين؟ إنّ المحاسبة ضرورية كخطوة أساسية لا بدّ منها في عمليّة التغيير، «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن تُوزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر**»(١).

والمؤشر على نجاح عمليّة المحاسبة يكون بتقديرنا قيمة الوقت، واهتمامنا بما تبقّى لنا من عمر، العمر رصيد، تماماً كما هو الرصيد المالي. والفرق بين الرصيد المالي ورصيد العمر، أنّ رصيد المال يمكن أن يزيد كما يمكن أن ينقص، أما رصيد العمر فهو في نقصان دائم ومستمرّ، ولذا فإنّ الإنسان أكبر ما يكون وقت الولادة، لأنّ رصيده لا يزال بين يديه، ومن هنا كنتُ ـ ولا أزالُ ـ لا أتفاعل مع الاحتفاء والاحتفال فرحاً ولهواً بما يسمى مولد الأشخاص، فإنّ مضيّ سنة من أعمارنا ليست مدعاة للفرح بقدر ما هي مدعاة للتأمّل، فقد خسرنا سنة أو نقصت من عمرنا، فعلامَ نفرح؟!.

والمؤشّر الآخر على نجاح المحاسبة، هو أن تكون لنا إرادة وتصميم، ومجاهدة مستمرّة للنفس تدفعنا نحو الأفضل، وتحركنا باتجاه النّدم على ما مضى والتطلّع نحو المستقبل.

الشرط الثاني: فضاء الحرية

إنّ نجاح عمليّة النهوض والتحرّر، يحتاج ـ بالإضافة إلى ما تقدّم من تقدير لقيمة الوقت كوعاء لا بدّ منه في أداء مهمّتنا الرسالية والتحررية ـ إلى فضاء من

(١) مرت مصادر هذا الحديث في المحور الثاني فليراجع.

الحريّة السياسية والفكرية، والعلمية والإعلامية .. فمناخ الحريّة التي يتطلّع إليها كلُّ إنسان ولا سيّما الشباب، يشكّل أرضية خصبة للإبداع والتطوّر، ولأجل ذلك فقد خصّصنا هذه الفقرة للحديث عن مفهوم الحرية، فكيف نفهم الحرية؟ وكيف نمارسها؟

١ ـ قيمة الحرية

الحرية هي دون أدنى شكّ قيمة رائعة، ولسنا نبالغ إن قلنا: إنّها من أجمل القيم الإنسانية وأغلاها:

١ ـ فهي فطرة إنسانية فطر الله الناس عليها، فلدى كلٍّ منّا نزوع فطريّ نحو التحرّر ورفض العبودية والرّقّية والاستبداد.

٢ ـ وقيمة الحرية تساوي الإنسانية، وتضاهي الكرامة وتمنح الحياة معناها ومغزاها، هي روح الإنسان وهي الهواء الذي يتنفّسه.

٣ ـ هي سرّ الإبداع لديه، فالإنسان لا يمكن أن يكون مبدعاً وخلّاقاً إن لم يكن حرّاً، فالحريّة تؤمِّن فضاءً مناسباً للإبداع والابتكار، وتشكّل منطلقاً للتغيير.

٤ ـ والحريّة هي سرّ تمايز الإنسان، وهي التي جعلته أفضل من الملائكة. فحرية الإنسان في أن يتمرّد حتى على خالقه أو أن يطيعه ويعبده، هي التي ميّزته على الملائكة التي لا تعرف إلاّ الطاعة؛ لأنّ الملك مجبور على أن يطيع، بينما الإنسان يختار الطاعة عن وعي وإرادة، والله تعالى أرادنا أن نعبده من موقع الحرية والإرادة، لا من موقع الجبر والقسر.

٥ ـ إنّها مجمع الفضائل الإنسانية، لأنّ معنى أن تكون حرّاً، أن تكون عزيزاً أبيّاً شريفاً مقاوماً، كريم النفس، لا ترضى بالذلّ والهوان، ومن هنا كان شعار «**هيهات منّا الذلّة**» هو شعار الأحرار على مرّ التاريخ..

٢ ـ عبودية الله منطلق الحرية

وإننا نستمدّ روح الحريّة من الله تعالى، لأنّه واهب الحريّة، وهو يُحبّ الأحرار والشرفاء، وهو ملهمهم ومعينهم، وقد أراد للناس أن يظلّوا أحراراً كما خلقهم، فعن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أَمَة وأنّ الناس كلّهم أحرار، ولَكِنَّ اللَّه خَوَّلَ بَعْضَكُمْ بَعْضاً**»[١].

أجل، إنّ الله تعالى يريدك أن تكون عبداً له، وحرّاً أمام العالم، وعبوديتك لله لا تنافي تطلعك للحرية، بل إنّها تنمّي فيك إحساساً قويّاً بضرورة التحرّر من كلّ القيود، فمن رضي بعبودية الله، فهو يهين نفسه عندما يستعبدها لغير الله.

٣ ـ تعميق الحرية في النفوس

في ضوء ما تقدم، فإنّنا مسؤولون عن أن نبنيَ مجتمع الأحرار، ولن يتسنّى لنا ذلك إلاّ بتعميق قيمة الحرية في النفوس، وتأصيلها في واقع الإنسان وحركة حياته، انسجاماً مع فطرتنا وتطلعاتنا.

وبناء مجتمع الأحرار يفرض:

أولاً: أن نبدأ بأنفسنا لنحترمها ونكرّمها، فليس مسموحاً لك إهانة نفسك وإذلالها، قال الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ فيما روي عنه ـ: «**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً**»[٢]، أي إنّ الحرية تبدأ من داخل النفس الإنسانية، وإذا عشت الحرية في داخلك، فلا يمكن لأحد أن يهزمك أو يذلّك أو يستعبدك. فالاستبداد لا يمكن أن يُفرض عليك إن لم تكن لك قابلية لذلك، ولا شكّ أنّ من يعيش الحرية في داخله لا يمكن أن ينهزم، بل سيبقى حرّاً ولو أودع في السجون، فعن

(١) الكافي ج ٨ ص ٦٩.
(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٥١

الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ** (مصيبة) **صَبَرَ لَهَا وإِنْ تَدَاكَّتْ** (ازدحمت) **عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ وإِنْ أُسِرَ وقُهِرَ واسْتُبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْراً، كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ الأَمِينُ صلوات الله عليه لَمْ يَضْرُرْ حُرِّيَّتَه أَنِ اسْتُعْبِدَ وقُهِرَ وأُسِرَ**»[1].

ثانياً: علينا أن نربّيَ أبناءنا على ثقافة الحريّة، وننمّيَ فيهم الإحساس بقيمة الحريّة، ولا يحقّ لنا أبداً أن نذلّهم أو نهينهم، أو نقهر شخصيّتهم أو نصادر حريّتهم، وإلاّ سوف يكونون في المستقبل إمّا طغاةً مستكبرين وإمّا أذلاء خانعين. والشخصية الذليلة الخانعة لا يمكن أن تنال حرية واستقلالاً أو تواجه ظالماً أو مستعمراً أو محتلاًّ، يقول الشاعر:

مَـنْ يَهُـنْ يسـهلِ الهـوانُ عليه   مـــا لجـــرحٍ بميّـتٍ إيـلامُ

٤ ـ ثمن الحرية

والحريّة لا تُعطى ولا تُمنح من أحد، وإنّما تُنتزع انتزاعاً وتُؤخذ غلاباً، وهي لا تنال بالمجان، بل إنّ ثمنها ـ في الغالب ـ يكون باهظاً، وهو المعاناة والمكابدة وبذل التضحيات، وهذا ما يُعطي الحرية طعماً خاصاً وقيمة مضاعفة؛ لأنّ ما يناله الإنسان بالمجان، فإنّه لن يقدّر قيمته، وقد يضيعه بسهولة، بينما الشيء الذي يناله بعرق الجبين وبذلِ الدماء، فإنّه يحافظ عليه ويحميه بأشفار العيون.

إنّ الإنسان الحرّ يأبى المهانة وعيش المذلّة، وموت العزّة عنده خير من حياة الذّلّ، أليس هذا هو درس كربلاء؟ بلى إنّه درس الحرية والكرامة: «**هيهات منا الذّلة يأبى الله لنا ذلك ورسوُله والمؤمنون**»[2]، ولهذا فإنّ الحرّ يقف في وجه

(١) الكافي ج٢ ص ٨٩

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس ص ٥٩، وشرح النهج لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٢٥٠.

سياسات الاستعباد والاستكبار ولا يرضى المهانة ولو كلّفته حياته ونفسه، وهي أعزّ ما يملك[1].

٥ ـ الحريّة في مواجهة الغريزة

والحديث عن الحريّة في مواجهة المستكبرين والظالمين، الذين يعملون على استعباد الناس أو قهرهم أو ظلمهم، لا ينبغي أن ينسينا أن نكون أحراراً في مواجهة الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، فلا نخضع لشهواتنا عندما تدعونا إلى معصية الله تعالى، ولا ننقاد لغرائزنا التي تريد أن تستذلّنا وتسترقنا. فإنّ العبوديّة للشهوات والمطامع والغرائز، لا تقلّ هواناً عن العبودية للسلاطين والمستكبرين، فعن عليّ عليه السلام: «**عَبْدُ الشهوة أذلّ من عَبْدِ الرقّ**»[2]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يسترقنك الطمع وقد جعلك الله حرّاً**»[3]، بل إنّ الحريّة والعزّة في مواجهة الظالمين والمستكبرين، لا يصنعها إلاّ من كان حرّاً في مواجهة أطماعه ونفسه الأمّارة بالسّوء، والتي تدعوه إلى الدعة والسلامة، أو الجلوس على التلّ في مواقع الصراع والتحدّي.

٦ ـ الحرية والتحرير

وأخيراً، وعلى قاعدة قول الله تَعَالَىٰ: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[الضحى: ١١] يجمل ويجدر بنا أن ننوّه، بأنّ ما ننعم به اليوم من عزّة وكرامة بعد تحرير

---

(١) ومن جملة شهداء الحرية ذاك الشخص المسلم الذي اختار القتل على الإذلال والإقرار بالعبودية ليزيد بن معاوية، فقد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ يزيد بن معاوية دخل المدينة وهو يريد الحجّ فبعث إلى رجل من قريش فأتاه فقال له يزيد: أتقرّ لي أنك عبد لي، إن شئتُ بعتُك وإن شئتُ استرقيتك، فقال له الرجل: والله يا يزيد! ما أنت بأكرم منّي في قريش حسباً، ولا كان أبوك أفضل من أبي في الجاهليّة والإسلام، وما أنت بأفضل منّي في الدّين، ولا بخير منّي فكيف أُقرّ لك بما سألت؟ فقال له يزيد: إن لم تقرّ لي والله قتلتك، فقال له الرّجل: ليس قتلك إياي بأعظم من قتلك الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمر به فقُتل!»، انظر: الكافي ج ٨ ص ٢٣٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ٣٤١.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٢٨.

أرضنا المحتّلة في لبنان[1] وبعد انتصار حرب تموز (٢٠٠٦م) لم ننله بالمجّان، بل كان ثمنه دماً عزيزاً لآلاف الشباب وتضحيات جسام من معاناة أسير إلى أنين طفل إلى وجع شيخ إلى دموع أمٍّ ثكلى.. ولهذا كان لِزاماً علينا أن نحفظ نعمة الحرية هذه، وأن لا نسمح لأحدٍ بأن يعيدنا إلى زمن الاحتلال والمعاناة، أو يُدخلنا نفق الاحتراب المذهبيّ، أو يجعلنا نفقد البوصلة الصحيحة التي تؤشّر إلى فلسطين وتنبّهُنا إلى أنّ عدونا الأساس هم المحتلون الغاصبون. إنّ الاحتراب المذهبي سيُفقدنا طعمَ الحرية، بل أخشى أن يعيدنا إلى زمن الاحتلال والعبودية؛ لأنّه سيهيّئ الفرصة الذهبية لعدوّنا بأن يعاود الإمساك بأرضنا، وأن يذلّ إنساننا. وإذا فُرِضَت علينا معركة هنا أو هناك، فلا يجوز أن يدفعنا ذلك إلى تغيير مبادئنا وقناعتنا، وبوصلتنا وقِبلتنا.

لهذا إذا أردنا أن نحميَ حريّتنا وعزّتنا وكرامتنا، فعلينا في هذه المرحلة الحساسة من تاريخنا (مرحلة الفتنة الداخلية) أن نتحلّى بالوعي والحكمة، وأن لا ننجرّ إلى الانفعال وأن لا تستفزنا العصبيّات، ولا سيّما العصبيات المذهبية التي تسلب الإنسان إنسانيّته، وتحولّه إلى أسوأ من الوحش المفترس!

الشرط الثالث: إيقاظ البصيرة ومحاصرة الغوغاء

والشرط الثالث لنهوض الأمّة هو ارتفاع مستوى الوعي لدى أبنائها، وهذا لن يتحقّق إلا بالعمل الدؤوب للقضاء على حالة الأميّة والجهل المستشرية فيها، والوقوف بوجه سياسة التضليل والتجهيل، فإنّ الجهل هو موئل للخرافة، والأميّة تمثّل أرضاً خصبة للاستغلال من قِبل أصحاب المطامع، حيث يعمل

(١) ليسمح لنا القارئ غير اللبناني بذكر هذه المناسبة الثمينة، ولا سيما أنّ هذا المقطع من الكلام المتصل بالحرية، هو في الأساس محاضرة كان المخاطبَ بها جمعٌ من اللبنانيين وعن معاني التحرير ودلالاته يمكن للقارئ مراجعة الملحق رقم (١) في آخر الكتاب.

هؤلاء على الإفادة من هذه الأجواء لتمرير مشاريعهم وبثّ إشاعاتهم ودعاياتهم المغرضة، ويسعون ـ أي أصحاب المطامع من أعداء الأمة ـ في سبيل تحريك الأفراد الجاهلين والمعدمين وتحويلهم إلى جماعة غوغائية تعرقل نهوض الأمة، بما تسببه من أعمال مخلّة بالنظام العام ومسيئة إلى أمن الناس، وقد لاحظنا أنّ الكثير من المشاريع الإصلاحية أو الجهود التحررية قد تمّ إجهاضها عندما أثيرت الغوغاء في وجهها، وأغرب ما نواجهه في هذا المجال هو أن ينخرط الجيل الشاب في أجواء الغوغاء، ويتحوّل إلى مجرّد أدوات رخيصة في صراع المصالح الكبرى!

ولهذا يكون العمل على محاصرة ظاهرة الغوغاء أو تفكيكها عملاً ضرورياً وهامّاً في طريق النهوض والتحرّر، فمن هم الغوغاء؟ وما هي مخاطرهم؟ وكيف نفكّك هذه الظاهرة؟

١ ـ الغوغاء: المفهوم والمخاطر

إنّ مردّ استخدامنا لمصطلح الغوغاء يعود إلى كونه مصطلحاً معبّراً عن واقع حال هذه الجماعة، وهو أيضاً مرويٌّ عن أمير المؤمنين عليه السلام، والذي حدّد لنا بشكل جليّ كيفية التعامل معهم، كما سيأتي.

والغوغاء هم «أوباش الناس يجتمعون على غير ترتيب ويتسرّعون إلى ارتكاب الشر دون رويّة».

قال ابن الأثير: «أصل الغوغاء: الجراد حين يخفّ للطيران، ثمّ استعير للسفلة من الناس والمتسرّعين إلى الشر، يجوز أن يكون من الغوغاء: الصوت والجلبة، لكثرة لغطهم وصياحهم»[١].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ج٣ ص٣٩٦.

وهذه الفئة قلّ أن يخلو منها مجتمع من المجتمعات البشرية، وذلك بحسب ثقافة أبناء المجتمع وتمدّنهم، أو جهلهم وتخلّفهم، فكلّما ارتفعت حالة الوعي في المجتمع قلّ هؤلاء، والعكس بالعكس.

وأهمّ ما يتّصف به الغوغاء هو الجهل، فهؤلاء «**لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق**»، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام[1]، وهذا مكمن الخطر والداء، فبسبب جهلهم سوف يكونون ـ كما قلنا ـ قابلين للاستثمار والتوظيف من قبل أعداء الأمة وغيرهم من أصحاب المطامع والمصالح، ولا غرو أن يتمّ توظيف الغوغاء أحياناً أو غالباً في المشاريع السياسية المتضادّة والمتقابلة، فتارة يؤخذون إلى أقصى اليمين، وأخرى إلى أقصى اليسار، فهم كما وصفهم عليّ عليه السلام: «**أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح**»[2].

٢ ـ الغوغاء وافتقاد الميزان

والواقع أنّ السرّ وراء هذا الضياع والتخبّط لدى هؤلاء يكمن فيما هو أعمق من مجرّد حالة الجهل المتفشّي فيهم، إنّه كامن في افتقادهم الميزان القويم الذي ينظّم التفكير ويضبط السلوك، والميزان هو العقل المتبصّر، ومن الطبيعيّ أنّ افتقاد هذا الميزان أو ضعفه غالباً ما يكون ناشئاً عن حالة الجهل والأميّة، ومن يفتقد الميزان والبصيرة النافذة هو شخص أعمى، وهذا سيترك بصماته عليه ويتبدّى ذلك من خلال الآثار التالية:

أ ـ إنّ الغرائز هي التي سوف تقود وتسيّر شخصاً كهذا، ولن يتحرّك بوحي العقل أو هدي الوحي، والإنسان الذي تحرّكه الغرائز سيكون ما يفسده أكثر ممّا يصلحه.

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٣٦.
(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٣٦.

ب ـ سيكون وقوداً سهلاً للفتنة، فالغوغاء ينساقون بسهولة مع أجواء الفتنة، لأنّ الفتن في بداياتها غالباً ما تُشَبِّه الأمر على الإنسان، كما قال عليّ عليه السلام: «**إنّ الفتن إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت نبهت**»(١)، ولذا يسقط هؤلاء في الفتنة ويكونون وقودها قبل أن يكتشفوا خطأهم لاحقاً ويندموا حيث لا ينفع الندم. ومن هنا كانت هذه الفئة هي التي وقفت وخُطّط لها لكي تقف في وجه الأنبياء عليهم السلام وكلّ الدعوات الإصلاحية، في الحديث عن الإمام الهادي عليه السلام: «**الغوغاء قتلة الأنبياء**»(٢).

ت ـ ونراه مستهيناً بعظائم الأمور ومعظّماً لصغائرها، فهو يثير المعارك على هوامش الأمور وتوافهها، ولكنّه لا يهتمّ للفواجع الكبيرة ولا تحرِّك فيه ساكناً! وهذا ما حصل مع الخوارج، حيث نُقل عنهم أنّهم قد ثارت ثائرتهم ذات يوم لأنّ أحد أصحابهم تناول حبّة تمر وقعت من نخلة لبعض الناس، فأكلها دون أن يستأذن من صاحبها، لكن لم يمضِ سويعات على هذه الحادثة حتى أقدموا بدم بارد على ذبح رجل مسلم وهو عبد الله ابن الصحابي الجليل خبّاب بن الأرت الأزدي ودون أن يرفّ لهم جفن أو تذرف لهم دمعة، لا لشيء سوى أنّه لم يرَ رأيهم(٣).

وهكذا وجدنا أنّ جمعاً من أهل الكوفة بعد أن شاركوا في قتل الإمام الحسين عليه السلام، أو رضوا بذلك، أو سكتوا عليه إذا بهم يسألون وبإلحاح عن حكم من قتل بعوضة أو ذبابة في حالة الإحرام! فما كان من أحد الصحابة إلا أن خاطبهم قائلاً: «تسألونني عن قتل الذباب وقد قتلتم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!»(٤).

---

(١) نهج البلاغة ج١ ص١٨٣.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص ٦١٣، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار البغدادي ج ٤ ص ١٤١، ويروى هذا الكلام عن الإمام الرضا عليه السلام انظر: الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم للمشغري العاملي ص ٦٩١، والعدد القوية للشيخ علي بن يوسف الحلي ص ٢٠٤.

(٣) انظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام ج٢ ص١٠.

(٤) انظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام ج٢ ص٢٢٠.

٣ ـ محاصرة الغوغاء ومواجهتهم

كيف نواجه ظاهرة الغوغاء ونتعامل معها؟

أعتقد أننا إذا أردنا أن نواجه ظاهرة الغوغاء فليس من الصحيح الوقوف المباشر في وجهها ولا سيّما في حالات غليانهم، فهذا لن يجديَ نفعاً، بل سيدفعهم إلى ارتكاب الحماقات، وإنّما الأسلوب الأنجع في المواجهة يكون باعتماد الحلّين التاليين:

أولاً: الحلّ الظرفيّ

بالحؤول دون اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فيجدر بنا السعي إلى تفريقهم، لأنّ في تفريقهم المنفعة وفي اجتماعهم المضرّة، فإذا اجتمعوا أفسدوا وحرّكتهم غرائزهم، وإذا تفرّقوا انصرفوا إلى أعمالهم، عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد سئل عن الغوغاء؟ قال: «**هم الذين إذا اجتمعوا ضرّوا، وإذا تفرّقوا نفعوا، قالوا قد عرفنا مضرّة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنسّاج إلى منسجه، والخبّاز إلى مخبزه**»[١].

إنّ اجتماع هؤلاء، له مفاسدُ ومضارٌّ كثيرة، وأخطرها أنّ ذلك يكون مقدمة لتشكّل ما يسمى بالعقل الجمعي الذي يسلب الفرد تفكيره وعقله ويتحكّم بسلوكه، وبكلمة أخرى: إنّ اجتماع الجهلة والسفهاء هو الذي يشكّل حالة الغوغاء، بما يجعل الواحد منهم ينقاد مع غيره دون بصيرة ودون الرجوع إلى أهل العقل والمشورة. وإنّ الإنسان يندفع في وسط الجوّ الغوغائيّ ويمارس ـ أحياناً ـ أفعالاً لا تليق به، ولو أنّك قمتَ بتصويره وأريته نفسه بعد ذلك وهو في حالة خلوة أو صفاء لتعجّب من أفعاله وممارساته! إنّ الإنسان يفقد التركيز

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٤٦.

والقدرة على التفكير في وسط المعمعة وصخب الغوغاء، ومن هنا كانت الدعوة القرآنية إلى المشركين أن لا يحكموا على صدق النبيّ ﷺ في حالة الصخب والضوضاء أو تحت تأثير العقل الجمعي، بل ليخلو كلّ واحد منهم مع نفسه أو مع شخص آخر، ثم يتأمّل فيما جاء به النبيّ ﷺ، وهل هو سِحر فعلاً أم هو الحقّ المبين؟ قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** ﴾[سبأ: ٤٦].

ثانياً: الحل الجذري

ويتمثّل ببثّ حالة الوعي في الأمة، والعمل على ترشيدها وتحصينها بالعقل والعلم، لأنّه كلّما اتسعت مساحة الوعي خفّت حالة السّذاجة وتقلّصت دائرة الجهل، إنّ مسؤوليتنا هي أن نسعى للانفراد بهؤلاء وإثارة مكامن الوعي فيهم، وأن نتحرّك في ضوء برنامج تربويّ تعليمي يهدف إلى توعية أبناء الأمة وبلورة الميزان القويم لديهم، لأنّ من يمتلك الميزان لا يُخشى عليه، والميزان ـ كما قلنا ـ هو البصيرة، فما هي البصيرة؟ وكيف يمتلكها الإنسان؟ وهذا ما نوضحه فيما يلي:

٤ ـ البصيرة ومصادرها

من مِنن الله وألطافه بنا أنّه زوّدنا بجملة من الحواس التي نستعين بها على قضاء حوائجنا وبلوغ مقاصدنا والتزوّد بالمعارف والمعلومات، فالحواس أداة للمعرفة ووسائل لخدمة الإنسان، بيد أنّ هذه الأعضاء قد تخطئ في التشخيص، فكانت بحاجة إلى إمام يقودها وقائد يحرّكها، والقائد هو العقل أو البصيرة، ولكن البصيرة أيضاً مع أنّها إمام الحواس قد تُصاب بالعمى وتلك الطامة الكبرى، فإن تعطّلت الحواس فتلك خسارة للإنسان دون شك، لكنّها خسارة يمكن التعويض عنها، أمّا خسارة العقل أو خسارة البصيرة فإنّها تُسقطُ إنسانية الإنسان، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ﴾[الحج: ٤٦]،

ولذا فالإنسان ببصيرته النافذة، وفقدُ البصيرةُ يوقع المرء في المتاعب ويوجب الخذلان.

يُحكى أنّ عقيل بن أبي طالب دخل على معاوية ذات يوم فقال له معاوية: «إنّكم تصابون في أبصاركم، فأجابه عقيل على البداهة: ولكنّكم تصابون في بصائركم!»[1].

ما هو مصدر البصيرة؟

ولكن كيف للإنسان أن يحفظ بصيرته من التلوّث ومن الإصابة بمرض العمى؟

إنّ الأساس في امتلاك الإنسان لبصيرة نافذة لا تخونه ولا تخدعه هو في صدقه مع نفسه وفي خشيته من ربّه، وفي صفاء فطرته.

والخطوة الأولى على هذا الصعيد: هي التفكّر والتدبّر في آيات الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ﴾[الحج: ٤٦]. وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنّما البصير من سمع فتفكّر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر ثم سلك جَدَداً واضحاً يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي. ولا يُعين على نفسه الغواة..**»[2]. فالإنسان البصير هو الذي يُبصر نفسَه ويراقبُها، ويُقلعُ عن عيوبه، عن الإمام عليّ عليه السلام: «**أبصر الناس من أبصرَ عيوبه وأقلع عن ذنوبه**»[3].

(١) المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف ج١ ص١١٠، والصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم ج٣ ص٤٩، وفي رواية أخرى أنّ هذه الحادثة جرت مع عبد الله بن عباس، انظر: المعارف لابن قتيبة الدينوري ص٥٨٩، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري ج٥ ص٣٧.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص٤٢. والجدد: الطريق الواضح، والصرعة هنا بمعنى السقوط.

(٣) عيون الحكم والمواعظ ص ١٢٠.

والخطوة الثانية: هي الأخذ بالعقل كحُجّة أساسية لله تعالى على العباد، فالعقل يحفظ الإنسان من عمى البصيرة، شريطة أن نستنصح العقل ونطلب منه المشورة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليست الرؤية كالمعاينة مع الأبصار. فقد تكذب العيون أهلها ولا يغشُّ العقلُ مَنِ استنصحه**»(١).

وبالإضافة إلى العقل، فإنّ ثمّة مصدراً آخر يساعد الأخذ به على استقامة البصيرة ونفاذها وهو الاستعانة بهداية الوحي، ومن هنا جاء وصف القرآن الكريم بأنّه يمثّل بصائر للناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[الجاثية: ٢٠]، وهكذا وصفت التوراة التي بعث بها موسى عليه السلام بهذا الوصف: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[القصص: ٤٣].

٥ ـ القائد والبصيرة

ولا بدّ أن يتحلّى القائد ببصيرة نافذة، تجعله يمتلك رؤية واضحة للأمور والقضايا الاجتماعية والسياسية، فالسّاذج لا يصلح لقيادة المسلمين ولا إدارة شؤونهم وأمورهم حتى لو امتلك العلم والفقاهة، فالعلم ليس كافياً ليؤهّل الشخص لموقع قيادة الأمة، بل لا بدّ أن يمتلك ـ بالإضافة إلى العلم والفقه ـ بصيرة نافذة، ولذا فلا تغترّوا ـ أيّها الشباب ـ بالمظاهر الاستعراضية لدى بعض الشخصيات التي تدّعي الزعامة والقيادة، ولا يخدعنّكم صراخ الزعيم وانفعالاته، بل فتشوا عن شجاعته وعقله وحكمته، قَالَ تَعَالَىٰ في شأن النبيّ الأكرم: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾[يوسف: ١٠٨]، فالآية المباركة تأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقدّم نفسه ومشروعه للأمة بكلّ شفافية ويبيّن للناس أهدافه، ويوضح لهم من خلال سلوكه

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٦٨.

أنّه على بصيرة من أمره وعالم بحاله ومآله.

وعندما يكون القائد على بصيرة من أمره فإنّه سيعطي الناس من حوله ثقة به وبقيادته، فلا يسلمونه عند النكبات ولا يتخلّون عن مشروعه في الصعاب. وإنّ بصيرة القائد من المفترض أن تمتدّ إلى أصحابه، فلاحظ قوله تعالى: ﴿ **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي** ﴾[يوسف: ١٠٨]. وقد ذكرت العديد من الروايات الواردة في تفسير هذه الآية أنّ المقصود بقوله: ﴿ **وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي** ﴾ هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهذا من التفسير بالمصداق، لأنّ الإمام علياً عليه السلام هو المصداق الأبرز لمن تبع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان يمتلك بصيرة نافذة وعزماً لا يلين، وبصيرته عليه السلام هذه نرصدها ويرصدها كلّ باحث منصف، وكانت حاضرة لديه منذ سني عمره الأولى، عندما اتّبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان أول القوم إسلاماً، وهكذا كانت هذه البصيرة حاضرة لديه في مرحلة الشباب، فضلاً عن سائر مراحله العمرية.

٦ ـ الإمام عليّ عليه السلام صاحب البصيرة النافذة

وحيث إنّ الإمام علياً عليه السلام هو قدوة لكلّ شاب مسلم أو هكذا ينبغي أن يكون، فلا بأس بأن نتوسع قليلاً في ذكر بعض مواقفه عليه السلام التي تدلّل على نفاذ بصيرته التي كانت حاضرة في كلّ المحطّات أو المطبّات التاريخية التي واجهته:

أولاً: لقد بلغ نفاذ بصيرته عليه السلام وإيمانه بالرسالة الإسلامية حدّاً لا يسأل عن مصيره الشخصيّ إذا ما أرسله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو كلّفه بمَهمّة معينة، إذِ المهمّ عنده أن يسلم الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيوم الهجرة، وعندما عَرَضَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليه فكرة المبيت على الفراش كان جوابه: «**أوَ تسلم بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟! قال: نعم**. فتبسّم عليّ عليه السلام ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لله»[١].

(١) الأمالي للطوسي ص٤٦٥.

ويوم أخبره النبيّ ﷺ أنّه سيَلقى بعده عنتاً وظلماً، ما كان همّه أن يسأل عن هذا الظلم أو عن الأشخاص الذين يظلمونه، وإنّما سألَ رسولَ الله ﷺ: «**في سلامة من ديني؟** فقال ﷺ: **في سلامة من دينك**»[1].

ثانياً: وبصيرته هي التي جعلته لا ينخدع بالكثير من العروض المريبة، ومن أخبثها العرض الذي تلقّاه غداة وفاة النبيّ ﷺ وإقصائه عليه السلام عن حقّه، فقد جاءه يومها أبو سفيان عارضاً عليه الرجال والسّلاح، قائلاً: أما والله لئن شئتم لأملأنّها عليهم خيلاً ورَجِلاً! فناداه عليّ عليه السلام: «**ارجع يا أبا سفيان، فوالله ما تريد الله بما تقول، وما زلت تكيدُ الإسلام وأهله**»[2].

ثالثاً: وهكذا كانت بصيرته هي التي حمت الإسلام وحفظت وحدة الأمّة من التمزّق، وذلك عندما رفض أن يحمل السّيف ليقاتل من أجل المطالبة بحقّه، بل كان بعد ذلك إيجابياً مع الآخرين فساعد وشارك في درء المخاطر التي تهدّد الكيان الإسلاميّ برمته، كما جرى في حروب الرِّدة ـ مثلاً ـ حيث يقول: « **فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَه، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ، قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ** ﷺ، **فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلَامَ وأَهْلَه، أَنْ أَرَى فِيه ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِه عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وزَهَقَ، واطْمَأَنَّ الدِّينُ وتَنَهْنَه**»[3].

إنّ المأساة الحقيقية والمحنة الأليمة التي تواجه الأمّة هي عندما يتمُّ إقصاء أصحاب البصائر وذوي العقول الحكيمة والآراء السديدة ولا تُسمع لهم كلمة،

(١) كشف الغمة للأربلي ج١ ص٩٦.
(٢) الإرشاد للمفيد ج١ ص١٩٠.
(٣) نهج البلاغة ج٣ ص١١٩.

ولا يؤخذ برأيهم، وفي المقابل يتقدّم إلى الساحة الغوغاء الذين لا يتحركون عن بصيرة بل عن عمى وجهل وعصبية، ولا ريب أنّ أكبر متضرّر في هذه الحال هو الأمّة، كما أنّ ضررهم على الدّين أشدّ وأبلغ، لأنّهم في الغالب يحملون شعارات الدين وعناوينه. وإنّ معاناة عليّ عليه السلام وغربته الحقيقية كانت مع هذه الفئة، وهم من أسماهم «بالجّهال المتنسكين»(١).

٧ ـ توازن الشخصيّة

وحديث البصيرة هذا يطلّ بنا على أمر وثيق الصّلة بذلك، ألا وهو اعتناء الإسلام وتأكيده في وصاياه وإرشاداته على تربية الإنسان المسلم تربية دينيّة وأخلاقيّة خاصّة تجعل منه شخصيّة متوازنة، بعيدةً كلّ البعد عن الإفراط والتفريط في العاطفة والفكر والسلوك، فتوازن المسلم واستقرار صحّته النفسيّة هو هدف أساسيّ يتطلّع التشريع الإسلامي إليه، لأنّ ذلك يمثّل أساساً لا غنى عنه في نجاح الإنسان في مهمة الاستخلاف على الأرض، فالأشخاص الأسوياء عقلياً ونفسياً هم المؤهلون لعمارة الأرض وحمل الأمانة الإلهية التي عجزت السماوات والأرض عن حملها، ومن هنا جاء الرفض التشريعيّ الحاسم للاعتناء بالوساوس التي تعتري الإنسان المسلم في أمر الصلاة والطهارة، وقد استخدمت الروايات تعابير مختلفة لمكافحة هذه الوساوس، ومن أبرز هذه التعابير البالغة الدلالة: القول للإنسان الذي يصرّ على إعادة الوضوء أو الصلاة تحت تأثير الوسوسة: إنّك بإعادتك للصلاة أو الوضوء لا تقترب من الله تعالى ولست تطيعه بذلك، وإنّما أنت تطيع الشيطان، ففي الحديث عن عَبْدِ اللَّه بْنِ سِنَانٍ قَالَ ذَكَرْتُ لأَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام رَجُلاً مُبْتَلًى بِالْوُضُوءِ والصَّلَاةِ وقُلْتُ: هُوَ رَجُلٌ عَاقِلٌ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه: **وأَيُّ عَقْلٍ لَه وهُوَ يُطِيعُ الشَّيْطَانَ!** فَقُلْتُ لَه: وكَيْفَ يُطِيعُ الشَّيْطَانَ؟!

(١) فقد روي عنه عليه السلام أنّه قال: «**ما قصم ظهري إلا رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك، هذا ينفر عن حقه بهتكه وهذا يدعو إلى باطله بنسكه**»، انظر: معدن الجواهر للكراجكي ص ٢٦، وعيون الحكم والمواعظ ص ٤٧٩.

فَقَالَ: سَلْه هَذَا الَّذِي يَأْتِيه مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ، فَإِنَّه يَقُولُ لَكَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[1].

وتأمل معي بدقّة في قوله عليه السلام: «**وأَيُّ عَقْلٍ لَه وهُوَ يُطِيعُ الشَّيْطَانَ!**»، فإنّه كلام ينطق بالحقّ ولو كان مرّاً، وكأنّه عليه السلام يريد القول: إنّ للعاقل علامات، ومن علاماته أن لا يسترسل مع الوساوس، ولا ينقاد للشيطان، وحقّاً فإنّ هذه الوساوس تُفضي إلى تحقيق غايات الشيطان، وهي عزوف الإنسان في نهاية المطاف عن عبادة ربّه، كما نلاحظ ذلك في بعض الأشخاص المبتلين بالوسواس، حيث إنّ الصلاة تغدو عبئاً ثقيلاً يؤرّقه ويقلقهُ، وكلّما اقترب وقتها شعر المبتلى بالوسوسة بالهمّ يحاصره، بما يفضي في نهاية المطاف إلى ترك العبادة، وهذا ما يريده الشيطان.

والمغزى الأكثر دلالة الذي تضمّنته هذه الرواية ونظائرها هو حرص التشريع الإسلاميّ وعنايته بصحّة الإنسان المسلم النفسيّة واعتباره ذلك أولوية تتقدّم حتى على احتياطه في أمر العبادة، فالاحتياط الذي يعمّق المشكلة النفسية لدى الإنسان هو احتياط غير مطلوب ولا مرغوب فيه، فإنّ الله تعالى يريدنا أن نعبده ونحن في حالة من الصحوة العقلية والتوازن النفسيّ، لا أن نعبده في حالة اهتزاز الشخصيّة، بما يجعل المسلم العابد إنساناً معقداً نفسياً، وقد يقترب به اختلال التوازن إلى حدّ الجنون، وقد وعى بعض الفقهاء[2] أهميّة هذا الأمر، وهذا ما

(١) الكافي ج ١ ص ١٢.

(٢) وهو السيد الخميني رحمه الله فقد سئل عن الرأي الشرعي في امرأة تعاني من وسواس حاد يظهر عليها أثناء الوضوء والصلاة، بحيث إنها تنشغل عند الزوال بالوضوء استعداداً لصلاتي الظهر والعصر، ويحل أذان المغرب وهي لم تنتهِ بعد من هذين الفرضين! ثم تستعدّ لصلاتَي المغرب والعشاء فيحل منتصف الليل الشرعي وهي لا تزال منهمكة في أداء صلاة العشاء، وراجع زوجها الأطباء ولم يجد ذلك نفعاً، ما جعل حياة زوجها وعائلتها تتحول إلى جحيم لا يطاق؟ وكان جوابه عليه الرحمة والرضوان: «ينبغي أن تعطى هذه المرأة المهلة العادية التي يُنجز خلالها أي إنسان سوي فريضتي الوضوء والصلاة، فإذا تمكنت من إنجازهما خلال هذه الفترة كان به، أمّا إذا لم تتمكن من ذلك فيعتبر التكليف الشرعي ساقطاً عنها إلى اللحظة التي تتعافى فيها من هذه الحالة المرضية»، نقل الفتوى بحذافيرها أحد أعضاء مكتبه والملازمين له لسنوات طويلة، حجة الإسلام رحيميان، في كتابه «أنوار العروج ـ خواطر وذكريات عن حياة الإمام الخميني رحمه الله» ونشرتها مجلة (باسدار إسلام ، وطبعتها المستشارية الثقافية في سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت بتاريخ ١٤١١هـ ترجمة: علي شرف الدين ص ١١٧).

دفعه إلى إطلاق فتوى جريئة تنصّ على سقوط التكليف بالصلاة ومقدماتها في بعض حالات الوسواس القهريّ العالية الحساسية التي تجعل صاحبها منشغلاً في معظم وقته بالصلاة وإعادتها، أو بالوضوء وإعادته، أو بالطهارة من الخبث، بما يربك حياته وحياة أهله والمحيطين به ويحولّها إلى جحيم لا يطاق، وكم من حالةٍ مرضيّة من هذا القبيل أفضت إلى الطلاق أو إلى الانتحار أو ترك التديّن..

والحقيقة أنّ المتأمل في العديد من القواعد الشرعيّة المستقاة من الكتاب والسُّنة والتي تعالج حالات الشكّ لدى الإنسان المسلم سوف يكتشف أنّها قواعد تسهيلية، وهي تغلّب الجانب الذي يحفظ توازن الشخصية، وذلك من قبيل «قاعدة الطهارة»، التي تعدّ مرجعاً عند الشكّ في الطهارة والنجاسة، وفحواها: أنّ الأصل طهارة كلّ ما يشكّ في طهارته حتّى تُعلم نجاسته، أو «قاعدة الحلية» القاضية بحليّة ما يُشك في حرمته إلى أن تُعلم الحرمة أو يقوم عليها دليل، أو «قاعدة الفراغ» التي تقضي بالحكم بصحة العمل العبادي الذي يُشكّ في صحته بعد الفراغ منه، أو قاعدة: «لا شكّ لكثير الشك»، وهي القاعدة الخاصة بعلاج حالات الوسواس والشكّ الخارجة عن المألوف، إلى غير ذلك من القواعد التي تطرّقنا إليها في محلّ آخر[1].

ومن هنا فإنّ المفروض بالتربية الدينية أن تتماشى مع تلك النصوص والقواعد والفتاوى، فتعمل على انتشال المبتلى بالوسوسة من هذه الحالة المرضيّة، لا أن تفاقم المشكلة لديه من خلال اللّجوء إلى الأسلوب المتشدّد في الاحتياط، والذي يعقّد حياة الشخص العادي، فضلاً عمن هو مبتلى بحالة مرضيّة خاصة.

(١) راجع كتاب مفاهيم ومعتقدات بين الحقيقة والوهم ص١٩٨ وما بعدها.

٤

دور الشباب في عملية النهوض

ومن الضروريّ أن نطلّ في هذا المقام على الدور الذي لا بدّ أن يضطلع به الشباب في عمليّة الإصلاح والتغيير والنهوض، ولعلّ من العلامات الفارقة التي يرصدها المؤرخ والباحث هي أنّ كلّ الحركات التغييريّة الناجحة والتي غيّرت تاريخ العالم قد اعتمدت ولا تزال تعتمد على العناصر الشابة في حمل راية النهضة والتغيير بغية الوصول إلى غاياتها المنشودة، فالشباب هم المحرّك الأساسيّ للثورات. والسبب في ذلك واضح، فإنّ الشباب ـ كما أسلفنا في المحور الأول ـ يمتلك فطرة نقية غير ملوّثة وهمّة عالية وروحاً متوثبة، ويملك استعداداً عالياً للبذل دون مقابل ودون حدود.

ولو أننا تأمّلنا في انطلاقة الإسلام الأولى على يدي رسول الله ﷺ لوجدنا أنّ الشباب كانوا ركيزة الدعوة الإسلامية، وطليعة المنخرطين في حمل لوائها والتضحية في سبيلها، ولسنا نبالغ بالقول: إنّ الإسلام إنّما قام على أكتاف الشباب وجهودهم، وتضحياتهم الجسام في الدفاع عن التجربة الإسلامية الأولى، والتي لم يَرُقْ للمشركين وغيرهم أن يروها تشقّ طريقها بسلام، وتستقطب الناس ولا سيما الشباب، وتجتذبهم إليها كاجتذاب النور للفراشات المختلفة. فوقفوا ـ أعني المشركين ـ في وجهها وحاربوها، وآذوا النبيّ ﷺ وأخرجوه من دياره، ثم هاجموه وأغاروا عليه في المدينة، فاضطرّ للدفاع عن نفسه وعن الكيان الوليد

الذي يمثّله، وهنا برز دور الشباب المسلم أيضاً، في الدفاع عن نبيّهم ﷺ ودينهم وأنفسهم.

والنماذج الشبابية في تاريخنا الإسلاميّ والتي بذلت التضحيات الجسيمة في سبيل الدفاع عن الإسلام والذّود عنه وحمل رايته والتبشير به كثيرة جدّاً، ويمكن التعرّف عليها بسهولة لدى أدنى مراجعة لكتب التاريخ وتراجم الصحابة، ويكفينا أن تستذكر الدور الرياديّ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام في حماية الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ، لقد كان للإمام عليّ عليه السلام وهو في ريعان الشباب حضور بارز في كلّ المحطات المفصليّة التي مرّت بها الدعوة الإسلامية، وكان لشجاعته المعهودة الدور الحاسم في انتصارات الإسلام في شتّى المعارك، ويكفيه فخراً وعزاً ورفعة أنّه لما خرج لمنازلة عمرو بن ودّ العامريّ يوم الخندق قال النبيّ ﷺ في ذلك كلمته المشهورة: «**برز الايمان كلّه إلى الشرك كلّه**»[1].

وقد سبق وذكرنا صحابياً شاباً هو مصعب بن عمير الذي ترك حياة الترف واللهو وانخرط في المشروع الإسلاميّ تحت راية النبيّ الأكرم ﷺ، وهاجر إلى المدينة المنوّرة ليعلِّمَ أهلها القرآن الكريم ويفقههم في الدين، إلى غير ذلك من الأسماء الشبابية البارزة التي لعبت دوراً ريادياً في انطلاقة الحركة الإسلامية الأولى بقيادة النبيّ الأكرم ﷺ. وقد أشرنا سابقاً إلى بعض النماذج القرآنية الشبابية التي تشكّل قدوة للجيل الشاب على مرّ العصور، وسيوافيك في ثنايا الصفحات الآتية نماذج أخرى.

ولا يسعنا أن ننسى الدور الذي قام به الشباب في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وعلى رأسهم ولده عليّ الأكبر الذي قال لأبيه يوم الطفّ عندما سمعه يسترجع:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٩ ص ٦١، وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٣٨٧، وكنز الفوائد للكراجكي ١٣٧.

ألسنا على الحقّ؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**بلى، والذي إليه مرجع العباد**» فقال عليّ الأكبر: «فإنّنا إذا لا نبالي أن نموت محقّين»[1].

أحبتي الشباب..

إنّ الأمة تتطلع إليكم لحمل راية التغيير والإصلاح، فلا تركنوا إلى الدعة ولا تستسلموا لنداء الغريزة ولا تنشغلوا بالصغائر، بل تطلعوا ليس فقط إلى إصلاح أنفسكم بل إلى تغيير الواقع برمته وإصلاح المجتمع، ولا تسمحوا للمجتمع الذي دبّ فيه الوهن واستشرى الفساد في مفاصله أن يؤثّر فيكم أو يغرقكم في وحوله، بل اعملوا لتكونوا أنتم من يؤثّر فيه، ويترك بصماته البيضاء في سجلات التاريخ وصفحاته.

(١) الإرشاد للمفيد ج ٢ ص٨٢.

المحور الخامس

الشباب والغريزة الجنسية

أولاً: الغريزة في ضوء التصوّر الإسلامي

ثانياً: التشريع الإسلامي ومواجهة الرذيلة

ثالثاً: الشباب والغريزة الجنسية

رابعاً: الشذوذ الجنسي

خامساً: أسئلة حول الزواج والحبّ وملك اليمين والحور العين

إنّ موضوع الغريزة الجنسيّة هو من الموضوعات المهمّة والحسّاسة، فالغريزة ـ كما لا يخفى ـ لها حضورها القويّ وتأثيرها الكبير على حياة الناس عامةً، وجيل الشباب على وجه الخصوص. وهذا ما يحتّم علينا مقاربة هذه القضية بطريقة مسؤولة ومتوازنة، وبعيداً عن منطق التعمية والتعتيم، أو إحاطة المسألة بركام من الأسرار والألغاز. فهذا أسلوب فاشل ولم يعد يُجدي نفعاً، فلا بدّ من مقاربة المسألة بصراحة تامّة كما قاربتها النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسُّنة. وقد أعددنا هذا المحور لتناول بعض النقاط المهمّة المتعلّقة بالغريزة الجنسية، وهي خمس نقاط:

النقطة الأولى: نطلُّ فيها على دراسة موضوع الغريزة الجنسيّة على ضوء الرؤية الإسلاميّة العامة التي تحدِّدُ مهمّة الإنسان ووظيفته في هذه الحياة.

النقطة الثانية: ونتطّرق فيها إلى الإطار الذي وضعه التشريع الإسلامي لتنظيم حركة الغريزة الجنسيّة ومنع انفلاتها أو انطلاقها دون ضوابط أو قيود.

النقطة الثالثة: نخصّصها للحديث عن الحلول الشرعيّة والواقعية لمشكلة غليان الغريزة الجنسيّة عند الشباب.

النقطة الرابعة: ويدور الحديث فيها عن مشكلة الشذوذ الجنسي عند الجنسين، فنبحث عن أسباب هذه الظاهرة وكيفية علاجها، وعن سرّ الموقف الإسلامي

المتشدد في رفض هذه العلاقة الجنسيّة الشاذة.

النقطة الخامسة: ونجيب فيها على أسئلة متنوعة حول الحب والزواج، وملك اليمين، والحور العين.

وأُلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّي قد تطرّقت في كتاب «حقوق الطفل في الإسلام» إلى موضوع «التربية الجنسية» وموقف الإسلام منها، فليراجع.

١

الغريزة في ضوء التصوّر الإسلامي

إنّ موقف الإسلام من موضوع الغريزة الجنسية، لا يمكننا فهمه بشكل صحيح إلا في ضوء التصوّر الإسلامي العام إزاء فلسفة خلق الإنسان، ووظيفته في هذه الحياة. ففي هذا النطاق، يُطرح موضوع الغريزة، ويأتي السؤال والحديث عن دور الجسد وغرائزه، وهل جسد الإنسان هو شيء يمكن عزله عن الروح، وعن القوة العاقلة التي تميّز الإنسان وتُعدُّ قوامَ إنسانيته؟

١ ـ التكريم الإلهي ومجالاته

ليس خافياً أنّ فلسفة خلق الإنسان ـ وفقاً للرؤية القرآنية ـ هي إعداده للقيام بدور خلافة الله على الأرض، بما تعنيه الخلافة من عمارة الأرض والحياة الدنيا عمراناً روحيّاً وماديّاً. وهذه الخلافة هي التي استدعت تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾[الإسراء: ٧٠]. ومظاهر تكريم الله لنا تتجلّى في مظاهر عدة:

أ ـ فقد كرّمنا الله تعالى بجعل أرواحنا نفخةً من روحه، فلم يخلقنا من الطين فحسب، بل جعلنا مزيجاً مركّباً من المادة والروح، ونَفَخَ في جسد أبينا آدم روحاً من روحه، قال الله تَعَالَى: ﴿ **إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن**

رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[ص: ٧١ ـ ٧٢]. ولنتأمّل ملياً بقوله تعالى: ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ والتي جاءت خطاباً للملائكة متفرعاً على نفخ الروح، فهل هناك تكريم للإنسان أعظم من أن تؤمر الملائكة بالسجود له؟!

ب ـ وكرّمنا الله تعالى عندما خلقنا في أجمل هيئة وأبهى صورة، حتى ليصحّ القول: ليس بالإمكان أجمل وأبدع ممّا كان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين: ٤].

ج ـ وكرّمنا عندما أرسل من بيننا رسلاً وأنبياء عليهم السلام، ليحملوا إلينا دعوة السماء، والتي تحمل عنواناً أساسياً وهدفاً رئيسياً، وهو إحياؤنا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال: ٢٤] فدعوة الأنبياء عليهم السلام هي دعوة إحياء للإنسان، وعليه فإنّ أيّ قانون أو تشريع أو دعوة لا تستهدف إحياء الإنسان، فإنّها مرفوضة ولاغية ولا قيمة لها.

د ـ وكرّمنا الله تعالى عندما جعلنا خلفاءه في الأرض، وكلّفنا مهمّة إعمارها بالحبّ والرحمة والخير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[هود: ٦١].

٢ ـ الجسد وطن الروح

وإذا كان الإنسان قد اكتسب كلّ هذا التكريم من خالقه، فإنّ من يكرّمه الله لا يبقى بحاجة إلى أن يمنّ عليه أحد بالتكريم، والله سبحانه وتعالى إنّما كرّم الإنسان باعتباره إنساناً، وبصرف النظر عن لونه أو عِرقه أو دينه.

وكرامة الإنسان هذه لا يمكن تجزئتها وتفكيكها، فالتكريم هو للإنسان بما هو كائن يتألّف من الروح والجسد. وكرامة الإنسان وإن كانت ـ في العمق ـ تتّصل بروحه التي هي نفخة من روح الله تعالى، بيد أنّها ـ أي الكرامة ـ تمتدّ إلى

الجسد، لأنّه قميص الروح ، وبعبارة أخرى: إنّ كرامة الجسد تنطلق من أنّه غدا وطناً سكنته تلك الروح الإنسانية السامية التي هي نفخة من روح الله، وبالتالي فإنّ كرامة هذا الجسد هي من كرامة الروح، واحترام الجسد من احترام الإنسان، ولذلك منع الإسلام من الاعتداء على الجسد، فحرّم التمثيل والتنكيل به حتّى بعد الموت ومفارقة الروح له.

٣ ـ حقوق الجسد

ولا ريب أنّ الحديث عن كرامة الجسد الإنساني هو شيء جميل ويمتاز به الإسلام، لأنّنا نعتقد أنّ الجسد هو من أجمل وأثمن النِّعم والعطايا الإلهية، ونعم الله لا تُعدُّ ولا تُحصى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[إبراهيم: ٣٤]، بيد أنّ ما نرومه من هذا الحديث المسهب عن تكريم الجسد الإنساني هو:

أولاً: التأكيد على ضرورة احترام الجسد، وإعطائه حقوقه، والتشريع الإسلامي قد منح الجسد حقوقاً شتّى لكلّ أعضائه من العين إلى اليدين إلى الرجلين إلى السّمع والبصر واللّسان والفرج(١).. ومن أبرز هذه الحقوق التي تعكس احترام الجسد: حقّه في أن لا يُساء إليه ولا يُعتدى عليه، حتى من قِبل صاحب الجسد نفسه، فالإنسان منّا لا يملك جسده ليتصرّف فيه كما يحلو له، كأن يقطع عضواً من أعضائه، أو يشوّه جماله، كما يفعل بعض الناس، بل إنّ عليه الاهتمام بسلامة جسده، فلا يسمح للمرض أن يفتك به، وأن يهتمّ بنظافته وأناقته ونضارته وجماله، فالله جميل ويحبّ الجمال.

ثانياً: ضرورة أن يتقيّد الجسد ـ في تحريك الإنسان له من خلال حركة غرائزه ومشتهياته ـ بسقف التكريم الإلهيّ المذكور، فلا يُسمح للجسد أن يبتعد عن العقل أو ينفلت من عقال الروح، أو أن يتحرّك بطريقة غير مسؤولة أشبه ما تكون

(١) حول هذه الحقوق يمكن مراجعة رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام.

بتعامل الحيوانات مع نداء غريزتها، لأنّ كرامة الجسد لا يمكن أن نفهمها خارج نطاق الكرامة الإنسانيّة بعامّة.

٤ ـ مخاطر «تجسيد» الإنسان!

وفي ضوء هذا، فإنّ من الضروريّ التنبيه إلى مخاطر ما يمكن أن نسميّه عمليّة «تجسيد الإنسان»، بمعنى تحويله إلى جسد بحت، وكأنّه كائن لا عقل له ولا روح فيه، أو لا أخلاق له ولا قِيَمَ تحكمه. وإنّ هذا الاستغلال الفاضح والمهين لجسد الإنسان، ولا سيّما جسد الأنثى في وسائل الإعلام أو غيرها، لهو خير دليل على ما بلغته حالة التجسيد هذه.

وأعتقد أنّه عندما نفتّش عن السبب الذي أوصلنا إلى هذا الواقع المزري، فسوف نكتشف أنّ المشكلة لا تكمن في تجاوزات عابرة أو مجرّد ممارسات خاطئة، بل إنّها تكمن في ثقافة خاطئة ورؤية مشوّهة. إنّ المشكلة هي في سيطرة الثقافة الماديّة الاستهلاكية على العقول والنفوس، وهي ثقافة أخلّت بالتركيبة الإنسانية، وتلاعبت بالتوازن الذي فطرنا الله عليه وأودعه فينا، وهو التوزان القائم على ثنائيّة المادة والروح. فتمّ في ضوء هذه الثقافة المستوردة تغليب المادة على الروح، وعُمل على تسليع الإنسان وتشويه إنسانيته ومسخ روحه، وهكذا أخلد الإنسان ـ من خلال الثقافة المهيمنة اليوم ـ إلى الأرض والطين، وأبى أن يرتفع ويسمو إلى مستوى التكريم الإلهيّ الذي أراد له أن يكون أفضل من الملائكة.

٥ ـ «أنسنة» الجسد

ونقولها بصراحة، في مواجهة كلّ هذا الواقع المزيّف الذي يمتهن الإنسان، ويتاجر بجسده: إنّ المطلوب أن نعمل ثقافياً وتربوياً لنؤكّد على أنّ الإنسان ـ

ذَكراً كان أو أنثى ـ ليس جسداً بحتاً ، ليتمّ إطلاق العنان لغرائزه، الإنسان روح تتعانق مع الجسد، وجسد يسمو بسموّ الروح. وعندما نتعامل مع الإنسان على هذا الأساس، فلن يبقى وجود لهذا الامتهان الذي تتعرّض له الإنسانية، من خلال هذا المستوى من الاتجار الرخيص والهابط الذي يتعامل مع جسد المرأة كما يتعامل مع أيّة سلعة أخرى.

ثمّ لو أنّنا صرفنا النظر عن الالتزام بالقيم الدينيّة طبقاً لما يمليه علينا إيماننا بالله تعالى وكوننا خلفاءه على الأرض، واعتمدنا بدلاً عنها القيم الإنسانية كمعيار في تشخيص الحق من الباطل وتمييز ما ينبغي عما لا ينبغي، فإنّ هذه القيم تفرض علينا أن نؤنسن الجسد، وإنّما نؤنسن الجسد عندما نؤنسن عقولنا وثقافتنا.

وإنّ أنسنة الثقافة تفرض علينا العمل في الثقافة والتربية والإعلام والفنّ.. من أجل أن نعزّز القيم الإنسانية، وأن نبشّر بثقافة احترام الإنسان وحفظ كرامته، عندها لن يُسَاء إلى إنسانية المرأة بتقديمها باعتبارها سلعة لترويج المنتجات المختلفة، ولن يُسَاء إلى البراءة في عيون أطفالنا عندما يستخدمون لأغراضٍ رخيصة!

لا نريد بشيء ممّا قدّمناه أن نقيّد الحريّات الإعلاميّة، فمن الضروريّ أن يكون الإعلام حرّاً، ولكنّ الحريّة ـ كما تعلمون ـ لا تساوي الفوضى ولا تبرّر نشر الرذيلة، إنّنا نريد لإعلامنا أن يكون إعلاماً هادفاً وليس عابثاً، وأن يكون رسالياً وليس إعلاماً سوقياً[1].

(١) ملاحظة: إنّ ما تقدّم حول موضوع الجسد هو في الأصل عبارة عن محاضرة أُلقيت في جامعة الروح القدس ـ الكسليك، (لبنان) في ٢٤ آذار ٢٠١٢ م بدعوة من جمعية «من حقّي الحياة»، في ندوة تحمل عنوان «أنا كيان مش إعلان»، وقد أعربتُ في تلك الندوة عن أنّي أفضّل أن يكون عنوانها عوضاً عمّا تقدم: «أنا إنسان مش إعلان».

٦ ـ الغريزة ليست دنساً

وفي ضوء ما قدمناه، يغدو واضحاً أنّ الغريزة ـ باعتبارها من تجلِّيات حركة الجسد ـ في منطق الإسلام ليست دنساً، وإنّما هي طاقة خير، وهي المحفزّ لبقاء النسل الإنسانيّ، وليس في تحريكها وإشباعها ما يُعيب، بل لا يبتعد المسلم عن عبادة الله إذا حرّك الغريزة فيما يرضي الله تعالى، ويحقّق رغباته. إنّ الرجل الذي يشبع غريزة زوجته فإنّه له بذلك الأجر والثواب عند الله، في الوقت الذي نال فيه اللّذة المحلّلة، وهكذا الحال للمرأة التي تُشبع غريزة زوجها.

هذا ولكنّ المشرّع الإسلاميّ في الوقت الذي أكّد فيه على مشروعيّة الاستجابة لمتطلّبات الغريزة الجنسيّة، كما هو الحال في غيرها من الغرائز، كاشفاً بذلك عن واقعيّة تشريعيّة مميّزة راعت احتياجات الإنسان ومتطلباته المختلفة، بيد أنّه وإدراكاً منه لحقيقةِ أنّ للغرائز وعلى رأسها الغريزة الجنسيّة سطوةً معيّنةً، وربّما استعرت وطغت وتحكّمت بالإنسان وأفقدته توازنه وأخرجته عن طوره، كان لا بدّ من تنظيم شامل لموضوع الغريزة، وهو تنظيم متوازن يرفض الدعوات المنادية بإطلاق العنان لها، وفي الوقت عينه يرفض كبتَها، وقد ارتأى أن يكون الزواج هو الإطار الشرعي والواقعي الذي ينظّم حركة الغريزة، ويمنع من فوضى انطلاقها دون ضوابط أو قيود، ويشكّل ـ في الوقت نفسه ـ مظهر تكريم واحترام للإنسان ذكراً كان أو أنثى، وهذا ما سوف يتم توضيحه في الفقرة التالية.

٢

التشريع الإسلامي ومواجهة الرذيلة

وفي هذا الإطار التنظيميّ والتكريميّ، جاء تحريم الإسلام القاطع للزِّنا، والزِّنا هو كلّ صلة جنسية بين ذكر وأنثى لا تبتني على أساس العلاقة الزوجية التي ينظّمها عقد خاص ينظّم العلاقة بينهما، سواء كان الطرفان متزوّجَين أو أعزبَين أو أحدهما متزوّجاً والآخر أعزب. إلى جانب الاعتبار التنظيمي والتكريمي، فإنّ تحريم الإسلام للزِّنا له أسباب كثيرة، ويمكن اختصارها بجملة واحدة: وهي أنّ الزِّنا لا يمثّل امتهاناً لكرامة الإنسان فحسب، بل إنّه يمثّل مسّاً بالأمن الأخلاقيّ للمجتمع، ويعدّ مرتعاً خصباً للفساد والانحراف والرذيلة، وقد كُتبت العديد من الدراسات عن أضرار الزِّنا على الفرد والأسرة والمجتمع بشكل عام، ومن هذه المضار أنّه كثيراً ما يتسبّب بإنجاب أولاد غير شرعيّين، وهؤلاء غالباً ما يعيشون ظروفاً صعبة تجعلهم مرتعاً خصباً للجريمة والانحراف. وقد عاينّا وشاهدنا نماذج كثيرة من الأولاد غير الشرعيّين الذين يتخلّى عنهم آباؤهم الحقيقيون لعدم وجود ما يُلزمهم بتحمّل المسؤولية إزاءهم، ولأنّهم أقدموا على إقامة علاقة بهذه المرأة إشباعاً لنزوة جنسية عابرة.

إنّ إرواء الغريزة هو هدف مشروع، لكنّ الله تعالى أراد له أن يَتِمَّ من خلال طرق منظّمة، وعُمدتها الزواج الدائم الذي يضمن استقراراً فردياً وأسرياً، ويهيّئ ولادة الطفل ضمن أسرة تعرفه وتحتضنه وتقوم بواجب رعايته، قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: ٢١].

وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «**وحُرِّم الزِّنا لِما فيه من الفساد من قتل النفس، وذهاب الأنساب، وترك التربية للأطفال، وفساد المواريث، وما أشبه ذلك من وجوه الفساد**»(١).

وتَسْتَخْدِمُ بعض الرواياتُ أسلوباً بديعاً في النّهي عن الزّنا، وهو أسلوب استنفار الحسّ الأخلاقيّ لدى الإنسان، موحية له أنّه إذا لم يجتنب الزّنا لمنافاته لتعاليم الشريعة الغراء، فعليه اجتنابه لمنافاته لمكارم الأخلاق، فعن الإمام علي عليه السلام: «**ما زنى غيورٌ قط**»(٢).

وحيث كان للزِّنا هذه المفاسد الخلقيّة والاجتماعيّة، فإنّ التشريع الإسلامي شدّد النكير في تحريمه والنهي عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٢]، وهذه الآية المباركة عبّرت بكلمات مختصرة عن مساوئ الزنا ومضاره دون أن تفصِّل في بيانها، تاركة الأمر إلى تدبر الإنسان وما قد يكتشفه من هذه المضار مع مرور الزمن، ويلاحظ أنّ الآية لم تنهَ عن فعل الزِّنا فحسب، بل ونهت عن الاقتراب منه. وهذا أسلوب بلاغي اعتمده القرآن الكريم في العديد من الموارد، وهي الموارد التي يترتّب عليها فسادٌ كبيرٌ على الصعيد الأخلاقي أو الاجتماعي أو الاقتصادي من قبيل شرب الخمر أو أكل الرِّبا..

وعلى العموم، فإنّ ثمة قاعدة إسلامية مستفادة من الكتاب والسُّنة، وخلاصتها: أنّ الله تعالى إذا أحبّ شيئاً فتح كلّ الأبواب أمامه، وشجّع عليه وأثاب على مقدّماته، وإذا أبغض أمراً وكرهه فربما أقفل كلّ النوافذ في وجهه، فضلاً عن

(١) علل الشرائع ج ٢ ص ٤٧٩، وعيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٩٩، ومن لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٥٦٥.
(٢) نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٣.

الأبواب المؤدّية إليه. ومن هنا يتضح لنا سرّ النهي عن الاقتراب من الزِّنا في الآية المباركة، وليس مجرّد اقترافه فحسب، فتأمل في دلالة قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ فهو لم يقل: لا تزنوا، وإنّما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾، الأمر الذي يفرض على المسلم أن يجتنب حتّى المقدّمات المؤدّية إلى الزِّنا أو الأجواء المساعدة عليه، وهذا ما لا تُعطيه عبارة «**لا تزنوا**».

سدّ منافذ الرذيلة

وهذه بعض الإجراءات التي اتّخذها التشريع الإسلامي، بهدف سدّ المنافذ وإغلاق الأبواب التي يؤدّي فتحها إلى دفع الجنسين إلى أحضان الرذيلة، ووقوعهما في العلاقة الجنسيّة المحرمة:

١ ـ الإجراء الأول على هذا الصعيد، هو منع الخلوة بالمرأة الأجنبية؛ لأنّ الرجل والمرأة اللذين يجتمعان في مكان منعزل بعيداً عن أعين الناس، هما في معرض الانسياق مع ضغط الغريزة وتسويلات النفس الأمّارة، وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا يخلونّ رجل بامرأة، إلا كان ثالثهما الشيطان**»[(١)]، وهذا المضمون مرويّ ـ أيضاً ـ عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام[(٢)].

وقد يقولن بعض الشباب: أنا واثق من نفسي، فإذا اختليت بامرأة فلن تتحرّك غريزتي، ولن أقع في المعصية !وربّما قالت بعض النساء مثل هذا القول أيضاً.

بيد أنّ الجواب على هذا الكلام هو أنّ الإسلام يراعي في تشريعاته النوع البشري، ولا يشرّع للحالات الفردية الخاصّة والاستثنائية. على أنّه ما أكثر المزاعم بالثقة بالنفس، لكنّ الواقع يكذّب ذلك، ولذا أراد الإسلام سدّ الذرائع على هذا الصعيد.

---

(١) سنن الترمذي ج ٢ ص ٣١٩.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الرجل والمرأة إذا خليا في بيت كان ثالثهما الشيطان**»، انظر: من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٢٥٢.

٢ ـ والإجراء الثاني: هو تحريم النظر إلى الجنس الآخر بشهوة وريبة؛ لأنّ النظر الشهواني يحرّك الغريزة، وهو ما قد يُفقد الإنسان السيطرة على نفسه، فيزجّ بها إلى مهاوي الرذيلة، قال الشاعر أحمد شوقي:

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

إنّ نَظَرَ الرجال إلى النساء، وكذلك نَظَرُ النساء إلى الرجال ليس محرماً، شريطة أن يكون نظراً بريئاً (نَظَرُ إنسان إلى إنسان)، ولا ينطلق من حالة شهوانية غرائزية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ..﴾[النور: ٣٠ ـ ٣١]، ولنتأمّل في قوله: ﴿ **يَغُضُّوا** ﴾، فإنّ الغضّ لا يعني الغمض، بل هو بمعنى كسر الطرف وعدم تركيز النظر إلى الجنس الآخر والذي ينطلق من حالة شهوانية.

٣ ـ والإجراء الثالث: هو دعوة المرأة إلى اجتناب التبرّج أو إظهار الزينة الملفتة لأنظار الجنس الآخر والمثيرة لغرائزه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾[النور: ٦٠]، وقال أيضاً: ﴿ **وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾[الأحزاب: ٣٣]. وقريبٌ منه دعوة المرأة المؤمنة إلى الابتعاد عن استثارة الرجل جنسياً بالقول أو الفعل، أما القول فبترقيق الكلام وتليينه بطريقة مريبة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾[الأحزاب: ٣٢]، وأما الفعل فمن قبيل رقص المرأة أو مشيتها المتمايلة في محضر الرجال، أو وضع شيء على جسدها يكون مبعثاً للإثارة وجلب الأنظار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[النور: ٣١].

٤ ـ والإجراء الرابع هو منع الملامسة والمصافحة بين الجنسين، مع عدم

وجود رابطة شرعيّة تبيح ذلك، فالفتوى المشهورة بتحريم مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية عنه، يمكن أن تُعدَّ إجراءً احترازياً يرمي إلى ما ذكرناه، من التخفيف قدر المستطاع من الأجواء التي تُهيِّئ الرجل أو المرأة للإثارة الجنسية، في النطاق الذي يكون فيه تحرّك الغريزة غير مسموح به.

٣

الشباب والغريزة الجنسيّة

وبالنظر إلى الشباب فإنّ قضيّة الغريزة الجنسيّة تكتسب أهميّة بارزة، لأنّها ذات تأثير كبير على استقرار حياة الشاب وانتظامها، ومن هنا كان من الضروريّ إيلاؤها عناية خاصّة بالبحث.

١ ـ صمود الشباب في معركة الغريزة

وقد لا أكون مبالِغاً ولا مجانباً للصواب إذا قلت: إنّ من أحبّ خلق الله إلى الله تعالى شاباً في مقتبل العمر، أقبل على الله تعالى بقلب سليم وهمّة عالية، وبالرغم من كونه محاطاً بالمغريات من كلّ جانب والتي تثير غرائزه وتشدّه نحو الرذيلة، ناهيك عن الوساوس والمثيرات التي تُزيّن له الحرام، فإنّه يصمد في معركة جهاد النفس الأمّارة بالسوء، ولا ينهزم، ويظلّ حبّ الله تعالى أقوى من كلّ شيء لديه، ولا يُؤْثِرُ هواه أو هوى غيره على رضا الله تعالى، ولا يبيع آخرته بدنياه ولا بدنيا غيره.

وإنّي أعتقد أنّ صمود الشاب في معركة الغريزة ليس أمراً صعباً ولا عسيراً، خلافاً لما قد يتخيّله البعض من أنّ رضوخ الشاب لنداء الغريزة أكثر من رضوخه لصوت العقل والدين، فهذا الكلام ليس دقيقاً على إطلاقه؛ لأنّ ضغط الغريزة وجموحها عند الشاب ـ ولا سيّما في هذا الزمن المليء بالمثيرات ـ وإن كان

أمراً صحيحاً ولا ينكر، بيد أنّ صحوة الضمير والوجدان الدينيّ وسلامة الفطرة لديه كفيلة في إيجاد حالة من التوازن في شخصيّته، بما يساعد على ضبط الغريزة ويَحُول دون انفلاتها من عقالها.

وهنا يأتي دور الخطاب الديني والتربوي في أن يعمل ويتحرّك بتوازن دقيق، بما يساهم في إبقاء الشباب في حالة صحوة وجدانية ويقظة روحيّة، بعيداً عن أساليب الرهبنة المبتدَعة أو التصوّف المزيّف، ممّا تقدّم الحديث عنه في المحور الثالث.

إنّ من المفترض بالخطاب الدينيّ أن يبتعد عن أسلوب جلد الشاب وتخوينه، أو جعله في قفص الاتهام، أو إشعاره بأنّ غريزته الجنسيّة هي دنس أو عيب، وأنّ عليه أن لا يتحدّث بشأنها ولا يفكّر في أمرها، فضلاً عن الإيحاء له بأنّها مشكلة، وعليه أن يتخلّص منها ويقمعها أو يكبتها، فهذا ـ فضلاً عن أنّه غير صحيح من الناحية الدينية ـ غير صحيح من الناحية التربوية أيضاً، وقد يخلق لدى الشاب ردّة فعل سلبية ربما تدفعه للتفلّت من الدين وتعاليمه، أو تُوقعه في حالة من الكبت الجنسيّ، وقد يخلق لديه بعض العقد النفسيّة.

وما أحرانا نحن المتكلمين باسم الدين أن نتعلّم من رسول الله ﷺ كيفية مخاطبة الشباب، حيث نراه في بعض كلماته المروية عنه يرشد الشباب بكلّ لطف إلى أهمية السيطرة على الغريزة، مبيناً لهم ـ بكلام يفيض حبّاً وحناناً ـ محبّة الله تعالى لهم، يقول ﷺ: «**إنّ الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي! ترك شهوته من أجلي**»(١).

(١) انظر: كنز العمال ج١٦ ص٧٧٦.

٢ ـ الحلول الواقعيّة لمشكلة غليان الغريزة

ولكن ثمّة معضلة حقيقيّة تواجه معظم الشباب اليوم، وهي عجزهم عن الإقدام على الزواج وتكوين الأسرة في فترة النضوج الجنسيّ، ولا يقتصر الأمر على مضيّ أربع أو خمس سنوات مثلاً على سنّ البلوغ، بل يصل التأخير في معظم الأحيان إلى عقد (عشر سنين) أو عقدَين، مع أنّ الغريزة تكون في أوان التهابها وفورانها، والسؤال: ما هو الحلّ الأمثل لمعالجة هذه المشكلة؟

من المنطقيّ أنّ الحلّ ليس في أن يكبت الشاب ـ رجلاً كان أو امرأة ـ غريزته باستعمال وسائل تعطيل طاقته الجنسيّة أو تجميدها، لأنّ هذا فضلاً عن أنّه قد لا يكون سبيلاً مشروعاً، فإنّه ليس حلاًّ عمليّاً ولا مُجدياً في معالجة المشكلة، بل إنّ الكبت الجنسيّ يعدّ موئلاً خصباً للعديد من الأمراض الجسدية والنفسية.

ومن الطبيعيّ أيضاً أنّ إطلاق العنان للغريزة والسعي إلى إروائها وإشباعها بشتّى الطرق والوسائل ولو كانت محرّمة، ليس حلاًّ مقبولاً ولا هو صحيّ، بل إنّ هذا الطريق قد يفاقم المشكلة ويزيدها تعقيداً.

والإسلام بحكم واقعيته ووسطيته، لا يمكنه أن يتقدّم باقتراحات حلول غير واقعية ولا عمليّة لمعالجة المشاكل النفسية أو الجسدية أو الاجتماعيّة، ومنها مشكلة غليان الغريزة، ولهذا السبب فإنّي لا أعتقد أنّه ـ أي الإسلام ـ يكتفي في هذا المجال بدعوة الشباب إلى إطفاء نار الغريزة باللّجوء إلى الصوم، استناداً إلى ما جاء في الحديث النبويّ الشريف: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء**»[(١)]؛ لأنّ الصوم لا يُعدّ علاجاً كافياً للمشكلة، والحديث الشريف إنّما يرمي إلى توجيه الأفراد نحو الصوم باعتباره وسيلة ظرفيّة، وعاملاً مساعداً ومؤقّتاً على التخفيف من غلواء

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ١١٧، ونحوه ما جاء في الكافي ج ٤ ص ١٨٠.

الغريزة وضغطها على الأعصاب، لكنّه لا يقدم ذلك باعتباره حلّاً دائمياً أو علاجاً جذرياً للمشكلة؛ ولهذا لا بدّ من اقتراح حلول عمليّة وشرعيّة في الوقت عينه.

وأعتقد أنّ الحلول الأقرب إلى الواقع والأكثر انسجاماً مع التشريع الإسلاميّ ومقاصده متوفّرة وليست بحاجة إلا إلى السعي في تطبيقها، ويمكن تصنيف هذه الحلول إلى نوعين:

النوع الأول: الحلول الجذريّة

والحلول الجذرية لا تبدأ إلا بعد القيام بدراسة علميّة وميدانية للمشكلة (مشكلة تأخّر سنّ الزواج) للتعرّف على أسبابها وظروفها، ليصار بعد ذلك إلى معالجتها من خلال توزيع المسؤوليات وتحديدها، فنتعرّف على دور الفرد في المشكلة وفي العلاج، وعلى دور المجتمع ومؤسساته المدنية على هذا الصعيد، ونحدّد ما هي مسؤوليات الدولة وأجهزتها في هذا المجال؟

وبعد القيام بهذه الدراسة، يكون من الضروريّ ـ في الحالة الصحيّة ـ أن يُصار وعلى ضوء تلك الدراسة إلى وضع خطة شاملة تعمل:

أولاً: على رفع الموانع والعوائق أمام عمليّة الزواج ومرونتها وسهولتها. ومن أهمّ هذه الموانع هو نمط حياتنا الجديد في طريقة الصرف والاستهلاك، وهو نمط غزانا من الخارج. فقد فرض علينا نمط الحياة الغربية الذي اتبعناه وقلّدناه، الانخراط في حياة مرفّهة، وفرض علينا ـ أيضاً ـ حاجات غير واقعية، هي في الغالب مجرّد كماليات لا ضرورة لها.

هذا ناهيك عن التكاليف الباهظة التي تُدفع لقاء بعض مراسم الزواج، إن فيما يتّصل بمصروف العرس أو فيما يتّصل بغلاء المهور أو موائد الطعام المبالغ فيها، أو حفلات «الغناء» أو «الموالد الشرعية» والتي تحتاج إلى بذل مصاريف كبيرة

ينوء الكثير من الشباب بتحمّل أعبائها.

ومن العوائق التي يمكن ذكرها في المقام: محاولة الكثير من الشباب الهرب من الدخول المبكر إلى القفص الزوجيّ لما يرتّبه ذلك عليهم من مسؤوليات، وأمّا غريزتهم فيسعون إلى إروائها من خلال العقد المنقطع أو من طريق آخر، وهذا كلّه من تأثيرات الثقافة المادية المشار إليها والتي تجعل الإنسان أسير الشهوة واللّذة العابرة، إنّنا نقول لهؤلاء الشباب: إنّ دخولكم إلى القفص الزوجيّ لا يشكّل دخولاً إلى السجن، بل هو دخول إلى السكن الآمن الذي أنتم ـ كغيركم من بني الإنسان ـ أحوج ما تكونون إليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[الروم: ٢١]. واستمعوا ـ أيّها الشباب ـ وتدبّروا ملياً في قول النبيّ الأكرم ﷺ وهو يخاطبكم بكل محبّة ولطف قائلاً: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة** (الزواج) **فليتزوج**»، وهو ﷺ لا يتكلّم جزافاً، بل إنّه كلام صادر عن معدن العلم ومصدر الوحي.

ثانياً: تأمين فرص العمل للشباب، وهذا من أفضل السبل لتحصين الشاب وبناء الأسرة، فبدل أن نتصدّق على الشاب ليشتريَ بيتاً ويعدّه للزواج، فإنّ الأجدى والأنفع هو أن نؤمّن له فرصة عمل كريم، ومن خلالها سوف يتسنّى له تأمين حاجاته ومتطلباته.

ثالثاً: ترشيد عمليات التبرّع والإنفاق وتوجيهها إلى هذا الحقل، فإنّ المساعدة على تزويج العزاب وإعفافهم هي من أفضل وجوه الخير وأعمال البرّ، ولا يقتصر البذل على بناء المساجد والحسينيات الفخمة والتي قد لا تكون مورد حاجة ملحّة، إنّنا على يقين أنّ المال الذي يُصرف لبناء أسرة عفيفة هو أفضل عند الله تعالى من صرفه لبناء مسجد لا حاجة ماسة إليه.

رابعاً: تعميم ثقافة العفّة ونشر قيمة الحياء وغيرها من القيم الأخلاقية، فإنّ ذلك كفيل بمساعدة الإنسان على ضبط غرائزه وكبح جماحها، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**من كَرُمَتْ عليه نفسُه هانت عليه شهوتُه**»[1]، ويقول عليه السلام ـ بحسب ما روي عنه ـ: «**ما زنى غيور قط**»[2]، فما أروع هذه الكلمات التي تستنفر في الإنسان القيم الفطرية وتحثّه من خلال ذلك على ترك الرذائل، لمنافاتها للخُلق الأبيّ والطبع السويّ.

بيد أنّ هذه الثقافة لن تؤديَ غرضها إلا مع العمل ـ بالموازاة ـ على سدّ أبواب الفتنة والإثارة الغرائزية الفاضحة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فإنّ وسائل الفساد والإفساد التي تعمل على إثارة غرائز الشباب كثيرة، فيكون من واجب كلّ عاقل وحريص على نظافة المجتمع من الناحية الأخلاقية أن يعمل على سدّ وإقفال هذه النوافذ المدمرة للفرد والمجتمع، والمخرِّبة للأسرة، والمسيئة لإنسانية الإنسان.

النوع الثاني: الحلول المؤقّتة

وقد يصاب بعض الشباب بالاكتئاب واليأس إذا حدّثته عن ضرورة وضع خطّة شاملة لمعالجة المشكلة، لأنّه يريد حلاً مستعجلاً لمشكلته الشخصيّة، حيث تضغط عليه الغريزة، ولا يمكنه الانتظار إلى الانتهاء من وضع الخطط موضع التنفيذ، هذا إن وُجدَ من يهتمّ بهذا الأمر ويسعى إلى تنفيذه، ولهذا يكون من الضروريّ التفكير في وضع حلول جزئيّة ومستعجلة تساعد على حلّ المشكلة، وما يمكننا اقتراحه على هذا الصعيد:

أولاً: توفير قروض ميسّرة لتغطية نفقات الزواج، ويمكن أن تكون هذه القروض من المال العام.

(١) نهج البلاغة ج٤ ص١٠٥.
(٢) المصدر نفسه ج٤ ص٧٣.

ثانياً: إعطاء إجازات شرعيّة تسمح بالإنفاق في هذا السبيل من الأموال والوجوه الشرعية، ولعلّ أحد أبرز موارد الصرف المُثلى للحق الشرعي (الخمس والزكاة)، هو الصّرف على إعفاف الشباب المسلم.

ثالثاً: وقد يشكّل أخذ الشباب في هذه المرحلة بأسباب العقد المؤقّت، عاملاً مساعداً في التخفيف من غلواء الغريزة. وإننا نعتقد أن المشرّع الإسلاميّ الحكيم عندما أباح الزواج المؤقّت فإنّه قصد تحقيق جملة من الأهداف والنتائج الطيبة، ومن أهمّها توفير سبيل وطريق محلّل لإرواء الغريزة، وذلك كحلّ مؤقّت إلى أن تتوفّر للشخص سبل الزواج الدائم، وربّما كان الزواج المؤقّت هو مرحلة تمهيدية للزواج الدائم.

٣ ـ الزّواج المؤقّت

وأرى من المناسب أن أطلَّ على موضوع العقد المنقطع إطلالة عابرة أسجّل فيها بعض الوقفات التي أراها مفيدة، وقد لا يكون خلوّ الكتاب منها مناسباً، وَمْن أراد الاستزادة يمكنه مراجعة الكتب المطوّلة التي تناولت هذا الموضوع بشكل تفصيليّ، وما يهمّني التركيز عليه هنا هو ما يلي:

أولاً: شرعية العقد المنقطع

إنّ العقد المنقطع (الزواج المؤقت/ المتعة) هو بنظرنا عقد مشروع، وقد ثبتت مشروعيته بنصّ الكتاب(١) والسُّنة(٢) وإجماع الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ووافقهم بعض كبار الصحابة كابن عباس وغيره. ويمكنك القول: إنّ حليّة المتعة ومشروعيتها أو كونها على الإباحة الأصلية هي مورد اتّفاق المسلمين وتسالمهم،

(١) وذلك قوله تعالى ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ النساء: ٢٤].

(٢) وذلك من خلال الأحاديث المختلفة الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام،والمذكورة في الكتب الحديثية، وقد نذكر بعض هذه الأحاديث في ثنايا البحث.

وإنّما ادعى فريق من المسلمين أنّه قد تمّ نسخ الحليّة أو صدر التحريم من النبيّ ﷺ لاحقاً بعد أن مارسها المسلمون ردحاً من الزمن، وتعليقنا على ما ادّعاه هذا الفريق هو أنّ أصل الحليّة والمشروعية ثابت ولا تنكرونه، أمّا النسخ أو التحريم فهو غير ثابت ولا متيّقن، بل متيّقن العدم، ويشهد لذلك ويدلّ عليه العديد من الشواهد والأدلّة المتضافرة والتي لا تُبقي مجالاً للشك في بقاء المشروعية واستمرارها، ومن أهمّ هذه الشواهد:

أ ـ استمرار المسلمين عملاً على الأخذ بهذا العقد حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله، قال: «كُنّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى نهانا عمر في شأن عمرو بن حريث»(1).

ب ـ على أنّه لو كان التحريم واضحاً أو ثابتاً عن مصدر الشرعية الإسلامية، فلماذا ينهى عنها عمر بن الخطاب بنفسه ولا ينسب النهي إلى رسول الله ﷺ ؟! وفي واقع الأمر فإنّ قول عمر: «كانتا متعتان [متعتين] على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء»(2)، هو خير دليل على شرعيّة المتعة، لأنّ ما أباحه وحلّله رسول الله ﷺ ليس لأحد أن ينهى عنه أو يحرّمه، إلا إذا كان نهياً زمنياً سلطانياً وليس دينياً، كما رجّح ذلك العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء(3) في تفسير الكلمة الآنفة المروية عن عمر، ومن الطبيعيّ أنّ النهي الزمنيّ المدنيّ إذا صدر من الحاكم الشرعي فإنّما هو نهي مؤقّت يرتفع بانقضاء أسبابه الموجبة أو بتجميده من قِبل حاكم آخر.

(1) صحيح مسلم ج٤ ص١٣١، ونحوه في سنن أبي داوود ج١ ص٤٦٨، والسنن الكبرى للبيهقي ج٧ ص٢٣٨. وقصة عمرو بن حريث أخرجها عبد الرزاق في مصنفه، فقد روي بالإسناد إلى جابر بن عبد الله قال: «قدم عمرو بن حريث من الكوفة فاستمتع بمولاة، فأتي بها عمر وهي حبلى، فسألها، فقالت: استمتع بي عمرو بن حريث، فسأله، فأخبره بذلك أمراً ظاهراً، قال: فهلا غيرها؟ فذلك حين نهى عنها»، انظر: المصنف ج٧ ص٥٠٠.

(2) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ج ص٢٠٦، ومسند أحمد ج٣ ص٣٢٥.

(3) انظر، أصل الشيعة وأصولها ص ١٧٦.

ثانياً: المتعة عقد الاستثناء

إنّ رؤيتنا حول الفلسفة التشريعية للمتعة أنّها لم تشرّع لتكون بديلاً عن الزواج الدائم، فالزواج الدائم هو الأصل، وهو الذي يحقّق الاستقرار الأسري المرجوّ، وهو ما ندبت إليه العديد من النصوص الشرعية، أمّا الزواج المنقطع أو المؤقت فهو عقد ظرفيّ تُمليه بعض الاعتبارات الواقعية والضرورات العرفيّة الاستثنائية، حيث إنّ بعض التعقيدات الاجتماعية والظروف المختلفة قد تتسبّب في تأخير سنّ الزواج الدائم وربّما تجعلُ فُرَصَهُ ضعيفةً وغير متيسّرة، الأمر الذي يدفع الشباب وغيرهم ـ ذكوراً وإناثاً ـ إما إلى الأخذ بخيارات غير مشروعة كالزِّنا أو الشذوذ الجنسيّ أو ممارسة العادة السريّة، وإمّا اعتماد طرق غير عمليّة ولا تخلو من عواقب وأضرار نفسية وصحية واجتماعية، كالعمل على كبت الغريزة وقمعها. ولذا يكون السبيل الأمثل في هذه الحالة هو فتح باب شرعيّ أمام إقامة علاقات جنسية بين الذكور والإناث في إطار عقد مؤقّت ينظّم العلاقة ويُخرجها من حالة التفلّت أو الفوضى الجنسية التي نشهدها في حالات الزِّنا، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ إلى أنّ المتعة هي السبيل لتحصين المجتمع من الزنا، قال عليه السلام: «**لولا ما سبق من رأي عمر بن الخطاب** ـ أو قال: **من رأي ابن الخطاب ـ لأمرت بالمتعة، ثمّ ما زنا إلا شقي**»(١).

وأعتقد أنّ الواقع الإنساني والإسلامي (خارج دائرة أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام) يقترب من الأخذ بالعقد المنقطع ولو تحت عناوين أخرى، ففي العالم غير الإسلامي نشهد إقامة علاقات بين الجنسين تحت عنوان (زواج الفرند) الأصدقاء (FRIENDS)، وذلك بسبب تعقيدات وصعوبات الزواج الدائم، وأمّا في العالم الإسلامي الذي لا يؤمن أتباعه بمشروعية العقد المنقطع فقد

(١) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ج٧ ص٥٠٠.

أخذنا نشهد زيجات من قبيل (زواج المسيار) أو (الزواج العرفي) أو الزواج بنيّة الطلاق، وهي زيجات تقترب من العقد المنقطع في سريّتها وفيما يكتنفها من شروط تخفيفية لا تُرتِّب على الزوجين أعباءً باهظة والتزامات ثقيلة كتلك التي يستوجبها العقد الدائم، بل إنّ بعض المجاميع الفقهية التابعة لأخواننا من أهل السُّنة قد حكمت بشرعية (زواج الفرند)، واعتبرت أنّه يوفّر فرصة شرعيّة للشباب المغترب الذي تحاصره أجواء الإثارة الجنسية من كلّ جانب، فيلجأ إلى هذه العلاقة كي لا يقع في الحرام، وأكّد البعض «أنّها ليست فتوى بالجواز مطلقاً، وإنّما هي رأي لمن هم في بلاد الغرب من المسلمين وخافوا على أنفسهم الزِّنا. فكأنّه جعل هذا الرأي علاجاً لهم كالمضطرّ في أكل المحرَّم خشية الهلاك ونحوه»(١).

ولا أدري لماذا التهرّب من الطريق الشرعيّ مع توفّره؟ واللّجوء إلى مثل هذه الخيارات التي لا تخلو أحياناً من التواء، مع أنّ الباب الشرعيّ المتمثّل بالعقد المنقطع مفتوح أمام إقامة علاقة شرعية تلبي احتياجات الجنسين إلى إرواء الغريزة الجنسية وإشباعها؟!

وإنّي استغلها فرصة لدعوة إخواني علماء المسلمين من أهل السُّنة إلى إعادة النظر في موقفهم السلبيّ من عقد المتعة، وإعادة قراءة النصوص الدينية الواردة في المسألة بطريقة موضوعية بعيدة عن الأهواء والعصبيات. وقد صدمني أنّ البعض قد لمّح وربما صرّح بشرعيّة اللّواط في بعض الحالات الاستثنائية والضرورية ولكنّه أصرّ على تحريم المتعة وشدّد النكير عليها!

(١) انظر: جريدة الرياض السعودية في عددها الصادر في يوم الأربعاء ١٢ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، والرابط الإلكتروني لها هو التالي: http://www.alriyadh.com/153157.

ثالثاً: تنظيم العقد المنقطع

إنّ تأكيدنا على شرعية العقد المؤقّت وأهميّته في الكثير من الأحيان لا تمنعنا من التأكيد على ضرورة تنظيم هذه العلاقة، تلافياً لبعض الآثار والنتائج السلبية الجانبية الناتجة عن هذا العقد، وفي هذا السياق تهمّني الإشارة إلى بعض الضوابط التي ننصح مَنْ يأخذ بهذا العقد بضرورة مراعاتها:

أ ـ توثيق العقد بكتابة أو نحوها، وذلك تلافياً لبعض المحاذير التي تترتّب على عدم التوثيق، من قبيل إقدام الزوج على إنكار الولد في حالة حصول الحمل، أو إنكار العقد المنقطع كليّاً والذي قد تُقدم عليه المرأة أحياناً إذا تقدّم إليها رجل بطلب الزواج الدائم وخافت أن يتركها إن طلبت منه إمهالها لإنهاء العقد المنقطع أو الخروج من العدّة، إلى غير ذلك من المحاذير.

ب ـ ننصح الفتيات الباكرات حتّى لو بلغنا سنّ الرشد بعدم الدخول في علاقة عقد منقطع ولا سيّما إذا أفضت إلى الدخول بهنّ وافتضاض بكارتهن، لأنّ ذلك قد يُربك حياتهنّ المستقبليّة. وكثيراً ما يَخْدَعُ بعضُ الرجال هذه الفتاة أو تلك، فيعقد عليها عقداً منقطعاً ويطلب الدخول ويَعِدُها بالزواج الدائم دون أن يكون عازماً على الوفاء بوعده، وإنّما هي حاجة في نفسه وقد قضاها، وهذا ما قد يستتبع بعض العواقب الوخيمة والمخاطر الجديّة على حياة الفتاة فيما لو تزوّجت من آخر واكتشف أنّها ليست عذراء، وذلك لأنّ الذهنية الشرقيّة تنظر إلى موضوع البكارة نظرة قداسة. هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة رأياً فقهياً مشهوراً يشترط في صحّة عقد الفتاة الباكر ـ حتى لو كانت رشيدة ـ إذن وليها سواء كان الزواج دائماً أو منقطعاً.

ت ـ وننصح المتزوجين بعدم الإقدام على الزواج المؤقّت مع عدم وجود

حالة ملحّة تستدعي الإقدام عليه، فإنّ ذلك ربما يجعل الشخص معتاداً عليه، وهو ما قد يُربك حياته الزوجيّة ويجرّ عليه بعض المتاعب، فالرجل المتزوّج والذي تحقّق له زوجته الكفاية الجنسية لا موجب لإقدامه على العقد المنقطع، لأنّ ذلك قد يفضي ويؤدّي إلى التقصير تجاه زوجته والنفور منها، ما قد يوتّر علاقتها به وربّما تصل الأمور إلى الانفصال والطلاق؛ وتنصّ بعض الروايات على كراهة الإكثار من الزواج المنقطع، ففي الحديث أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إلى بعض مواليه: «**لا تُلِحّوا على المتعة، إنّما عليكم إماتة السُّنة، فلا تشتغلوا بها عن فُرُشِكُم وحرائركم فيكفُرن ويتبرّين ويَدْعِينَ على الآمر بذلك ويلعنونا**»[1].

ويتوجّه الإمام الكاظم عليه السلام إلى بعض أصحابه وهو عليّ بن يقطين عندما سأله عن المتعة قائلاً: «**وما أنت وذاك وقد أغناك الله عنها!**»[2].

٤ ـ يوسف الصديق نموذج الشاب العفيف

ويجدر بنا هنا، ونحن نتحدّث عن كيفيّة تعامل الشاب مع غريزته، أن نؤكّد على قيمة العفة وأهميتها في تحصين النفس، وذلك من خلال الاستعانة والاستهداء بنموذج عمليّ قدّمه لنا القرآن الكريم، وهو نموذج الشاب الذي تحيط به المغريات من كلّ جانب، ولكنّه ينتصر في معركة الإرادة، ولا يسقط أمام ضغط الغريزة، وهو نموذج يوسف الصديق عليه السلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۞**

(١) الكافي ج٥ ص٤٥٣.
(٢) المصدر نفسه ج٥ ص٤٥٢.

وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ
مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ
شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ *
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ * يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي
لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ * وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ
فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ
أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ
فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ
* قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ
مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ
إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ * فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ
فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[يوسف: ٢٣ ـ ٣٤].

إنّ في قصّة هذا النبيّ العظيم عليه السلام دروساً كثيرةً وفوائدَ جليلة، ومن أبرزها ـ فيما نحن فيه ـ فائدتان:

أ ـ الفائدة التربويّة

حيث مثّل يوسف عليه السلام نموذجاً رائعاً لكلّ الشباب، وقدّم لهم درساً عمليّاً في القدرة على مواجهة الغريزة وضبطها، فقد انتصرت إرادة يوسف الصدّيق وإيمانه على كلّ محاولات الإغراء التي مارستها زوجة العزيز معه، ولم يرضخ لكلّ محاولات الضغط عليه الهادفة لجرّه إلى مستنقع الرذيلة والفاحشة. تصوّرْ أنّ شاباً يواجه من الإغراءات والمثيرات والضغوطات ما واجه يوسف الصدّيق، فماذا عسى أن يكون موقفه؟ أكان يصبر أم يسقط أمام غليان الغريزة؟

لقد كان يوسف عليه السلام شاباً في مقتبل العمر وفي أوان فوران الغريزة، وهو ذو هيئة رائعة وصورة جميلة حسنة قلّ نظيرها، والجمال يُغري صاحبه بالهوى ويُغري الجنس الآخر بذلك. وكان في الوقت عينه مملوكاً لزوجة العزيز، والمملوك لا يستطيع أن يردّ أوامر سيّدته أو يرفض لها طلباً. وفي المقابل، فإنّ زوجة العزيز كانت هي الأخرى امرأة جميلة، بل فائقة الجمال على ما يُذكر ويُحكى، وهي بطبيعة الحال تكون متزيّنة بأجمل الحليّ ومتعطّرة بأرقى أنواع الطِّيب. كما أنّها من جهة أخرى، قد عشقت يوسف عشقاً لا حدّ له، حتى وصل حبّه إلى شغاف قلبها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾. ثم إنّها هيّأت نفسها وأعدّت واستعدت لساعة الوصال، فهيّأت خلوةً خاصّة وغلّقت الأبواب، ودعته إلى نفسها بعيداً عن أعين الناظرين، وفي بيت من بيوت الملوك التي تبهر العقول بروعتها وجمالها. ومع ذلك كلّه وبالرغم من كلّ هذه الأجواء والأسباب التي لو توفّر بعضها لأيّ رجل لسقط تحت ضغط الغريزة، فإنّ يوسف عليه السلام تعالى وتسامى، وكان شريفاً أَبِيَّ النفس تقياً ورعاً يضعُ اللهَ نصبَ عينيه، ولذلك انتصرت إرادته رغم كلّ المعاناة التي عاشها، ورغم كلّ «تلك الأسباب والأمور الهائلة» التي «لو توجهت إلى جبل لهدّته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها»، كما يقول العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي[1].

إنّ قصّة يوسف عليه السلام هذه تعدّ درساً بليغاً لكلّ الشباب الذين تواجههم الإغراءات، مع كونها إغراءات قد لا يصل معظمها إلى معشار ما وصل إليه الأمر عند يوسف، وبالرغم من ذلك فقد انتصرت الإرادة عنده عليه السلام على الغريزة وتغلّب حبُّ الله على هوى النفس وحبّها، ويستفاد من بعض الأخبار أنّ يوسف الصدّيق سوف يتّخذه الله يوم القيامة حُجّة له على الشباب الذين أغراهم جمالهم فانحرفوا، كما ستكون السيدة مريم عليها السلام حجّة الله على النساء الجميلات اللاتي أغراهن حسنهن وجمالهم فانحرفن. ففي الحديث عن أبي

(١) الميزان ج١١ ص١٣٦.

عَبْدِ اللَّه الصادق عليه السلام: «تُؤْتَى بِالْمَرْأَةِ الْحَسْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي قَدِ افْتُتِنَتْ فِي حُسْنِهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِمَرْيَمَ عليها السلام فَيُقَالُ: أَنْتِ أَحْسَنُ أَوْ هَذِه؟ قَدْ حَسَّنَّاهَا فَلَمْ تُفْتَتَنْ! وَيُجَاءُ بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ فِي حُسْنِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِيُوسُفَ عليه السلام فَيُقَالُ: أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذَا؟ قَدْ حَسَّنَّاه فَلَمْ يُفْتَتَنْ! وَيُجَاءُ بِصَاحِبِ الْبَلَاءِ الَّذِي قَدْ أَصَابَتْه الْفِتْنَةُ فِي بَلَائِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَدَّدْتَ عَلَيَّ الْبَلَاءَ حَتَّى افْتُتِنْتُ! فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ عليه السلام فَيُقَالُ: أَبَلِيَّتُكَ أَشَدُّ أَوْ بَلِيَّةُ هَذَا فَقَدِ ابْتُلِيَ فَلَمْ يُفْتَتَنْ!»[(١)].

ب ـ الفائدة العقديّة

حيث إنّ القرآن الكريم عندما يقدّم لنا نبياً من أنبيائه عليهم السلام، وهو يعيش صراعاً مريراً بين غريزته وعقله، فإنّه بذلك يقدّم لنا الأنبياء عليهم السلام كما هم وعلى طبيعتهم دون مبالغة أو تنقيص، وثمرة ذلك هي ضبط إيقاع رؤيتنا العقدية تجاه الأنبياء عليهم السلام، لتكون صفة البشرية حاضرة في أساس هذه الرؤية، بما يشكّل مانعاً من المبالغة في الاعتقاد فيهم، وحاجزاً دون وقوعنا في الغلوّ. وميزة النبيّ عليه السلام في هذا المجال عن غيره من الناس، هي أنّه في الوقت الذي يغرق كثير من الناس في وحول الشهوات ومستنقع الغرائز، فإنّ النبيّ عليه السلام يبقى فوق السّقوط، لأنّ نفسه اللّوامة وضميره اليقظ وعشقه ومحبّته لله تعالى وشعوره برقابته عزَّ وجلَّ، ومعرفته بقبح الذنب، هي التي تكون منتصرة في نهاية المطاف، ولهذا اختاره الله لرسالته، ولم يختزه لها لأنّه ـ كما قد يُخيَّل للبعض ـ لا يمتلك غريزة أو لأنّه مخلوق من غير طينة البشر، فإنّ من كان كذلك هو ملك وليس بشراً. وحكمةُ الله تعالى قضت بأن يكون الحُجّةُ على العباد ومثلُهم الأعلى هو من جنسهم، لا

(١) الكافي ج ٨ ص ٢٢٨.

من جنس آخر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩].

النبي عليه السلام والغرائز

أجل، إنّ حساسية مسألة النبيّ يوسف عليه السلام لدى البعض ناشئة من أنّ قضايا الجنس لا زلنا نضعها في دائرة العيب الاجتماعي، مع أنّ قضيّة الجنس أو حاجة النبيّ عليه السلام إلى ذلك ـ كحاجته إلى الطعام والشراب ـ هي حاجة بشرية لا تنافي تُقاه وورعه وعصمته؛ ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية بشكل واضح فيما يتّصل بنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب: ٥٢].

وبكلمة أخرى: إنّ القوّة الشّهوية لدى النبيّ عليه السلام هي ـ كالقوة الغضبية ـ خير وكمال له من حيث المبدأ، كما هي خير لغيره من الناس، وخلوّه منها يعدّ نقصاً فيه، ولكن شريطة أن لا تخرج عن سيطرة صاحبها بما يخرجه عن خطّ التوازن، أو عن خطّ الاستقامة على جادتَي الشريعة والأخلاق. ألسنا نروي(١) أنّ من فضائل الإمام عليّ عليه السلام أنّه بعدما رمى عمرو بن عبد ودّ العامري أرضاً، وتَفَلَ عمرو في وجهه عليه السلام قام عليّ عليه السلام ومشى خطوات يسيرة، ثمّ عاد وأجهز عليه! ولمّا سئل عن سبب مشيته تلك والتي ظنّها البعض تبختراً قال: لم أفعله تبختراً، وإنّما مشيت خطوات لأنّ عَمْراً عندما تفل في وجهي أثار غضبي، فلم أرغب في قتله انتصاراً لنفسي، وإنّما قصدت إلى أنْ أُهدّئ من روعي ليكون

(١) يقول ابن شهر آشوب: «ولما أدرك ـ يقصد علياً عليه السلام ـ عمرو بن عبد ود لم يضربه، فوقعوا في علي عليه السلام (نالوا منه) فردّ عنه حذيفة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: مه يا حذيفة، فإنّ علياً سيذكر سبب وقفته، ثم إنّه عليه السلام ضربه، فلما جاء سأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: **قد كان شتم أمي وتفل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظ نفسي، فتركته حتى سكن ما بي ثم قتلته في الله**»، مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٨١.

قتلي له لله وفي سبيل الله تعالى. إنّ معنى ذلك أنّ الإمام عليه السلام ربّما هاجت به القوّة الغضبية، واحتاج إلى تهدئتها وعمل على تهذيبها. وهكذا الحال في القوة الشهويّة الغرائزية، فإنّ النبيّ عليه السلام أو الإمام عليه السلام قد يبذل جهداً في سبيل تهذيبها وصقلها، وهذا ليس عيباً ولا نقصاً، ولا ينافي عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما الذي ينافي العصمة انسياقه مع الغريزة ووقوعه في شباكها، وقد قال عليّ عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**إنّما هي نفسي أروّضها بالتقوى لتأتيَ آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق**»(١). وهنا تكمن ميزة الإمام المعصوم، فهو دائماً من يتحكّم بغضبه وبغريزته، وليس العكس كما قد يحصل مع غيره(٢).

وإنّ قول يوسف عليه السلام: ﴿**ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ**﴾ يعكس هذه المعاناة التي كان يعيشها فيستعين بالله تعالى للخروج منها، دون أن يلوّث شرفه أو يخدش إيمانه، ويطلب منه تعالى اللّطف والتسديد وأن يصرف عنه كيد تلك المرأة. ولو لم يكن ليوسف عليه السلام مثل هذه الغريزة التي تضغط عليه لم يكن محلاًّ للمدح الإلهيّ، وما كان له فضل على سائر الناس. فإنّ الإنسان إنّما يستحقّ المدح والفضل على فعل ما يقع تحت اختياره وإرادته، أو على ترك ما يملك دوافع ذاتية لفعله وتتطلع نفسه نحوه، ومع ذلك يكبح جماح الغريزة.

ومن هنا استحقّ أئمة أهل البيت عليهم السلام المدح الإلهيّ الذي خلّده القرآن الكريم بسبب تصدّقهم لمدة ثلاثة أيام بما في أيديهم من طعام، ليبيتوا جياعاً دون أن يكون لديهم ما يسدّون به رمقهم، أو يمكّنهم من صيام اليوم التالي، فلو كان لديهم شيء يسدّ جوعتهم لما استحقّوا هذا المدح الإلهيّ العظيم، ممّا جاء في قوله تعالى: ﴿

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧١.

(٢) وقد لاحظنا أنّ كبار المفسّرين قد تحدّثوا عن المحنة التي عاشها يوسف الصديق عليه السلام أو «عن الصراع المرير بين العقل والغريزة» انظر على سبيل المثال: تفسير الأمثل ج٧ ص١٦٥.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٨ ـ ٩]، وقد ذهب بعض المفسرين إلى إرجاع ضمير «حبّه» إلى الطعام(١)، لتكون النتيجة على هذا الرأي أنّه ومع حبّهم للطعام وميل أنفسهم إليه، وإلحاح غريزة الجوع عليهم بأن يحتفظوا به، فقد انتصر حب الله تعالى عندهم على حبّ الذات، فاستحقوا بسبب هذه التضحية هذا المدح العظيم ممّا أشار إليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[الإنسان: ١١]. وفي مقابل هذا الرأي يوجد رأي آخر يُرجع الضمير في «حبّه» إلى الله تعالى، والمعنى على هذا الرأي واضح، فهم آثروا الآخرين على أنفسهم حبّاً لله تعالى.

وهذا الإيثار رغم الحاجة وإلحاح النفس، هو الذي أكسب أبا الفضل العباس الثناء الجميل، فإنه بحسب ما جاء في بعض الروايات وعند وصوله إلى المشرعة، أخذ غرفة من الماء بيده، ثم رمى بها رغم حاجته إلى الماء، إيثاراً منه لأخيه الحسين عليه السلام وعياله وقال معاتباً نفسه:

يا نفسُ من بعد الحسينِ هُوني   وبعـدَه لا كنتِ أن تكونـي
هـذا الحسينُ واردُ المنونِ   وتشربينَ باردَ المَعينِ(٢)

٥ ـ النساء ومشكلة العنوسة

وثمّة مشكلة أخرى تتمخض عن تأخر سنّ الزواج، وعلينا إيلاؤها أهمية خاصة ونسعى في إيجاد الحلول الملائمة لها، وهي مشكلة العنوسة لدى الفتيات، فكما أنّ تأخّر سنّ الزواج لدى الشاب (الذكور) له مضاعفات سلبية على الشاب وعلى المجتمع برمته، فإنّ تأخر سن الزواج لدى الفتيات ـ أيضاً ـ له من المضاعفات السلبية الشيء الكثير، ومن هذه المضاعفات ما تقدّمت الإشارة

(١) جوامع الجامع للطبرسي ج٤ ص٤١٠، تحقيق: أبو القاسم كرجي، جامعة طهران، ١٣٧٨هـ. ش.
(٢) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشيخ محمد السماوي ص ٦٢.

إليه من الوقوع في فخّ الانحراف، أو الكبت الجنسيّ، ومنها أيضاً: ابتلاء الفتيات بالعنوسة ودخولهنّ سنّ اليأس، الأمر الذي يجعل فرص الزواج أمامهن ضئيلة ونادرة، بسبب أنّ الكثير من الرجال يعزفون عن الزواج بهنّ في هذه الحالة، والعنوسة ـ مع ما قد يصاحبها من أمراض نفسية أو جسدية للمرأة ـ تشكّل تحدياً حقيقياً أمام الحريصين على استقرارالمجتمع الإسلامي، ولا سيّما أمام ما نشهده من ارتفاع نسبة النساء العوانس في عالمنا العربيّ والإسلاميّ، حيث تشير بعض الإحصاءات إلى أنّ ما يزيد عن ثلاثين بالمائة من النساء هنّ من العوانس.

وأسباب هذه الظاهرة المخيفة لا تبتعد كثيراً عمّا سبق الحديث عنه من موجبات تأخر سنّ الزواج لدى الجنسين. إنّ تأخر سنّ الزواج لدى الرجل سيعني حكماً تأخراً في سنّ الزواج لدى المرأة، وتبقى الضحية الأبرز في هذه الحالة هي المرأة، على اعتبار أنّ الرجل حتى لو تأخر عن الزواج عقداً أو عقدين من الزمن فإنّ القطار لن يفوته بشكل كامل، ولن يتضرّر كثيراً بالقدر الذي تتضرّر به المرأة، بل إنّ المفارقة الملحوظة هنا هي أنّ الرجل الذي تأخر به سنّ الزواج يقدم ـ غالباً ـ على اختيار زوجته من بين الفتيات الصغار في السنّ نسبياً، ما يعني وفقاً لهذه المعادلة أنّ ثمّة شريحة من النساء سيظللن عوانس، أو تصبح فرصة زواجهن نادرة.

أضف إلى ذلك سبباً آخر يساهم في ارتفاع نسبة العنوسة لدى الفتيات المسلمات، وهي إقدام الكثير من الشباب المسلم ولا سيّما المهاجر إلى بلدان الغرب أو غيرها على الزواج من نساءٍ غير مسلمات.

ومع اتضاح أسباب هذه الظاهرة ستسهل السيطرة عليها ويُعرف المدخل الطبيعيّ لمعالجتها، ويمكننا في هذا المقام إجمال طرق العلاج بما يلي:

أ ـ الاعتماد على كافة الحلول المتقدمة والتي تسهّل أمر الزواج وترفع العوائق والموانع المصطنعة في وجهه، فإنّ الحلول المشار إليها سوف تسهم في الحدّ من ظاهرة العنوسة بكلّ تأكيد.

ب ـ التشجيع والحثّ على الزواج بالنساء المسلمات، فإنّنا وإن كنّا لا ننكر شرعيّة الزواج من غير المسلمة، لأنّ الرأي الفقهيَّ المشهور يجيز للرجل المسلم الزواج من المرأة الكتابية دون المشركة، لكنّ الانسجام الروحيَّ والاجتماعي التام بين الزوجين لن يتحقق ـ في الأعم الأغلب ـ إلا مع اتحادهما في العقيدة والانتماء، ومن هنا كان هذا التأكيد في النصوص الدينية على أهمية اختيار الزوجة المؤمنة الصالحة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[البقرة: ٢٢١]. ولهذا ندعو الشباب المسلم إلى التروي والتمهّل كثيراً قبل الارتباط الزوجيّ بامرأة غير مسلمة، وأن يفكروا بمستقبل أولادهم الذين سوف ترضعهم هذه المرأة وتربيهم وترعاهم، وأن لا يغرنّهم جمال المرأة الغربيّة، فإنّ ثمّة ما هو أهمّ من جمال الجسد، ألا وهو جمال الروح والأخلاق، قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه ومَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي مَنْبِتِ السَّوْءِ**»[(١)]، وينبغي أن يكون واضحاً أنّ تجارب الزواج بغير المسلمات لا تشجع كثيراً، فهي في كثير من الأحيان لا تتكلّل بالنجاح، وهذا أمر طبيعي في ظلّ هذا الاختلاف الكبير بين الطرفين في المبادىء والقيم والعقائد ونمط الحياة.

ج ـ التفكير الجدّي في إعادة العمل بمبدأ تعدّد الزوجات للقادرين على ذلك والمتمكنين منه، فالتّعدد يسهم في التخفيف من حالة العنوسة المتزايدة لدى النساء المسلمات وربّما غيرهن، والتعدّد وإن لم يعد مقبولاً في كثير من المجتمعات الإسلامية، ونحن لا يسعنا أن ننكر أنّه ـ أعني التعدّد ـ ليس الحلّ

(١) الكافي ج ٣٣٢.

المثاليّ للمشكلة، وقد لا يكون مقبولاً لدى الكثيرات من النساء اللواتي يتطلّعن أن يكون لكلّ واحدة منهنّ زوج لا تشاركها فيه امرأة أخرى، بيد أنّ علينا درس المسألة من جميع جوانبها دراسة واقعية موضوعية، بعيداً عن العواطف، وعن ضغط الواقع المأخوذ بسطوة «المدنية الغربية» وسيفها المسلط على رؤوسنا ونمطها الحياتيّ الذي قد يتّهمنا بالتخلّف والابتعاد عن ركب الحضارة والمدنية في حال نادينا بمبدأ تعدّد الزوجات، إنّ فكرة التعدّد إنّما انطلق بها المشرع الإسلاميّ من حقائق الواقع ومعطياته، ومن أهمّ هذه المعطيات: ظاهرة زيادة عدد النساء في الجنس البشريّ على عدد الذكور، ولا سيّما مع تعرض الذكور أكثر من النساء إلى الموت نتيجة الحروب أو غيرها، ولذا فإنّ السؤال المنطقيّ الذي يطرح نفسه على كلّ من يفكّر بالاجتماع الإنساني برمته: ما هو الحلّ المنطقي لمشكلة تزايد عدد النساء العوانس، أنرميهنّ في أحضان الرذيلة؟ أو ندعوهن للترهّب والكبت الجنسي؟! إنّ هذه الحلول ـ كما هو واضح ـ ليست واقعية ولا منطقية ولا مقبولة في ميزان الدين والأخلاق، وقد يكون الحلّ الأنسب هو في التعدّد، لكننا نؤكّد على أهميّة أن يكون التعدّد مدروساً بدقة وعناية، فإنّنا لا نشجّع عليه كيفما اتفق، ولا نريد له أن يؤدّي إلى إفساد الحياة الزوجية الأولى، فنحن لا نريد بناء أسرة على حساب هدم أسرة أخرى، وأعتقد أنّ المرأة المسلمة وغيرها إذا فكّرت في الأمر بواقعية وبعيداً عن الضغوطات الاجتماعية التي قد تمارس عليها ووازنت بين أن تعيش حياتها في عنوسة دائمة مع ما قد يصاحبها من متاعب وأمراض، وبين أن تدخل في زواج ثانٍ، فإنّها ستميل إلى الخيار الثاني، لأنّه أفضل الخيارات الممكنة، وإنْ لم يكن أمثل الحلول، وقد لاحظنا أنّ عدداً لا بأس به من النساء المسلمات اللواتي لا يردن لأنفسهن السقوط في متاهات الانحراف أو أن يقعن فريسة الاستغلال أخذن يتقبّلن فكرة الزواج الثاني، وربّما تخلّين عن بعض حقوقهن، كحقّ السكنى أو غيره، وهو ما عرف بزواج المسيار.

٤

الشذوذ الجنسي

ولا يمكننا أن نتجاوز الحديث عن القضية الجنسية لدى الشباب، دون أن نطلّ على مسألة حسّاسة، وهي قضيّة الشذوذ الجنسيّ، ولا سيما أنّه قد وردتني من بعض الشباب في أوقات مختلفة الكثير من الأسئلة حول الموضوع ببُعدَيه المعروفين، أعني علاقة الرجل بالرجل (اللّواط) وعلاقة المرأة بالمرأة (السّحاق)، فثمّة من سأل ويسأل عن دليل التحريم؟ وربما قال بعضهم: إنّ الله تعالى إنّما حرّم اللّواط في القرآن ولم يحرّم السّحاق.

وهناك من سأل أو يسأل عن السرّ في تحريم هذه العلاقة؟ وربما اعترض البعض على التحريم بأنّه كيف يحرّم الله تعالى أمراً قد أوجد مقدّماته في الإنسان، باعتبار أنّ الميول الشاذة ليست اختيارية، وإنّما هي مخلوقة مع صاحبها؟

إلى غير ذلك من الأسئلة التي تُطرح في هذا المجال، والتي تتزايد يوماً بعد يوم، ولا سيّما لدى الجيل الشاب. وقد كنت أجيب عن هذه الأسئلة تارة بإجابات كتبيّة، وأخرى بإجابات شفاهية، وقد قابلت بعض الشباب ممّن ابتلى بهذا العادة وامتلك الجرأة على أن يفصح عن مشكلته ويتحدّث عن معاناته ويقول ما عنده، وحاولت قدر المستطاع ثنيه عن ذلك بشتّى الحجج الإقناعية، وهذه البحث هو حصيلة تلك الأجوبة.

١ ـ تفاقم المشكلة

وبادئ ذي بدء أجد أنّ من الضروريّ الإضاءة على أمر حساس، ويشكّل مدخلاً منهجياً لا مفرّ منه في تناول المسألة المبحوث عنها وبيان أهميتها، وهو يتّصل بتوصيف هذه القضية، فهل نحن أمام حالة مَرَضيّة تحتاج إلى معالجة أم أنّنا أمام ظاهرة عادية وطبيعية، وعلينا تفهّم الأمر والتكيّف معه؟

لا يخفى أنّ هناك اتّجاهاً يصرّ على إخراج المسألة من دائرة التساؤل الإشكالي، ويعتبر أنّ الميل المِثلي هو ميل طبيعي واعتيادي، ولا يُفترض بنا التعامل معه باعتباره مرضاً أو مشكلة، بل لا بدّ من الاعتراف به وإظهاره وعدم كبته. ومن الواضح أنّ هذا الموقف ينطلق من خلفيّة ثقافيّة خاصّة، تقوم على رؤية معينة فيما يتّصل بالإنسان وحريته في التعبير عن ذاته، وحقّه في إشباع غرائزه كما يحلو له، وهي رؤيّة سادت مؤخّراً في بلاد الغرب، وتمّ تحشيد الكثير من مراكز القوى للدفاع عنها والانتصار لها.

ولكنّنا نختلف اختلافاً جوهرياً مع هذه الرؤية الرامية إلى تسويغ ما هو واقع، ولا يسعنا الموافقة عليها. ونرى أنّ ميزان الحقّ والباطل في مثل هذه الأمور لا يتحدّد في ضوء ما هو كائن وواقع، بل في ضوء ما ينبغي أن يكون، وما لا بدّ أن يقع، وذلك بحسب ما يحكم به العقل السليم ويؤيّده المنطق، وتشهد له الفطرة المستقيمة والوجدان غير الملوّث، فما أكثر الأمور الواقعة والمنتشرة بين الناس وهي من أوضح مصاديق الباطل، وأجلى أفراد الرذيلة والانحراف.

في المقابل، فإنّ علينا الاعتراف بوجود المشكلة أو الحالة المرضيّة، وعدم تجاهلها أو انكارها؛ لأنّ ذلك هو المدخل الأساس لمعالجتها. ولا يخفى أنّ ثمّة شريحةً من النّاس قلّ أفرادها أم كثروا، مبتلون بهذا البلاء، وبالتالي فإنّ علينا أن لا ندفن رؤوسنا في الرمال ونتجاهل وجود هذه المشكلة الآخذة بالتفاقم يوماً بعد يوم.

ويلاحظ أنّ هناك العديد من العوامل المساعدة على تفاقم المشكلة، وأهمّها وجود جماعات عالميّة منظّمة، ومعظم أعضائها من الأفراد الشاذين جنسياً، قد أخذت على عاتقها مهمّة الدفاع عن حقوق الشواذ، وقد باتت هذه الجماعات تشكّل ما يعرف بـ «اللّوبي» الضاغط، وهي تعمل عبر شتّى الوسائل الإعلامية.. وكذا وسائل التواصل الاجتماعيّ ليس على اجتذاب الأشخاص ذوي الميول المثلية، وتشجيعهم على الإعلان عن أنفسهم فحسب، بل وتسعى للضغط على الأحزاب السياسية ومراكز القرار والتشريع في العديد من الدول، ولا سيّما الغربية منها، للاعتراف بحقّهم في الزواج كغيرهم من الناس. وهكذا تدفع هذه الجماعات ـ مستعينة بكافّة وسائل الإعلام والدعاية ـ باتّجاه الإقرار بواقع قانونيّ جديد، تُلغي فيه تلك الدول المادة القانونية المعروفة لدى كافّة الشرائع السماوية والوضعية، والتي تنصّ على أنّ الزواج الشرعيّ هو الزواج القائم بين الجنسين (زواج الرجل بالمرأة) فقط، وتستبدل بفقرة جديدة تنصّ على مشروعيّة الزّواج داخل الجنس الواحد، لتغدو أصناف الزواج ثلاثة: زواج المختلفَيْن بالجنس، أعني زواج الرجل من المرأة، وزواج المتماثلَين في الجنس، وهذا الأخير ينشطر إلى قسمين: زواج المرأة من المرأة، وزواج الرجل من الرجل، وهذا ما حصل فعلاً حيث أقرّت قوانين بعض الدول الغربية بذلك.

وقد استطاعت هذه الجماعات انتزاع الكثير من الاعترافات بها، حتى من قِبَلِ بعضِ رجال الدين المسيحيين أو اليهود، ويعمل البعض على تسجيل اختراق في الفضاء الإسلاميّ الذي لا يزال رافضاً لهذا الأمر رفضاً قاطعاً.

٢ ـ وقفة مع التسمية

بعد هذه الإضاءة على المشكلة، أجدني ملزماً بالتنبيه على أمر آخر يتصل بتسمية هذه العلاقة وتوصيفها اللفظي، حيث يسعى البعض إلى استبدال التسمية

الشائعة لهذا النوع من العلاقة الجنسية القائمة بين شخصين من جنس واحد، وهي تسمية «الشذوذ»، بتسمية جديدة وهي «العلاقة المثليّة»، على اعتبار أنّ كلمة «الشذوذ» تحمل في ثناياها إدانة لهؤلاء أو توحي بالتحقير لهم وانتقاصهم.

ونحن وإن كنّا لا نمانع من إطلاق أو استخدام التسميات الجديدة، ونعتقد أنّ تغيير المصطلحات لا يغيّر من الواقع شيئاً، ولا سيّما أنّ مصطلح «الشذوذ» ليس هو المصطلح المستخدم في النصّ الإسلاميّ لتوصيف هذه الحالة، ولم يُعتمد أيضاً في الفقه الإسلاميّ، وإنّما المعروف في فقهنا مصطلحا: اللّواط والسّحاق. كما أنّنا في العمق ليست لدينا مشكلة مع الذي يمارس هذا العمل كإنسان، وإنّما المشكلة هي مع ممارسته للعمل نفسه، لما نرى في هذه الممارسة من مخاطر شتّى ليس على هؤلاء الأشخاص فحسب، بل وعلى غيرهم من أفراد المجتمع أيضاً، وهذا نظير ما نقوله في الكافر، فإنّنا لا نعادي فيه شخصَه بل كفره.

مع ذلك، فإنّي أعتقد أنّ تغيير المصطلحات عندما ينطلق من خلفيّة ثقافية معينة، لها رؤيتها الخاصّة في موضوع القيم والممارسات، فلا بدّ حينها من التوقّف عنده جيداً؛ لأنّه قد يشكّل مدخلاً يراد من خلاله التبشير بقيم جديدة مبنية على ثقافة أخرى، لها رؤيتها للأمور. وهي وانطلاقاً من هذه الرؤية، تسعى ـ فيما نحن فيه ـ للتخفيف من وطأة العمل نفسه وتصوير أنّه عمل طبيعيّ وغير مستقبح ولا مُدان، وهذا ما لا يمكننا الموافقة عليه مع احترامنا للآخرين. ولهذا فلنسمِّ الأشياء بأسمائها، فالعلاقة المثليّة هي حالة شذوذ؛ لأنّ القاعدة الأساس والحالة السويّة في العلاقات الجنسيّة هي العلاقة بين الذكور والأناث، وهي الحالة التي فطر الله الإنسان عليها وهداهم إليها بشكل تلقائيّ، كما فطرت سائر المخلوقات المتناسلة على ذلك أيضاً، أعني الميل إلى الجنس الآخر.

٣ ـ في الأسباب

وأمّا في الحديث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة، فلا يزال الجدل قائماً حول ذلك، وهل أنّ المشكلة هي تعبير عن انحرافات نفسيّة، أو أنّها تتّصل بخلل عضوي هرموني معين؟

وفي حين يرى بعض الأشخاص، ويؤكّد على أنّ التفسير العلميّ لهذه الظاهرة يعيد المسألة إلى خلل جيني وراثي حصل مع الأبوين في فترة انعقاد النطفة، أو حصل مع الطفل في المرحلة الجنينية، ما أدّى إلى أن يُخَلَقَ هذا الطفل ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وهو يحمل الميل إلى جنسه، تماماً كما هو الحال في الكثير من الحالات الوراثية مرضية كانت أو غيرها. في المقابل، فإنّ بعض الآراء العلميّة الموثوقة لا تزال تنفي كون المسألة في العمق ذات صلة بالجانب التكوينيّ والوراثيّ، ولا تقبل ربطها بخللٍ هرموني، وإنّما ترجعها إلى عامل نفسيّ يخضع لاختيار الإنسان وميله الإرادي إلى هذا العمل[1]، ويعزّز هذه الرغبة الاختيارية ويساعد عليها الكثير من الظروف والأجواء التي يعيشها الشخص، سواء كان ذلك في صغره أو كبره.

٤ ـ في الدليل على الحرمة

إنّ بيان الموقف الشرعيّ من هذه الظاهرة مهمّ للغاية، لما له من دور فاعل في محاصرة الظاهرة أو التخفيف من آثارها ونتائجها. كما أنّ بيان الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنة سوف يساهم في ردّ بعض الوساوس، ودفع بعض التشكيكات التي تثار إزاء هذا الحكم.

(١) انظر للتوسع حول الآراء المطروحة في المسألة كتاب الجنس الطبي للدكتور رائف رضا ص٣٥١.

أ ـ دليل حرمة اللّواط

لا أعتقد أنّ حرمة اللّواط في الشريعة الإسلامية قابلة للتشكيك، فهذا ما نصّت عليه العديد من الآيات القرآنية، ولا سيّما ما يتّصل بقضيّة قوم لوط الذين عُرف عنهم أنّهم كانوا يمارسون هذا الفعل. وقد نهاهم نبيّ الله لوط عليه السلام عن ذلك، وحذّرهم من أنّه في حال الاستمرار في هذا العمل، فسوف يصيبهم عذاب من الله تعالى على عدوانهم وتجاوزهم لكلّ الحدود الأخلاقية والضوابط الشرعية. قال تعالى منددّاً بهم، حاكياً عن لسان نبيهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

والملاحظ، أنّ الآيات المباركة إنّما ندّدت بالعمل نفسه واعتبرته عدواناً. والظاهر منها أنّ العقوبة الإلهية التي طالتهم إنّما هي على الانحراف السلوكيّ نفسه، بصرف النظر عن عقيدتهم في هذا المجال، وما إذا كانوا يرونه عملاً مشروعاً أو محرماً، بل لا يبدو من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن قوم لوط أنّهم كانوا يرون شرعيّة لهذا العمل ويسندون ذلك إلى الله تعالى، لِيرد احتمال أنّ تكون العقوبة التي طالتهم هي على اعتقادهم وتشريعهم وتقوّلهم على الله تعالى، كما توهّم بعض الأشخاص من المبتلين بهذا العمل.

ب ـ دليل حرمة المساحقة

وأمّا الشذوذ الجنسي الحاصل بين النساء أنفسهن (السحاق)، فيمكن أن يستدلّ على حرمته بما يلي:

أولاً: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[المؤمنون: ٥ ـ ٧]، وذلك بتقريب أنّ الآية المباركة دلّت على أنّ العلاقة الجنسيّة المشروعة

تنحصر بأحد طريقين: وهما الزواج وملك اليمين، وأمّا ما عدا ذلك، ومنه العلاقة الجنسيّة داخل الجنس الواحد فهي عدوان ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾، والعدوان هو تجاوز الحدود الشرعية وهو محرم، وينبغي تحصين الفرج عنه. وفي ضوء هذا البيان، فلا يصحّ الاعتراض بأنّ الآية واردة في شأن الرجال، وذلك لأنّ القاعدة المستفادة منها عامّة.

ثانياً: ورد في الروايات الكثيرة المرويّة من طرق المسلمين سنة وشيعة، ما يؤكّد على حرمة الممارسة المذكورة (السحاق) بشكل لا لبس فيه:

فمن طريق السُّنة روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**السّحاق بين النساء زنا بينهن**»[١].

وأما من طرق الشيعة فالروايات في هذا المجال كثيرة جداً[٢]:

١ـ فبعضها دلّت على حرمة ذلك بشكل صريح، كما في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن «اللّواتي مع اللّواتي» ما حدّه؟ قال: «**حدّ الزنا**»[٣].

٢ ـ وبعضها دلت على ذلك بطريق الأولوية، فقد حرّمت بعض الروايات[٤] أن تنام امرأتان في لحاف واحد مجردتين من الثياب، فكيف هو الحال فيما لو تعدّت المسألة حالة النوم! كما أنّ روايات أخرى قد حرّمت نظر المرأة إلى عورة نظيرتها، ففي حديث المناهي عن رسول الله ﷺ: «**ونهى أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة**»[٥]، فإذا كان نظر المرأة إلى عورة المرأة ـ ولا سيّما إذا كان بشهوة

(١) كنز العمال ج٥ ص٣١٦.
(٢) يراجع وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٠ ص٣٤٤ فقد أورد ما يزيد على عشرة روايات تدلّ على ذلك.
(٣) الكافي ج٥ ص٥٥٢.
(٤) انظر: وسائل الشيعة ج٢٠ ص٣٤٢، الباب ٢٥ من أبواب النكاح المحرم.
(٥) انظر: من لا يحضره الفقيه ج٤ ص٩.

وريبة ـ محرّماً فكيف تباح الممارسة المذكورة؟!

٣ ـ وبعضها دلّت على أنّ هذا العمل حرمّه الله في القرآن الكريم، ففي الرواية الصحيحة أنّه دخل على الإمام الصادق عليه السلام نسوة، فسألته امرأة منهن عن السحاق؟ فقال: **حدّها حدّ الزنا**. فقالت المرأة: ما ذَكَرَ اللهُ عزّ وجلّ ذلك في القرآن؟ فقال: «**بلى هنّ أصحاب الرس**»[1].

وأصحاب الرسّ هم قوم ورد ذكرهم في القرآن الكريم في عداد الأمم الماضية التي شملها العذاب الإلهيّ، والرواية تقول: إنّ سبب ذلك هو ممارستهن للسحاق.

ثالثاً: وقد تستفاد حرمة هذا العمل من حرمة اللّواط نفسه، إذ إنّ التشريع الإسلامي إنّما حرّم اللّواط باعتباره يمثّل خروجاً بيّناً عن الطبيعة التي فطر الله الناس عليها، وانحرافاً عن السنة الإلهية في هذا المجال، وهي سنَّة التزاوج بين الذكور والإناث، فكلّ انحراف عن هذه الفطرة يكون مبغوضاً للمولى تعالى، سواء كان بين الذكران أنفسهم أو بين الإناث أنفسهن.

ومن هنا كانت حرمة العمل المذكور (السّحاق) مورد تسالُم عند علماء المسلمين وعامتهم، بحيث يمكن القول: إنّها من الضرورات الدينية.

٥ ـ فلسفة تحريم الشّذوذ

ومع أنّ الدليل على الحرمة تامٌ ولا غبار عليه، بيد أنّني أعتقد أنّه لا ينبغي أن نكتفيَ في مواجهة هذه الظاهرة بذكر دليل الحرمة، وإنّما علينا أن نبيّن فلسفة هذا الحكم الشرعيّ الرافض لهذه العلاقة، ليجتنبها الإنسان المسلم أو يرفضها عن وعي وقناعة، ولا سيما أنّه قد كثرت في زماننا الشُّبهات التي تثار في وجه هذا الحكم.

(١) الكافي ج٧ ص٢٠٢.

وغير خافٍ أنّ الإسلام ما اتّخذ هذا الموقف المتشدد والصارم من هذه الممارسة الشاذة ببعديها (اللّواط والسّحاق)، وما كان حازماً في رفضها، إلا لاعتبارات منطقية وعقلائيّة، ولم ينطلق المشرّع الإسلاميّ في تشدّده هذا من منطلق الانتقام من هذه الشريحة، ولا من منطلقات مزاجيّة أو عشوائية أو عبثية. فالمشرّع حكيم وعاقل بل هو سيّد العقلاء، وأحكامه التشريعية ـ كما هو معلوم ـ تابعة للمصالح والمفاسد الكامنة في متعلقات الأحكام، ولا تُبنى على أساس الأهواء والأغراض الخاصة؛ ولذا فإنّنا على يقين أنّه قد راعى مصلحة النوع الإنساني عندما حرّم هذا العمل ومنع منه، ويمكننا أن نشير إلى اعتبارين أساسيين في هذا المجال في بيان فلسفة الحكم بالحرمة:

أولاً: أنّ في هذا الفعل الشاذ ـ ببعديه المعروفين ـ الكثير من المضار والمفاسد الاجتماعيّة والنفسيّة والأخلاقيّة والروحيّة وربما الصحيّة، وقد كُتب في هذا المجال، ـ أعني في بيان مضار هذا العمل ـ العديد من الكتب، ونشرت الكثير من الدراسات من قبل أهل التخصّص، ما كفانا مؤنة الإسهاب في الحديث عنه. مع الإشارة هنا إلى ضرورة أن تُطرح المضار المذكورة على نحو الحكمة لا العلّة، بمعنى أن يُطرح الأمر كوجهٍ محتمل للتحريم ولا يُبتُّ في الأمر، بل تبقى القضيّة موضع متابعة ورصد لكلّ جديد، لأنّ العلم في حالة تطوّر مستمرّ ويأتينا كلّ يوم بجديد.

ثانياً: لا يخفى أنّ ثمّة قانوناً إلهياً (أو سُنة إلهية) يحكم جميع المخلوقات الحيّة المتناسلة، وهو قانون الزوجيّة، فتزاوج الذّكور من الإناث هو الذي يضمن استمرار النسل البشريّ، وهو المبدأ الذي ينسجم مع الفطرة الإنسانية، التي تقوم على أساس أنّ الذكر يميل إلى الأنثى وبالعكس. ومن أهمّ مزايا الإسلام، أنّ أحكامه التشريعية تنسجم وتتماهى مع السُّنن التكوينيّة، فهو ينسجم مع الفطرة ولا يلغيها.

أجل، يبقى أنّ لكلّ قاعدة تكوينية استثناءات معيّنة، تجري على خلاف القاعدة، لأسباب خاصة تنشأ عن خلل معيّن. وهذه الاستثناءات قد لا يجد المشرِّع أنّ من المصلحة أن يسمح لها بالتمادي حتى لا تنتهك القاعدة، ويتحوّل الاستثناء إلى مبدأ، وإنّما يدعوها إلى أن تكيّف نفسها مع القانون العام وتتماشى مع الظاهرة العامة، وهذا أمر ـ رغم صعوبته ـ ميسور، ومفاسد هذا التكيّف وضحاياه هي أقلّ بكثير من مفاسد تشريع الشذوذ.

٦ ـ هل ظَلم الشّرعُ الشاذين؟

وربّما يقال: أليس من الظلم دعوةُ الشاذّين إلى التكيّف مع الوضعيّة الطبيعيّة والقاعدة العامة، وهي التزوّج من الجنس الآخر، مع أنّهم لا يجدون ميولاً أو رغبة في ذلك؟ ثم أليس من الظلم معاقبة إنسان على أمر ليس في اختياره، لأنّ ميل هؤلاء هو إلى جنسهم ـ أعني ميل الذكر إلى الذكر والأنثى إلى الأنثى ـ وهذا أمر لا إرادي، وُلِدَ معهم، فكيف يُعَاقَبون على تجاوبهم وتماهيهم مع أمر غرسه الله فيهم؟

وإن شئت فقل: إنّ الشاذّين قد ظُلموا مرّتَين، مرّة عندما خُلقوا وهم يحملون ميولاً شاذّة على خلاف سائر الناس، ومرّة أخرى عندما طَلَبَ منهم خالقُهم أنّ يَكَبِتوا ميولهم، محرِّماً عليهم الانسياق معها، فثمّة ظلم تكوينيّ لحق به وآخرُ تشريعيّ.

والجواب على ذلك:

أولاً: إنّنا لا نوافق على أنّ ثمة ظلماً تكوينياً (من قبل الخالق تعالى) لهؤلاء، والوجه في ذلك:

أ ـ إنّ الميول المثليّة ليس ثمّة ما يثبت بشكل حاسم وكليّ أنّها ناشئة عن خلل

جيني تكويني، بل إنّ الكثير منها ينطلق من حالة انحراف وقع فيه الشاذ باختياره أو أُوقع فيه من خلال اعتداء جنسيّ عليه. إنّ كثيراً من الأشخاص قد ساروا إلى هذا العمل بأرجلهم وكامل إرادتهم، وربّما انجرّ البعض إليه نتيجة هوس جنسيّ دفعه إلى تجرّبة كلّ أشكال العلاقات الجنسية! وهنا تقع المسؤولية دون شكّ على عاتق الإنسان نفسه، لأنّه اختار الانحراف عن خطّ الفطرة وخطّ التشريع، كما أنّ البعض الآخر من ذوي الميول المثليّة، قد ابتلوا بذلك نتيجة عارض معيّن، كما لو حصل اعتداء جنسيّ عليهم وهم في سنّ الطفولة، فأصبحوا يميلون إلى هذا النوع من العلاقات المنحرفة، نتيجة الاعتياد على ذلك. وفي هذه الحالة، فإنّ هذا الانحراف إنّما يتحمّل مسؤوليّتَه الإنسانُ نفسُه بتجاوزه الحدود الشرعية واعتدائه على هذا الطفل الذي أدخله في بوتقة الانحراف، وليس صحيحاً أن يُنسب الأمر إلى الله تعالى، ولا سيّما أنّ مشيئة الله تعالى جرت على أن يكون هذا العالم محكوماً لمبدأ السنن والقوانين، فمن وضع إصبعه في النار فلا بدّ أن تحترق، ومن سقى غيره السمّ فلا بدّ أن يتسبّب ذلك في قتله.. وإذا حصل شيء من ذلك، فالمعتدي هو من يتحمّل المسؤولية وليس خالق القوانين.

ب ـ إنّ الميول المثليّة لو سلّمنا أنّها أو بعضها على الأقلّ ناتجة عن خلل جينيّ، ولكن على أيّ حال لا يتسنّى لنا القول: إنّها تُمثّل ظلماً للشخص من قبل الخالق باعتباره القادر على منع ذلك، والوجه في ذلك: أنّ الله تعالى قد أجرى هذا الكون على أساس القوانين الحاكمة، ولا يتدخّل سبحانه بشكل مباشر في تعديل بعض المسارات التكوينيّة الطارئة حتى لو علم بذلك. والقوانين وإن كان من ميزتها عدم التخلّف، لكن هذا إذا لم يحصل تخلّف في الأسباب والمقدّمات والموانع، والتخلّف المذكور قد يحصل نتيجة خطأ ما يؤدّي إلى الانحراف في مسار القانون الذي يحكم الظاهرة. وهذا الخطأ قد يتسنى لنا اكتشافه في مرحلة مبكرة، وفي هذه الحال ربّما يستطيع الإنسان نتيجة تقدّم العلم أن يتلافاه كما

تلافى الكثير من الأمراض الوراثية، وقد لا يتسنّى لنا اكتشافه. وعلى التقديرَين، فالله تعالى ليس هو علّته المباشرة، وإن كان ينسب إليه باعتباره خالق هذا النظام الكونيّ بقوانينه وظواهره.

ثانياً: إنّ منع ذوي الميول المثليّة من الانسياق مع ميولهم ليس فيه ظلمٌ تشريعيّ (من قبل المشرّع) لهم، وذلك:

أ ـ إنّ هذا الميل لا يبلغ حدّ الإلجاء والقسر، وانتفاء قدرة هؤلاء على السيطرة على إرادتهم. فرغم وجود هذا الميل لدى الإنسان، فإنّه يظلّ قادراً على ضبط نفسه وعدم الانجراف مع هواه، تماماً كما يقدر الإنسان ذو الميل الطبيعيّ على عدم السّقوط تحت ضغط الغريزة والارتباط الجنسيّ المحرّم بالجنس الآخر، وذلك فيما لو لم يتسنَ له إقامة علاقة شرعيّة معه لسبب أو لآخر، وكما لا نبرّر لهذا الشخص (صاحب الميل الطبيعيّ) إقدامه على الزِّنا، فإنّنا لا نبرّر لذاك إقدامه على ممارسة الشذوذ، ولا سيّما أنّ الميول الشاذة قد يمكننا التغلّب عليها ولو بمشقّة ومعاناة من خلال العلاجات النفسية أو الروحية أو غيرها.

ب ـ إنّ المشرّع الحكيم ـ كما قلنا ـ يراعي في تشريعاته المصلحة النوعية للإنسان، وقد قدّر أنّ المصلحة النوعيّة هي في إقرار مبدأ التزاوج بين الجنسين، وأمّا العلاقات المثليّة فبما أنّه يترتّب عليها الكثير من المضار النفسيّة والصحيّة والاجتماعيّة ـ كما قلنا ـ لذا فقد أصدر حُكماً عامّاً بمنعها وحظرها، حرصاً منه على مصلحة النوع حتى لو ذهب ضحية ذلك بعضُ الأشخاص ممّن سيضطرهم الحظر المذكور إلى التكيّف مع الوضع الطبيعيّ.

ت- وهذا الأمر لا يختصّ به المشرّع الإسلامي دون سواه، بل إنّنا نلاحظ في هذا المجال أنّ كافة المشرّعين حتّى الوضعيّين منهم، لا يسمحون للرغبات الشاذة أن تعبّر عن نفسها في مختلف الأحوال والظروف، ألا ترى أنّ بعض

الناس قد يكون لديه ميل إلى الممارسة الجنسية مع القاصرين من الذكور أو الإناث، والبعض أيضاً لديه ميل لإقامة علاقة مع البهائم، أو مع الأرحام، ولا تسمح كافّة القوانين لهؤلاء أن يُظهروا رغباتهم ويمارسوا مشتهياتهم، ولا يُصغى إلى مزاعمهم وادعاءاتهم بأنّ تلك الميول هي ميول لا إرادية بالنسبة إليهم.

٧ ـ سُبل العلاج.. واجبنا وواجبهم

وفي بيان سُبل العلاج والمواجهة، فإنّ هناك مستويين من المسؤوليات: مسؤوليات تقع على عاتق الفرد المبتلى بهذا العمل، ومسؤوليات تقع على عاتق المجتمع والجهات المختصّة والمسؤولة، وسوف أبيّن هذه المسؤوليات ضمن النقاط التالية:

أولاً: الخطاب الجاذب

علينا أن ندرس جيداً الأسلوب الأجدى في خطاب الشاذّين، لأنّ غايتنا ليست هي رجمهم ولا قتلهم، لا قتلاً ماديّاً ولا معنويّاً، وإنّما غايتنا هي إحياؤهم روحياً ومعنوياً، وإنقاذهم من براثن الشذوذ ومخالب الانحراف. والأسلوب الجاذب والمحبّب هو الذي يمكن أن يفتح قلوب هؤلاء على الاستماع إلينا، ويجعلهم على استعداد لتقبّل كلامنا وأدلّتنا؛ لأنّ المشكلة أنّ من كان مُبتلى بهذا الأمر فهو لا يُصغي لمنطق الأدلة بقدر ما يصغي إلى أحاسيسه الخاصة ورغباته الملحّة، ويحاول أن يفتّش عن مبرّر أو غطاء شرعيّ لعمله. ولهذا لا أعتقد أنّنا نخطئ إذا ما قلنا: إنّ المطلوب أن نتفهّم وضع هؤلاء ونقدّر معاناتِهم، والتفهّم لا يعني أن نبرّر لهم ذلك أو نعطيهم شرعية لعملهم.

ثانياً: تضافر الجهود

ومن الضروريّ أن تتسارع البحوث التخصّصيّة المتّصلة بمسألة الشذوذ الجنسي، سواء ما يتّصل منها بالعلاج النفسي أو العلاج العضوي، ليتمّ بذلك إيجاد حلول علميّة وعمليّة لمعاناة هذه الفئة من الناس، الذين يشعرون لسبب أو لآخر بميول غريزية إلى جنسهم لا إلى الجنس الآخر. وإنّ المساعدة في إيجاد حلول لهؤلاء، هي من أفضل الأعمال التي ينبغي العناية بها والتشجيع عليها؛ لأنّه لا يكفي أن نُدِين الشذوذ الجنسي ونجرّم الشاذّين جنسياً دون أن نسعى لإيجاد حلول لمشاكلهم، إنّ المطلوب منّا أن نعينهم على التخلّص من معاناتهم وأن ننفتح عليهم، لنُقدّم لهم النصائح التربوية والأخلاقية التي تشدّ من أزرهم وتمنحهم الثبات أمام إغراءات النفس الأمّارة بالسّوء، ونبيّن لهم أنّ مجاهدتهم لهذه النفس وعدم الانسياق مع الغريزة في شذوذها وانحرافها، هو عمل فيه ثواب كثير وأجر جزيل عند الله تعالى، بل إنّ هذا في حقيقة الأمر هو أحد ميادين مجاهدة النفس، والتي هي الجهاد الأكبر كما عبّر الحديث النبويّ الشريف.

ثالثاً: العمل المؤسّسي المتخصّص

وإنّي أعتقد أنّ عدم توجّه المؤسّسات الإسلامية التربوية والاجتماعية، وعدم عنايتها بهذه الفئة القليلة من الناس، وترك الأمر لغير الملتزمين دينياً ليتابعوا مشكلة هؤلاء، سوف يزيد من تفاقم المشكلة في مجتمعاتنا؛ ولهذا ندعو إلى إنشاء مؤسّسات تُعنى بأمثال هؤلاء، وتعمل على تحصينهم روحيّاً وتربويّاً، وتدرس أوضاعهم بشكل علميّ في سبيل الأخذ بأيديهم إلى برّ الأمان، تماماً كما أنّ علينا العمل أيضاً على إنشاء مؤسّسات تُعنى بمعالجة مشاكل الإدمان على المخدرات أو غيرها من المشاكل.

في ضوء هذه النظرة، فإنّ معالجة المشاكل الاجتماعية والعادات الشاذّة

والمنحرفة، تعني أنّ من الضروري أن تتضافر الجهود، ويُستعان بشتّى الخُبرات الدينيّة والنفسيّة والاجتماعيّة والتربويّة والإعلاميّة في سبيل محاصرة هذه العادات الشاذّة، والحدّ من تأثيرها، وذلك بمواجهتها على مستوى المقدّمات والأجواء التي تهيّئ الأرضية الخصبة للانحراف وتساعد عليه..

رابعاً: النظر إلى القضيّة باعتبارها ابتلاءً

ويجدر بنا في أسلوب الخطاب الديني، أن نُدرج هذا العمل في نطاق ما يُعرف بالابتلاء، والابتلاء يعني الامتحان والاختبار، وعندما يُبتلى العبد بشيء مَرَضيّ أو نحوه، فإنّ ذلك لا يعني استسلامه للأمر الواقع، بل يجدر به وبمن حوله السعي للتغلّب على المشكلة بشتى الوسائل، ومن ذلك اللّجوء إلى أهل الخبرة والاختصاص. كما أنّ تصنيفه في عداد الابتلاء لا يعني الاعتراف بأنّ الله تعالى هو الفاعل المباشر لذلك، فقد ذكرنا سابقاً أنّ الإنسان هو المسؤول عن معظم حالات الشذوذ بشكل أو بآخر، ولكن ذلك لا يُلغي ولا ينفي حقيقة أنّ المسألة تقع في دائرة القضاء والتقدير الإلهيَّين، فكلّ الحوادث داخلة في القضاء والقدر، والله تعالى كما يبتلي العبد بما يفعله به بشكل مباشر أو بواسطة الأسباب، فإنّه قد يبتليه بما يجنيه العبد على نفسه. وإنّ تفسير هذه الظاهرة باعتبارها ابتلاءً إلهيّاً يعني:

١ ـ أنّ على العبد أن لا يتعامل مع الموضوع بنوعٍ من الإحباط واليأس، أو ينظرَ إلى ذلك باعتباره «انتقاماً إلهياً» منه، وإنّما هو اختبار له يُراد من خلاله صقل شخصيّته واختبار صبره وإيمانه. وعليه أن يلتفت إلى حقيقة واقعيّة، وهي أنّه إذا كان قد ابتُلي بمثل هذا الابتلاء (الميل إلى العلاقة مع أبناء جنسه)، فإنّ هناك من يُبتلون بأشكال وأنواع أخرى من الابتلاء، وقد يكون بعضها أشدّ ممّا ابتُلي به، فمن الناس من يُبتلى في صحّته، ومنهم من يُبتلى في ماله، ومنهم من يُبتلى في

ولده، وما إلى ذلك من أشكال الابتلاء، وإذا تعاملنا مع هذه المشكلة بعنوان أنّها ابتلاءٌ فهذا سيخفّف من وطأتها على أنفسنا، ويدفعنا للتوجّه إلى الله تعالى ليساعدنا على التخلّص منها.

٢ ـ كما أنّ درج المسألة في نطاق الابتلاء، سيدفع نحو القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى للإنسان، وهذه فضيلة مطلوبة، وأهميّتها أنّها ستحُول دون أن يقع الشخص المبتلى بفخّ الاحتجاج أو الاعتراض على إرادة الله، أو التحرّك في أسلوب معالجة المشكلة إلى الطُّرق الخاطئة. وإنّي على يقين بأنّ صبر المبتلى بهذا البلاء، وعدم انسياقه مع هوى النفس الأمّارة بالسوء، وعدم خضوعه لشتّى الإغراءات المحيطة به، هو نوعُ جهادٍ في سبيل الله تعالى، وأنّه إذا توكّل على الله وانفتح عليه بكلّ مشاعره وكيانه معتمِداً أسلوباً خاصّاً في المجاهدة الروحيّة، مع الابتعاد عن رفقاء السُّوء الذين يزيّنون له الأمور أو يهوّنون له الخَطْبَ، فإنّه سيصل بعون الله تعالى إلى خاتمة سعيدة لمشكلته. ولا ريب أنّ الله تعالى لن يتخلّى عمّن توجّه إليه، وأخلص له طالباً منه التسديد، بل سيمدّه بالمساعدة والعون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

خامساً: تهيئة الأجواء

ومن الضروريّ أن يهتم الشخص المبتلى بهذا الابتلاء ـ بالإضافة إلى ما تقدّم من الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه ـ باختيار أصدقائه وانتقائهم، فإنّه لن يتسنّى له الخروج من هذا المأزق إذا كان أصدقاؤه من الشاذّين جنسياً أو المنحطّين أخلاقياً وروحياً. وإذا كانت رفقة السُّوء تُعدي، وهي إحدى مداخل الانحراف والفساد الأخلاقيّ، فإنّ التخلّي عن هذه الرفقة هي الشرط الأساس لنجاح الإنسان في الخروج من بوتقة الانحراف. ومن هنا يجدر به أن يبادر وبكلّ جرأة إلى مقاطعة هذه البيئة السيّئة، واستبدالها ببيئة صالحة ورفقة خيّرين، ففي

الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**صحبة الأخيار تُكسب الخير كالريح إذا مرّت بالطيب حملت طيباً، وصحبة الأشرار تُكسب الشرّ كالريح إذا مرّت بالنتن حملت نتناً**»[١].

وهكذا، فإنّ من المفترض بالشخص المُبتلى أن يعمل على سدّ كافّة المنافذ المؤدّية إلى الانحراف والمساعدة على ارتكاب الفاحشة، من قبيل النظر إلى الأفلام التي تروّج للانحراف، أو تشتمل على مشاهد ممارسة الشذوذ، ويشتغل بدلاً عن ذلك بما ينمّي مناعته الروحية، أو يُثري عقله وفكره ويُشغل أوقات فراغه بالعمل النافع.

ومن المهمّ والمفيد أيضاً أن يعمل الأشخاص المعالجون والتربويّون ـ بالإضافة إلى تنمية القيم الأخلاقية لدى المبتلى، ولا سيّما قيمتَي الحياء والعفّة، بما يدفع تلقائياً إلى اجتناب العلاقة الجنسية الشاذة ـ على تطوير إحساس تنفيريّ من هذا العمل القبيح لدى الشخص المبتلى بذلك، بحيث يستحضر عندما تعتريه الوساوس بعض الصور والمشاهد المنفرة منه أو الزاجرة عنه كاستحضار مشاهد القيامة والحساب أو ما إلى ذلك.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٣٠٤.

٥

أسئلة متنوّعة حول الحبّ وملك اليمين والحور العين

وأرى من المناسب أن أتطرّق في ختام هذا المحور إلى جملة من الأسئلة المتنوّعة، التي وجهّت إلي في مناسبات عدة، وهي تتّصل بعنوان هذا المحور بشكل أو بآخر.

١ ـ الحبّ بين الجنسَين

من القضايا التي يُسأل عنها باستمرار، هي حكم الحبّ الناشئ بين الجنسَين الذي يسبق حالة الزواج، والذي قد ينتهي بالعقد وقد يفشل ولا يتكلّل بالنجاح، فما هو حكم هذا الحبّ؟

والجواب[1]: إنه لا بدّ من التفصيل بين نوعين من الحبّ:

النوع الأول: حالة العشق التي تربط الرجل بالمرأة المُحصنة (المتزوجة)، أو حالة العشق بين الرجل والمرأة التي لا تحلّ له لسبب أو لآخر، كما لو كانت من محارمه. فهذا النوع من العشق هو عشق محرّم، وعلى الإنسان أن يضع حدّاً له، ولا يسترسل معه في إظهار المشاعر بالقول أو الإيماءة أو نحو ذلك.

ربما يكون العشق في مبادئه غير اختياري للإنسان، وما ليس بالاختيار لا

(١) بحثت هذا الموضوع بشكل مفصل في كتاب: وهل الدين إلا الحب ص١٨١ وما بعدها، فليراجع، وما هو مذكور هنا هو مقتبس من ذاك البحث.

يمكن أن يقع مورداً للذمّ واللّوم، ولكنّ امتدادات هذا الحبّ وتعبيراته التي تتجسّد في القول أو في الفعل، هي بشكل أو بآخر تحت إرادة الإنسان. ومن هنا، فإنّ من واجب الإنسان أن يسيطر على مشاعر الحبّ، وأن لا يسمح لها بالتمادي عندما يكون الطرف الآخر ممّا لا يتسنّى له الارتباط الزوجيّ به لمانع شرعيّ، كما لو كان الطرف الآخر متزوجاً ـ مثلاً ـ. وعليه أن يعمل على أن يبرّد من غلواء المشاعر والحال هذه، ولا سيّما أنّ إظهارها قد يتسبّب بتخريب العلاقة الزوجيّة للطرف الآخر. وغالباً ما يحصل هذا الأمر (العشق المحرّم) مع الطرفَين اللذين كانت تربطهما حالة حبّ معيّن أو مشاعر ودّية قبل الزواج أو منذ الصغر، ثم تتحرّك الظروف بطريقة لا تساعدهما على الارتباط الزوجيّ، فترتبط المرأة برجل آخر، وتبقى تلك المشاعر القديمة دفينة في داخل قلبها أو داخل قلب الرجل، ولا يستطيعان لها دفعاً أو تذويباً.

النوع الثاني: حالة الحبّ بين طرفَين يكون الارتباط العقدي بينهما مباحاً في ظرف تحقّق هذه المشاعر، وفي هذه الحالة ليس ثمّة ما يمنع شرعاً من هذه المشاعر، ولا دليل على حرمتها أو وجوب كبتها. أجل، ينبغي الحرص على تنزيهها ـ قدر المستطاع ـ عن أجواء الإثارة الشهوانية، لتبقى حالة حبّ عذري يطوف في القلب، وليس حالةً غرائزية تثير شهوات الإنسان.

وقد لا نحتاج دليلاً على شرعيّة هذا النوع من الحبّ؛ لأنّه إنْ كان تعبيراً عن مشاعر لا إرادية فقد ذكرنا أنّه لا مجال لتعلّق التكليف بهذه المشاعر والنهي عنها، بل لو احتفت هذه المشاعر والعواطف بحالة من الوعي والتصميم الإرادي في استحضارها وتعميقها في النفس، فإنّ ذلك لا يخرجها عن المشروعية، وليس ثمّة ما يمنع منها، أو يقتضي حرمتها. ولسنا نجد في النصوص الدينية ما ينهى عنها أو يعتبرها عيباً أو دنساً، بل إنّنا لا نعدم نصوصاً دينية تعتبرها حالة إنسانيّة

طبيعيّة وتقرّها، فالقرآن الكريم عندما أصدر تعليماً قضى بموجبه منعَ النبيّ ﷺ من الزواج بامرأة أخرى تضاف إلى ما عنده من زوجات، فإنّه ـ أعني القرآن ـ أشار بلطفٍ إلى تواجد هذه الحالة البشرية عند رسول الله ﷺ، وهي أنّه ﷺ قد يُعجب بالمرأة الحسناء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾[الأحزاب: ٥٢].

واستناداً إلى هذه الآية المباركة ونصوص أخرى، علينا التفريق بين نوعَين من نظر أحد الجنسين إلى الآخر، مع عدم وجود رابطة شرعية بينهما، وهما: النظر التلذّذي الشهويّ، والنظر الإعجابي. والنظر المنهيّ عنه هو الأول دون الثاني، وليس صحيحاً أنّ النظر الإعجابي لا ينفكّ عن التلذّذ الشهويّ، فالرجل قد ينظر إلى المرأة الحسناء بإعجاب، تماماً كما ينظر بإعجاب إلى ابنته فيسرّه النظر إليها، أو كما يتطلّع إلى المناظر الجميلة فيعجبه ذلك، وهكذا الحال في المرأة، فإنّها قد تنظر إلى الرجل نظر إعجاب غير شهوي وقد تنظر إليه نظراً شهوياً غرائزياً، والمحرّم هو الثاني.

وخلاصة القول: إنّ الحبّ إذا تحوّل إلى حالة غرائزية بعيداً عن العقد الشرعي الذي ينظم العلاقة ببين الجنسين، فإنّه يغدو مذموماً ومرفوضاً، فضلاً عما إذا امتدّ إلى ما هو أبعد من ذلك فتحوّل إلى وصال بين الطرفَين.

إنّ الحبّ الصادق هو الذي لا يتقدّم فيه حبّ الآخر على حبّ الله، ولا يتجاوز شريعته وحدوده، كما أوضحنا ذلك مفصلاً في كتاب «وهل الدين إلا الحبّ؟».

٢ ـ استغلال الموضوع الجنسيّ في لعبة الدم

وقد وردني سؤال من قبل بعض الأخوة، يقول فيه: لقد كثر الحديث عن الحور العين التي تستقبل المجاهدين عند استشهادهم، وهذا ما يتمّ استغلاله

من قبل بعض الجماعات التكفيرية التي تعمل على تعبئة أفرادها على أساس أنّه بمجرّد أن يفجّر الواحد منهم نفسه، فإنّ عشرات الحوريات هنّ في انتظاره، فما تعليقكم؟!

وأجبته: من الواضح أنّ القرآن الكريم قد أكّد على الاستمتاعات الحسّية لأهل الجنة، من قبيل الحديث عن الحور العين ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[الدخان: ٥٤]، أو فواكه الجنة، وأنهار اللبن والعسل والخمر، مضافاً إلى الحديث عن الاستمتاع بجماليات الجنة من قبيل النظر إلى الأنهار والأشجار وغيرها. إلا أنّ ثمّة نوعاً آخر من الاستمتاعات المعدّة لأهل الجنة، وهي الاستمتاعات المعنوية وهي الأهمّ، وهذا ما ينبغي أن يتطلّع له المؤمن، ولا سيّما المجاهد في سبيل الله، ويأتي على رأس هذا النوع من المتع: كسب رضوان الله تعالى، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢]، ومنها: مجاورة الأنبياء عليهم السلام والأولياء والصديقين والشهداء، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩]. ولهذا فإنّ التركيز في بعض الخطابات التعبوية على الاستمتاعات الجنسيّة ومعانقة الحور العين مع شبه إغفال لحقيقة الجنة باعتبارها دار لقاء الحبيب وهو الله تعالى، وتعتيم على سائر الاستمتاعات الحسيّة والمعنويّة فيها هو أمر مريب ولا يخلو من استغلالٍ للجانب الجنسيّ الغرائزي لدى هؤلاء الشباب، الذين ربما يعيش الكثيرون منهم حالة من الكبت الجنسيّ، فتتمّ استمالتهم بمثل هذا الخطاب الذي يلقى صدى في نفوسهم، وفي ذلك أيضاً تشويه لصورة الإسلام، وصورة الإنسان المسلم، والذي يتمّ تصويره وكأنّه إنسان تحرّكه الغريزة، ويعيش جوعاً جنسياً حتى في لحظات مواجهة الموت!.

إنّ ما يجري باختصار، هو استغلال للمفاهيم الدينية المقدسة بطريقة مجتزئة ومشوّهة، وفي لعبة قذرة هي لعبة الدم.

إنّ علينا أن نتوجّه إلى هؤلاء الشباب الضحايا الذين تُفَخَّخ عقولهم بأحاديث معانقة الحور العين عند موتهم، لنقول لهم: مَنْ يضمنُ لكم أنّ أعمالكم الانتحارية التي تقومون بها في قتل المسلمين وكلّ الأبرياء ستدخلكم الجنة أساساً حتى تعانقوا فيها الحور العين؟!، إنّ مفاتيح الجنة هي بيد الله تعالى، فلا يبيعنّكم أحدٌ صكوك غفران أو أوهاماً كاذبة. إنّ رسول الله ﷺ وهو أكرم الخلق على الله تعالى لم يكن يضمن لبعض صحابته الجنة، فمن يضمنها لكم أيّها المساكين؟!، فقد ورد في الحديث أنّ رسول الله ﷺ وعند وفاة بعض أصحابه المدعو سعداً، اهتمّ ﷺ بتغسيله وتكفينه وأشرف على دفنه، فلمّا رأت أم سعد ذلك قالت: هنيئا لك يا سعد الجنة، فقال لها النبيّ ﷺ: «**يا أم سعد لا تحتمي على الله!**»[1]، أي إنّ الجنة ليست بأيدينا، وإنّما هي بيد الله، كما أنّ أمر النار هو بيده تعالى، والغريب في العقل التكفيريّ أنّه يضمن الجنّة لأتباعه ويضمن النار لخصومه، ليس خصومه في الدين والمذهب فحسب، بل خصومه في التوجه التكفيري عينه، وعلى الإسلام السلام إذا لم تصحَ هذه العقول من سبات التفكير وسكرة العصبية.

٣ ـ بين المهر المؤجّل والمعجّل غير المقبوض

وسأل بعضهم: أيّهما أكثر ضمانة للفتاة المقبلة على الزواج: المهر المعجل غير المقبوض أو المهر المؤجّل؟ وهل يجوز ـ مثلاً ـ لأهل الفتاة أن يفرضوا على المتقدّم للزواج مهراً معجلاً غير مقبوض بقيمة عالية تحت عنوان ضمانة حقوق ابنتهم؟ وإذا أصرّ طالبُ الزواج على رفضِ فكرة المهر المعجل غير المقبوض، لاعتباره ذلك سنداً مالياً يدينه بأيّ وقت، وهو لا طاقة له على ذلك، ما العمل في هذه الحال؟

(١) الكافي ج٣ ص٢٣٦.

والجواب على ذلك:

أولاً: إنّ ضمانة الزواج هي في أخلاق الزوج ودينه، وليست في مقدار المهر أو غير ذلك من الشروط المالية، والحديث النبويّ الشريف يقول: «**إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة وفساد كبير**»[1]. فإذا كان الزوجُ صاحبَ خلقٍ ودين، فهذا ما يحمي الزوجة ويحصِّنُ العلاقة الزوجية. أما إذا لم يكن كذلك، فإنّ الزوج لن يعدم وسيلة للتحايل على القانون الشرعيّ (وإن كان التحايل مرفوضًا) مهما كان المهر مرتفعًا، إذ يمكنه أن يتهاون مع الزوجة ويمنعها بعض حقوقها ويُنَكِّدَ عليها حياتها، ما يدفعها إلى التنازل عن مهرها المعجّل والمؤجّل، المقبوض وغير المقبوض. ولهذا لا ينبغي أن تُجعل هذه القضية المالية الصغيرة والهامشية سبباً لإفشال قيام علاقة زوجيّة يحبّها الله ورسوله.

ثانياً: إنّ المهر حقّ للزوجة، وليس ملكاً لأبيها أو أخيها، وهي من تحدّد المهر وقيمته ونوعيته مع الزوج، هذا مع تحبيذنا وتشجيعنا على تشاور المرأة مع ذويها في أمر الزواج وأمر المهر أيضاً، لكنّ هذا لا يمنح الأب حقاً في أن يُفشل العلاقة الزوجية لمزاج معين، أو تحت عنوان أنّ هذا المهر لا يناسب «سمعة العائلة» أو غير ذلك من العناوين التي لا تمتّ إلى حياة ابنتهم الزوجيّة بصلة. وإنّ الآباء الذين يُفْشِلُون مشروع زواج بالنسبة لابنتهم أو لابنهم، يتحملون المسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى، وخصوصاً إذا أدّى تمنّع الأبوين أو تعنتهما وتحججهما بمثل هذه الأسباب الواهية إلى بقاء ابنتهم عانساً وتعاني الكبت، وربما دفعها ذلك ـ لا سمح الله ـ إلى أحضان الرذيلة.

ثالثاً: إنّ خوف الرجل المتقدّم للزواج في مفروض السؤال غير مبرر، فإذا كان

(١) الكافي ج٥ ص٣٤٧.

يفكّر في الزواج بعقليّة التاجر ـ كما يبدو من تفكير الأب أيضاً ـ فإنّ كل ما يضعه من شروط وقيود لن يحقّقَ له زواجاً سعيداً يضمن له الاستقرار والاطمئنان والسكينة، وأمّا إذا كان يُقدم على الزواج بذهنية من يريد سكناً له واستقراراً زوجياً فلن يكون ثمة فارق كبير بين أن يَكْتُبَ للزوجة مهراً معجلاً غير مقبوض، أو مهراً مؤجلاً.

٤ ـ داعش وسبي النساء!

وسأل أحدهم: ما هي جذور قضيّة الرقّ والجواري والسبي في الإسلام؟ وما الموقف ممّا تفعله بعض الحركات التكفيرية من سبي النساء الإيزيديات في العراق؟

والجواب: إنّ نظام الرقّ كان نظاماً عالمياً عُرِفَ عند كلّ الأمم، قبل الإسلام وبعده، ولم تتخلّص منه البشريّة بشكل رسميّ إلا في القرن العشرين الميلادي، وإنّما قلت بشكل رسميّ، لأنّ الواقع لا يزال حتى يومنا هذا يشهد حالات اتجار بالبشر، وهناك أسواق نخاسة رخيصة غير شرعيّة لا زالت قائمة، ومن الطبيعيّ أنّ المرأة في هذا النظام تغدو ملكاً لسيدها ويحقّ له أن يقيم معها علاقة جنسية على أساس أنّها ملكه ولا يحتاج إلى عقد زواج.

وأمّا موقف الإسلام من قضية الرقّ واستملاك الإنسان لأخيه الإنسان فيمكن الجزم ـ من خلال التأمل في المنظومة التشريعية والأخلاقية الإسلامية المتصلة بهذا الأمر وغيره ـ بأنّه لم يكن محبّذاً لهذا النظام (نظام الرقّ)، بَيْدَ أنّه اعتمد في المواجهة أسلوباً حكيماً متدرجاً يفضي في نهاية المطاف إلى التخلص من نظام العبودية بشكل تام، والقضاء على أقذر تجارة عرفتها البشرية، وهي بيع الانسان لأخيه الإنسان. حيث نلاحظ حرص التشريع الإسلامي الكامل على محاصرة هذه العادة وذلك باعتماد أسلوبين:

الأسلوب الأول: فتح كلّ الأبواب أمام تحرير العبيد، من التشجيع على العتق واعتباره من أفضل القربات إلى الله تعالى، إلى جعله ـ أعني العتق ـ جزاءً أو كفارةً للكثير من الأخطاء أو الجنايات التي يرتكبها الإنسان، فمن يقتل شخصاً خطأً أو يفطر في شهر رمضان عمداً .. فيلزمه تحرير رقبة، إلى فتح باب المكاتبة بين العبيد وأسيادهم، وهو باب يعقد فيه الطرفان صفقة تفضي إلى تحرير العبد إذا دفع مبلغاً معيناً من المال إلى سيّده، إلى التأكيد على كراهة الاتجار بالرقيق (بيع الإنسان للإنسان)، واعتبار هذه التجارة من أبغض التجارات وأشدّها كراهية، والأهمّ من ذلك كلّه أنّ الإسلام من خلال تعاليمه قد عمل على بثّ روح الحرية في النفوس وعمل على تحرير الرقيق من الداخل عوض أن يكتفي بما فعله البعض من إصدار مرسوم ملكي أو سلطاني يحظر فيه التملك والاسترقاق قبل أن يكون قد هيّأ العبد نفسه على ممارسة الحرية وأفهمه معنى أن يعيش حياته باستقلال تام بعيداً عن سيّده، ومن هنا نفهم عمق كلام عليّ عليه السلام الموجّه إلى كلّ إنسان، حرّاً كان أم عبداً: «**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً**»[1].

الأسلوب الثاني: سدّ كل المنافذ المؤدّية إلى الاسترقاق، فقد رفض الاعتراف بالكثير من الأسباب المعتمدة للاسترقاق، باستثناء حالة وحيدة، سمح فيها بذلك على قاعدة التعامل بالمثل، وهي حالة الحرب، حيث كان المشركون وغيرهم يعملون في الحروب على استرقاق الأسرى المسلمين، ما دفع إلى التعامل معهم بالمثل.

هذا مع أننا نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتحدث عن قضيّة الرقّ كخيار في التعامل مع أسرى العدو، وإنّما تحدّث عن خيارين آخرين: وهما المنّ والفداء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ**

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٥١.

أَوْزَارَهَا﴾[محمّد: ٤]، وفي ضوء هذه الآية المباركة يمكن القول: إنّ قضيّة الرّق التي مارسها المسلمون في الزمن السابق كانت ـ فيما نرجّح ـ إجراءً تدبيرياً (وليس حكماً تشريعياً) اعتمده المسلمون مع الآخرين على قاعدة التعامل بالمثل، وأمّا اليوم فإنّ المسألة هي بيد الحاكم الشرعيّ بحسب ما يشخّص من المصلحة العامة للمسلمين، ومن الواضح أنّ السّبي في زماننا لم يعد خياراً واقعياً ولا مقبولاً في ظلّ القوانين الدوليّة الرافضة لمسألة السّبي والاسترقاق وهي قوانين قد انخرط المسلمون فيها ووقّعوا عليها، وهي تنسجم مع مقاصد شريعتهم الغراء، لأنّ الاسلام ينحاز الى حرية الإنسان انحيازاً مطلقاً، وبالتالي فليس في إعادة نظام الرقيّة إلى التداول أيّ مصلحة للمسلمين، ولا حاجة لاستخدامه، ما دام أنّ الآخر لا يأخذ بمسألة السبي في حروبه مع المسلمين، بل إنّ الإقدام عليه يعدّ عملاً مرفوضاً ومسيئاً للإسلام، وما تقوم به بعض الجماعات التكفيرية من إعادة إحياء هذا النظام هو عمل لا يمتّ إلى الإسلام بصلة ولا ينسجم مع مقاصد التشريع الإسلاميّ، وبالتالي فما يفعله هؤلاء هو تصرف لاغٍ ولا تترتب عليه أيّ آثار شرعية.

المحور السادس

الشباب والعلاقات الاجتماعية

أولاً: التواصل فن ورسالة

ثانياً: التواصل بين أسلوبي المداراة والمداهنة

ثالثاً: الشباب ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة

رابعاً: علاقة الشباب بالآباء والأمهات

خامساً: مجالس الشباب

إنّ علاقة الشباب مع سائر أفراد المجتمع هي علاقة حساسة ومهمّة، ولها تأثير بالغ على استقرار حياة الشباب أنفسهم، وحياة سائر الشرائح الاجتماعية. ومن هنا، كان من الضروريّ أن يتمّ إيلاء هذا الأمر عناية خاصة من البحث والدرس، بما يسهم في إرساء العلاقات الاجتماعية على أسس متينة، وقواعد ثابتة وحصينة. وهذا ما نحاول تسليط الأضواء عليه في هذا المحور، من خلال النقاط التالية:

النقطة الأولى: ونتحدّث فيها عن أهميّة تواصل الإنسان ولا سيما الشاب مع الآخرين، وكيفية هذا التواصل وشروطه.

النقطة الثانية: ونتحدّث فيها عن التواصل بين أسلوبي المداراة والمداهنة.

النقطة الثالثة: ويدور الحديث فيها عن وسائل التواصل الاجتماعي الحديث (فايسبوك، واتس أب، تويتر) وضوابط استخدامها.

النقطة الرابعة: ونتطرّق فيها إلى حالة التواصل بين جيل الشباب من جهة، وبين الآباء والأمهات من جهة أخرى.

النقطة الخامسة: ونختم بها هذا المحور، وذلك بالحديث عن علاقة الشباب بأقرانهم وزملائهم، مع دراسة وافية حول مجالس الشباب وأنواعها وما يدور فيها، وما ينبغي أن تكون عليه.

١

التواصل فن ورسالة

إنّ الحديث عن التواصل بالنسبة للشباب هو حديث هام للغاية، لا لأنّ بعض الشباب قد لا يعير أهميّة لمبدأ التواصل فحسب، بل لأنّه حتى لو كان ملتفتاً إلى أهميّة التواصل أو كان بطبعه إنساناً متواصلاً، فإنّه قد لا يحسن اختيار أو تحديد الأشخاص الذين عليه أن يتواصل معهم، أو قد لا يكون ملمّاً بكيفيّة هذا التواصل، ومن هنا كان من الضروري أن نقارب هذا الموضوع بطرح جملة من الأسئلة ثم نحاول الإجابة عليها، والأسئلة هي:

١ ـ ما هو التواصل؟ وما هي أهدافه؟

٢ ـ مع من نتواصل؟

٣ ـ كيف نتواصل؟ أو ما هي شروط التواصل؟

٤ ـ ما هي أهمُّ أشكال التواصل وأساليبه؟

٥ ـ ما هو الحكم الشرعيّ للتواصل؟

١ ـ التواصل: أهدافه ونتائجه

ما هي حقيقة التواصل؟ وما هي أهدافه؟ وما هي فوائده؟

وفي الإجابة على ذلك يمكن القول:

١) أنا أتواصل فأنا إنسان، إنّ معنى أن تتواصل أنّك تؤكّد إنسانيتك، فالإنسان بطبعه مفطور على التواصل والتعارف، وتتجلّى هذه الفطرة لدى الطفل أكثر من غيره، حتى لو كان رضيعاً، ومن هنا قيل: الإنسان مدنيّ بالطبع.

وهو ـ أي الإنسان ـ بحاجة إلى التواصل، لأنّه إن لم يُنمِّ فطرة التواصل لديه، فربما يقع أسير العزلة النفسية والاجتماعية المدمرة، إلى درجة ربما تقترب به من البداوة.

فمعنى أن يتواصل الإنسان، أنّه يخرج من العزلة إلى الفضاء الاجتماعي الرحب، وأن يكون منتجاً مشاركاً وفاعلاً.

٢) أنا أتواصل فأنا أتعلم، فبالتواصل سوف تكتشف ذاتك وتكتشف الآخر، وتكتشف نقاط ضعفك وضعفه، ونقاط قوتك وقوته، بالتواصل تكتشف الحياة. إنّ عمليّة التواصل هي عمليّة معرفة وقراءة، قراءة في كتاب الحياة كما هي قراءة في الكتاب المألوف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ**﴾[الحجرات: ١٣]، فالتنوع البشري الذي يمثّل مشيئة إلهية ﴿**وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ**﴾ له هدف واضح ومحدّد وهو التعارف ﴿**لِتَعَارَفُوٓاْ**﴾ وليس هدفه التناحر والتقاتل.

٣) أنا أتواصل فأنا أكتشف جديداً وأنا أبدع وأتطور، وعكس هذه المعادلة: أنا لا أتواصل فأنا أعيش الجمود.

٤) مجتمع متواصل يساوي مجتمعاً سليماً ومعافى، وفي المقابل، فإنّ المجتمع غير المتواصل هو مجتمع مفكّك، وغير متآزر ولا متعاضد. والإسلام عندما يدعو إلى التواصل والتعارف والحوار، فإنّما يهدف ـ فيما يهدف إليه ـ إلى تجسير العلاقات الاجتماعية وإحكامها.

٢ ـ مع من نتواصل؟

والإجابة على هذا التساؤل تتحدّد في ضوء معرفة أهداف التواصل وغاياته، وما يمكننا الحديث عنه هنا:

أ ـ التواصل مع الله والذات

قبل الحديث عن التواصل مع أحد، فإنّ علينا أن نتواصل مع أنفسنا، ومن الخطأ أن تتواصل مع الآخر قبل أن تتواصل مع ذاتك؛ لأنّ الكثيرين منا ينشغلون بالآخر وينسون أنفسهم، وهذه علامة الفاشلين، ولذا نحن بحاجة إلى جلسة تواصل مع الذات، وجلسة حساب مع أنفسنا، وعلينا أن نصارح أنفسنا في جلسة الحساب والتقييم هذه وأن لا نغشَّها ولا نخدعها، لأنّ مَنْ يغشُّ نفسه فلن يُرجى خيرُه، ولا نصحه للآخرين.

والتواصل مع الذات إذا كان صحيحاً فلا بدّ أن يقودنا إلى التواصل مع الله تعالى، لأنّ: «**مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فقد عَرَفَ ربَّه**»[1]، فالنفس هي من أبرز آيات الله ودلائل عظمته، ومعرفتها حقَّ المعرفة ستقود إلى معرفته عزّ وجلّ، والشعور بالحاجة والفقر إليه تعالى.

أمّا التواصل مع الله تعالى فهو الذي يعطينا الأمن والاستقرار: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ﴾[الرعد: ٢٨]، وهو الذي يرسم لنا حدود التواصل مع الذات ومع الآخر.

والتواصل مع الله معناه أن تشعر بعبوديتك لله ومالكية الله لك، أن تشعر بحضور الله تعالى في نفسك وعلاقاتك وحياتك كلّها، ولذا لا بدّ من جلسة تواصل مع الله، جلسة مناجاة، تناجيه وتشكو إليه؛ والعبادات تؤمن فرصة مثالية للتواصل مع الله سبحانه.

---

(١) بحار الأنوار ج٢ ص٣٢.

ب ـ التواصل مع الآخر

وبعد أن تتقن عمليّة التواصل مع الذات ومع الله سبحانه، تنطلق حينها لعمليّة التواصل مع الآخر، فالتواصل مع الله هو الذي ينبغي أن ينظِّم عمليّة التواصل مع الآخر ويحدد نطاقها، والتواصل الناجح مع الذات سوف يحدد لي مَنْ أتواصل معه، وذلك في ضوء معرفتي بمواصفات هذه الذات وما يناسبها.

والآخر على نوعين:

النوع الأول: الآخر الذي نريد الاقتداء به أو الإفادة منه، وهنا عليك الدقة في اختيار مَنْ تتواصل معه، ويمكننا بكلمة مختصرة أن نقول: عليك اختيار مَنْ يزيدك في علم أو دين أو خبرة، أو على الأقلّ لا يؤثّر سلباً على روحيتك وأخلاقياتك.

النوع الثاني: الآخر الذي نريد التأثير فيه، وهنا لا حدود ولا محرمات في التواصل مع أحد، فلنتواصل مع المؤمن، مع الكافر، مع الملحد. فالمسلم صاحب رسالة وهو يحمل روح المحبّة لجميع الناس ويرغب في هدايتهم، ويتمنى لهم الخير. وهذه الروح الرسالية دفعت عالماً جليلاً وهو السيد ابن طاووس أن يخصص دعاءه في صلاة الليل لغير المؤمنين، طلباً من الله تعالى لهم الهداية، كما نصّ على ذلك في كتابه «المحجة لثمرة المهجة».

٣ ـ كيف نتواصل؟ أو ما هي شروط التواصل الناجح؟

أولاً: الشروط الدينية والأخلاقية

١ ـ الصدق والأمانة، فالعلاقة مع الآخرين لا بدّ أن يحكمها مبدأَيْ الصدق والأمانة، بعيداً عن الأساليب الملتوية، ومن هنا ورد في الأحاديث الشريفة أنّ الإنسان إنّما يُختبر إيمانه بصدق الحديث وأداء الأمانة، لا بالصلاة ولا بالصوم، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لا تغترّوا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنّ الرجل**

ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»(١).

٢ ـ التواصل الهادف لا العابث، بحيث يكون تواصلك مع الأشخاص الذين تنتفع من التواصل معهم في علم أو دين أو دنيا، كتجارة تستفيد منها. وأما التواصل اللاهي والعابث، أو الذي يضرّ بدينك ولا تستفيد منه علماً ولا عملاً، ولا خلقاً ولا تجارة محللة فعليك اجتنابه وتركه. وعندما يكون التواصل بهدف الدعوة إلى الله تعالى أو المصلحة العامة، فاحرصْ ـ أيضاً ـ على إبقائه تواصلاً رسالياً، ولا شكّ أنّ الروح الرسالية والإنسانية البعيدة عن المصالح الضيقة والأهداف الشخصيّة والنفعيّة، تجعل التواصل مثمراً وتديم الصداقة والأخوة.

ثانياً: الشروط الموضوعية: الفنية والتخصّصية

وثمّة شروط موضوعية، وأقصد بها الشروط الفنية التخصصية التي لن يتسنى لأيّ عمل أو نشاط النجاح دون مراعاتها، ويمكن الإشارة إلى شرطين:

١ ـ احترام التخصّصات، بحيث لا تتدخل فيما لا تعلم، ولا تتحدث فيما لا تفقه.

٢ ـ إتقان التواصل، ففي الحديث النبويّ الشريف: «**إنّ الله يحبُّ أحدَكم إذا عمل عملاً أن يتقنه**»(٢)، والتواصل عمل من الأعمال فينبغي إتقانه، والإتيان به على وجهه الأتمّ.

ثالثاً: الشروط الأخلاقية

أ ـ التبسّم وحسن البشر، فهذا شرط لنجاح العلاقة بالآخرين، في الحديث: «**صنائع المعروف وحسن البشْر يكسبان المحبّة ويدخلان الجنّة**»(٣)، وعن الإمام

(١) الكافي ج٢ ص١٠٤.
(٢) كنز العمال ج٣ ص٩٠٧.
(٣) الكافي ج٢ ص١٠٣.

الرضا عليه السلام: **«من تبسّم في وجه أخيه المؤمن كتب الله له حسنة، ومَنْ كتب الله له حسنة لم يعذّبْه»**[1].

ب ـ الابتداء بالسلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ابدأوا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»**[2].

ت ـ المصافحة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا لقي أحدكم أخاه فليصافحْه وليسلِّمْ عليه، فإنّ الله أكرم بذلك الملائكة فاصنعوا بصنيع الملائكة»**[3].

ث ـ الكلمة الطيبة، عن الصادق عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها وفرّج عن كربته لم يَزَلْ في ظلّ الله الممدود عليه الرحمة ما كان في ذلك»**[4].

ج ـ التهادي، في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«تهادوا تحابوا، تهادوا فإنّها تذهب بالضغائن»**[5].

٤ ـ أشكال التواصل وأساليبه

للتواصل مع الآخرين عدّة أشكال:

(١) ناطق:

أ ـ كتبي (رسالة إلكترونية أو ورقية)

ب ـ شفهي (محادثة مباشرة أو تلفونية..)

(١) مستدرك الوسائل ج١٢ ص٤٢٨.

(٢) الكافي ج٢ ص٦٤٤.

(٣) مصادقة الأخوان (بضميمة فضائل الشيعة، وصفات الشيعة، وفضائل الأشهر الثلاثة) للشيخ الصدوق ص١٠٧.

(٤) الكافي ج٢ ص٢٠٦.

(٥) الكافي ج٥ ص١٤٤.

(٢) صامت:

أ ـ صمت اللسان: فربّ حالات يكون الصمت فيها أبلغ من الكلام، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بألسنتكم**»[1].

ب ـ نشاط ميداني: مساعدات، زيارات.. (زيارة المؤمن، عيادته، تشييعه)، وهذه القيم مع الأسف تكاد تنقرض.

ومن الضروري هنا أن نعمل على تجديد أساليب التواصل، لأنّ الأساليب متحركة ومتغيّرة، ولا ينبغي أن نجمد عند الأساليب الموروثة، فضلاً عن أن نقدسها ونتخاصم من أجلها.

٥ ـ الحكم الشرعي للتواصل

في المبدأ، فإنّ التواصل مع الآخرين مشروع ومرغوب فيه عقلاً وعقلائياً، فالتواصل يُخرج الإنسان من عزلته ويقوده ويدفعه ليكون شخصاً مدنياً اجتماعياً، وإذا كان التواصل بهدف رساليّ دعويّ فسوف يغدو أمراً مطلوباً شرعاً، وربما يرقى إلى مستوى الوجوب، ونحوه تواصل الأرحام والأقارب والأخوان.

وقد يكون التواصل في بعض الحالات محرماً وهو التواصل مع أعداء الله والإنسانية الذي يعدّ إضعافاً لجماعة المؤمنين أو خيانة للوطن، وكذا التواصل الذي يؤثّر على المناعة الأخلاقية والروحيّة للإنسان المسلم، أو التواصل الذي يجعلك في موقع التهمة أو الشبهة.

---

(١) قرب الإسناد ص٧٨.

٢

التواصل بين أسلوبي المداراة والمداهنة

عطفاً على موضوع كيفيّة التواصل مع الآخر، لا بدّ لنا أن نركّز النظر على أهمية خلق جميل أكّد عليه الإسلام وامتدحه، لما له من دور هامّ في ترسيخ التواصل، وإرساء الوئام بين أبناء المجتمع، وتخفيف عناصر التوتر فيما بينهم. ومعلوم أنّ كل ما يوجب التماسك الاجتماعي ويدعو إلى التواصل والتلاقي فهو محبوب عند الله تعالى. وكلّ ما يوجب التمزق والتشرذم فهو مبغوض لديه تعالى، وهذا الخلق الحسن هو «المداراة» أقصد مداراة الناس. وقد لا يلتفت الكثير من الشباب لأهمية هذا الخلق، ويعتبرون المداراة ضعفاً ووهناً أو عجزاً وجبناً.

فما المراد بالمداراة؟ وما هي إيجابياتها؟ وهل هي تعبير عن العجز والضعف؟ وما الفرق بين المداراة والمداهنة؟

١ ـ المراد بالمداراة

مداراة الناس تعني أن تسير معهم بالخلق الحسن والطيّب، فتصبر على ما يصدر عنهم ممّا يقتضيه تنوّع طباعهم واختلاف أمزجتهم، وتتعامل معهم بلين ورفق، وتحرص على أن تقول لهم الكَلمةَ الطيبة، وأن تُمسك غضبك عمّا يبدر منهم من الزلل والتقصير تجاهك، ففي الحديث: «**ثلاث من لم تكن فيه لم يتمَّ له**

عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل»[1].

والمداراة ليست دليل عجز أو ضعف كما قد يُخيَّل لبعض الشباب، بل هي دليل وعي، وتعبّر عن حكمة عالية وعقل كبير لدى الإنسان، وقد ورد عن عليّ عليه السلام: «**ثمرة العقل مداراة الناس**»[2]، وفي حديث آخر: «**عنوان العقل مداراة الناس**»[3]، ولو عَكَسْتَ القضية لجاز لك القول: إنّ من لا يتخذ المداراة سبيلاً له في الحياة فهو إنسان خاسر وفاشل.

٢ ـ الداعية والمداراة

إنّ العاقل والحكيم عليه أن ينتهج سبيل المداراة في تعامله مع الناس من حوله، ولا سيّما إذا كان داعية إلى الله وإنساناً رسالياً. فإنّ الداعية الناجح هو الذي يدخل قلوب الناس، ولن يتسنّى له ذلك بغير المداراة، ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران: ١٥٩]. ومهما كان الآخر صعب المراس سيّئ الخلق فعليك أن تفتش عن مفتاح أو مدخل يُسَهِّلُ عليك الدخول إلى قلبه، وهذا ما يفرض عليك أن تتحلى بالصبر والأناة، ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ**﴾[الكهف: ٢٨].

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض**»[4]، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «**جاء جبرائيل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمّد ربّك يقرؤك السلام ويقول لك: دارِ خلقي**»[5].

---

(١) الكافي ج٢ ص١١٦.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص٢٠٩.
(٣) عيون الحكم والمواعظ ص٣٣٩.
(٤) الكافي ج٢ ص١١٧.
(٥) المصدر نفسه ج٢ ص١١٦.

٣ ـ إيجابيات المداراة

وثمرة المداراة أنّها تُساهم في إزالة التوتر الاجتماعي، وتغسل القلوب من درن الأحقاد والضغائن، وبذلك يقلّل الإنسان من أعدائه ويكثّر من أصدقائه وأعوانه، فعن عليّ عليه السلام: «**دارِ الناس تستمتعْ بإخائهم والقهم بالبشر تُمِتْ أضغانهم**»(١)، كما أنّه بالمداراة تمتصّ غضب الآخر وتستوعبه وتأمن كيده وشرّه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ أيضاً ـ: «**دارِ الناس تأمنْ غوائلهم وتَسْلَمْ من مكائدهم**»(٢).

هذا على المستوى الاجتماعي، وأما على المستوى الديني فإنّ المداراة ـ كما قلنا ـ تفتح قلوب الناس على الهدى، ولهذا أُمِرَ بها الأنبياء عليهم السلام، بل امتازوا بها عمّن سواهم، فهم لم يُفَضَّلُوا على غيرهم اعتباطاً، بل لمزايا في سلوكهم وأخلاقهم، ومنها المداراة، ففي الحديث: «**إنّ الأنبياء إنّما فضّلهم الله على خلقه بشدّة مداراتهم لأعداء دين الله وحسن تقيّـتهم لأجل إخوانهم في الله**»(٣)، وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «**سلامة الدين والدنيا مداراة الناس**»(٤).

٤ ـ المداراة والمداهنة

ولكن مداراة الناس لا تعني التنازل عن الحقّ، ولا المجاملة على حساب الدين أو على حساب القيم، إنّ المجاملة على حساب الدين والقيم والحقوق هي ما يسميّها القرآن بالمداهنة، والتي نهى عنها نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ومن خلاله صلى الله عليه وآله وسلم نهى كلّ الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ**﴾[القلم: ٩]. ففي مواجهة

(١) المصدر نفسه ص٢٥١.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص٢٥١.
(٣) بحار الأنوار ج٧٢ ص٤٠١.
(٤) عيون الحكم والمواعظ ص٣٥٨.

الباطل لا مكان للمجاملة ولا محلّ للمداهنة، ولا للتلون في المواقف؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى تمييع الحقّ وزوال الفاصلة بينه وبين الباطل، يقول عليّ عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع**»[1]، وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أوحى الله إلى شعيب النبيّ عليه السلام إنّي معـذِّبٌ من قومك ماءة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟! فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: دَاهَنُوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي**»[2].

وعلى هذا الأساس، فإنّ واجبك ليس فقط أن لا ترتكب المنكر، بل أن تنكر المنكر وتحاصره وتبتعد عنه، وأن لا تداهن أهله أو تصانعهم، فإن مصانعتهم قد تغريهم بالاستمرار في ارتكاب المنكر، وبهذا تعرف أنّ المداراة ليست ضعفاً ولا هواناً، ولا تعني السكوت على الظلم ولا مداهنة الباطل وأهله.

٥ ـ الأخوّة الصادقة والمصارحة

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ علينا أن لا نرتاح لمن يجاملنا، أو نأنس بمن يصفّق لنا عندما نكون في موقع خاطئ أو نرتكب معصية معينة، ففي الحديث: «**شرُّ إخوانك مَنْ داهنك في نفسك وسَاتَرَكَ عَيْبَك**»[3]، وقد قيل: «صديقك من صَدَقك لا من صدّقك». فالأخوّة الصادقة لا تعني أن تسكت على ما يرتكبه صديقك من خطأ، فتجامله وتداريه على حساب الحقّ والمبدأ، بل الأخوة الصادقة تدعوك لنصحه وإرشاده ودلالته على عيبه، حتى لو أدّى ذلك إلى إزعاجه وإقلاق راحته.

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٢٦. بيان: يصانع: يداري على حساب الحق، ويضارع: يشابه بعمله أهل الباطل.

(٢) الكافي ج٥ ص٥٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم المفهرس ص ٢٣٢، وعيون الحكم والمواعظ ص٢٩٤.

٦ ـ مداهنة النفس

ويبقى أنّ أسوأ أنواع المداهنة، هي مداهنة الإنسان لنفسه، عندما يخدعها ويكذب عليها ويغرّر بها، ويهوّن عليها فعل المنكرات أو يزيّن لها المعاصي، ويغريها بارتكاب ما ينافي الأخلاق وما فيه تجاوز للقيم، أو يمنّيها بطول العمر، وأنّه لا داعي للعجلة والمسارعة إلى التوبة والعودة إلى الله تعالى، بحجة أنّ العمر أمامنا والأيام طويلة! في الحديث عن عليّ عليه السلام: «**من داهن نفسه هجمت به على المعاصي المحرّمة**»[١].

وعنه عليه السلام: «**لا تُرَخِّصُوا لأنفسكم** (يقصد في الحرام) **فتذهب بكم الرُّخَصُ مذاهبَ الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية**»[٢].

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ص ٣٤٢

(٢) نهج البلاغة ج١ ص١٥٠.

٣

الشباب ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة

والحديث عن وسائل التواصل وأساليبه يقودنا إلى الكلام عن وسائل التواصل الحديث، حيث نلاحظ انشغال هذا الجيل ولا سيّما الشباب، وانكبابه على استخدام وسائل التواصل الإلكتروني (فايسبوك، تويتر، واتس آب، أنستغرام). وهذه الوسائل ـ في حد ذاتها ـ هي ممّا يمكن الإفادة منها فيما ينفع الانسان ويغني عقله وتجربته، كما تنفع في التواصل الاجتماعي والتعارف المفيد، ويمكن في المقابل الإفادة منها فيما يسيئ إلى الإنسان ويضرّ بحياته، ولهذا فإننا لا نستطيع أن «نشيطن» هذه الوسيلة في حدّ ذاتها أو نذمّها أو نحرّمها، كيف وهي وسيلة قد قرّبت إلينا البعيد وسهلت الصّعب والعسير، إلا أنَّ المهمَّ أن نعرف كيف نستغلّها ونستثمرها، وإليك توضيح ذلك:

١ ـ الأنترنت نعمة أم نقمة

وهنا، وعند طريقة استثمار هذه الوسيلة، يأتي الحديث والسؤال عن الموقف الشرعي والأخلاقيّ، وعن حدود الحرام والحلال، وإجمال القول في ذلك: إنّ مَنْ أفاد من هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى والتبشير بالقيم الأخلاقية، أو في التواصل الاجتماعي مع أرحامه، فإنّ استخدامه لهذه الوسيلة لن يكون مباحاً فحسب، بل ومستحسناً شرعاً، وربما يصل الأمر إلى حدّ الوجوب الشرعيّ.

وهكذا من استخدم هذه الوسيلة في التواصل مع الأخوان والأصدقاء، فإنّ اكتساب الأصدقاء ولو عبر «الفايسبوك» أو «الواتس أب» هو مغنم كبير، وكما قال عليّ عليه السلام: «**أعجزُ النّاسِ من عجزَ عن اكتسابِ الأخوانِ وأعجزُ منه من ضيَّع من ظفرَ به منهم**»[1].

أمّا عندما نستخدم هذه الوسيلة في سبيل الدخول إلى المواقع الإباحية، أو في التجسس على الناس وفضح أسرارهم وإحصاء أخطائهم وزلاتهم أو إزعاجهم وإقلاق راحتهم.. فإنّ ذلك سيكون محرَّماً بكلّ تأكيد، وغير بعيد عن ذلك ما نلاحظه من إدمان بعض الناس (ذكوراً أو إناثاً) على استخدام «الأنترنت» فيما لا ينفعه في دين أو دنيا أو آخرة، إلى حدّ أنّه يهمل مسؤولياته وواجباته تجاه زوجه أو أولاده.. فهذا أمر مرفوض شرعاً وعقلاً، ولا سيّما أنّ فيه ـ بالإضافة إلى التخلّي عن المسؤوليات والتقصير في الواجبات ـ تبديداً للوقت وهدراً للعمر، وهدر العمر هو من أسوأ أنواع الهدر، لأنّ هدر المال ـ مثلاً ـ يمكن تعويضه، أمّا هدرالعمر أو الشباب فهيهات أن يعوض!

ولهذا نقول للشباب ولغيرهم، ممن يقضون ساعاتٍ طوالاً، وأيّاماً وليالي على «الفايسبوك» أو «التويتر» أو «الواتس أب»، أو «الأنترنت» عموماً: إنّ هذه الساعات التي تبدّدونها، وهذا الزمان الذي تضيعونه دون طائل، سوف تحاسبون عليه يوم القيامة؛ في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن محبتنا أهل البيت**»[2].

ولا تبتعد عن هذا قضيةُ اللعب بالآلات الإلكترونية أو التي تستخدم فيها سائر الأجهزة المخصصة لذلك، من قبيل ما يعرف بـ (الأتاري ـ أو البلاي ستايشن)،

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤.
(٢) مرّت مصادر الحديث سابقاً.

أو غيرها من الآلات، ومع أنّ الحديث عن هذه الألعاب خارج عن موضوع التواصل الذي نحن بصدده، ولكن لابأس بالإشارة إلى ذلك ولو على قاعدة «الكلام يجرّ الكلام»، وذلك لأنّها تلتقي مع مسألة استخدام وسائل الاتصال الحديث في بعض الآثار السلبيّة، وخلاصة القول: إنّ اللعب بهذه الآلات الإلكترونية محكوم بالإباحة، شريطة أن لا يكون اللعب بها شاغلاً لمعظم أوقات الإنسان بحيث يتخلى عن مسؤولياته الاجتماعية وواجباته الدينيّة، وكذلك لو كان اللعب بها على أساس الرهن، فيحرم ولا يجوز أخذ العوض. هذا إذا كان اللاعب بها بالغاً، وأمّا إذا كان غير بالغ، فلا يحرم عليه اللعب بها لكونه غير مكلّف. ولكن من المفترض بالآباء والأمهات وغيرهم من المربين أن يعملوا على توجيه الأطفال وإرشادهم إلى اجتناب اللعب القماري، كما هو الحال في سائر المحرمات، وذلك للحؤول دون اعتيادهم على ذلك، الأمر الذي يجعل من الصعب بعد ذلك تركهم له وإقلاعهم عنه.

كما أنّ ثمّة أمراً آخر ينبغي إلفات النظر إليه والتأكيد عليه، وهو ضرورة تنظيم أوقات خاصة للعب بها، كي لا يستهلك اللعب بها معظم أوقات الشباب أو الأطفال حتى لا نقع في مرض إدمان متابعة هذه الوسائل، وهو من الأمراض السيئة والتي لا تستنزف عمر الإنسان فحسب، بل ربّما أثّرت سلباً على استقراره العائلي أو الوظيفي، كما أنّها تؤثّر على انتظام حياته أكلاً وشرباً ونوماً، ناهيك عن تقصير المدمن على هذه الوسائل في أمر العبادة من الصلاة والدعاء والذكر وصلة الأرحام وزيارة الأخوان.

وثمّة ملاحظة أخرى تدعونا إلى التشجيع على ترك استعمال بعض الألعاب التي تضمّها هذه الآلات، وهي خصوص الألعاب التي تمثِّل مشاهد عنف أو التي يتقمّصُ اللاعب فيها شخصيّة مجرم يقتل ويعتدي، فأمثال هذه الألعاب ليست محبذة من الناحية التربوية، لأنها تترك تأثيراتها السلبيّة على الأطفال.

٢ـ زواج الفايسبوك

إنّ تعارف الناس وتلاقي الأهل والخلان عبر «الفايسبوك» أو « الواتس أب» هو أمر جميل ورائع، بل إنّ ذلك يعدّ إحدى أهمّ حسنات هذه الوسيلة الإلكترونية، وكمْ من الأشخاص الذين استفادوا من هذه الوسيلة للتعرف على ذويهم، والوصول إلى أقاربهم وأرحامهم بعد انقطاع أو غياب طويليْن.

ومن أشكال التعارف بين الناس عبر «الفايسبوك» أو «الواتس أب» أو غيرهما من الوسائل، هو تعارف الشباب والفتيات بهدف الزواج، فماذا عن الموقف الشرعيّ من هذا الأمر؟ وما هي سلبياته وإيجابياته؟

إنّنا من حيث المبدأ، لا نرى مشكلةً شرعية في هذا النوع من التواصل أو التعارف، بل إننا نلاحظ أنّ هذه الوسيلة قد ساعدت في فتح آفاق واسعة أمام العزّاب وراغبي الزواج، وساهمت في إيجاد فرص جديدة للشباب أو الفتيات الذين لم يتسنّ لهم العثور على الزوج المناسب، ولهذا علينا أن لا نتحسس من هذا الأمر ونرفضه رفضاً قاطعاً، وإن كان غير مألوف لنا.

أجل، إنّ هذا النوع من التعارف يبقى محفوفاً ـ أكثر من غيره ـ ببعض المخاطر أو المحاذير الشرعية التي قد يقع فيها الكثيرون، الأمر الذي يفرض علينا الحديث عن ضوابط هذا النوع من التواصل بين الرجال والنساء، والضوابط هي:

١ ـ مراعاة حدود الله في التواصل عبر الفايسبوك، سواء في اختيار الكلمات التي يتحدث بها أحد الجنسين مع الآخر، أو في سائر التصرفات، وذلك بما يبعد أجواء التواصل الإلكتروني عن الإثارة الغرائزية أو نحو ذلك. صحيح أنّ المتحادثين عبر «الفايسبوك» أو «الواتس أب» قد يكونان في مأمن من عيون الناس ومسامعهم، إلاّ أنهما ليسا بمأمن عن عين الله سبحانه وتعالى، فهوعالم السرّ والخفايا ولا تخفى عليه خافية، في الحديث عن عليّ عليه السلام: «**عباد الله**

اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم»[١].

٢ ـ إنّ هذا النوع من التعارف عبر هذه الوسائل غير كافٍ لمعرفة الطرف الآخر، بل لا بدّ من التعارف المباشر حتى لا نقع في الغشّ والتدليس الذي يمارسه الكثيرون، حيث يقدمون أنفسهم إلى الطرف الآخر بصورة ملائكية جميلة، لكنّها مخالفة للواقع وبعيدة عنه كلّ البعد، وربّما يكتشف الإنسان الحقيقة بعد فوات الآوان.

إنّ قرار الزواج هو قرار مصيري بالنسبة لحياة الإنسان، والعاقل لا يجازف بمصيره ولا يعبث بمستقبله واستقراره وأمنه. من هنا، فإنّ من الضروريّ أن تكون المعرفة بين الشخصين حقيقية، وليست وهمية وافتراضية.

٣ ـ إنّ الكثير من الشباب أو الفتيات يَقَعْنَ في محذور الحديث اللَّغْوِيّ البعيد عن مراعاة الضوابط الأخلاقية، وقد يتجاوزون حدود الحياء واللياقات، (وهو ما يعبّر عنه بـ «طق الحنك»)، وهو أمر غير مقبول شرعاً (وإن لم يصل بالضرورة إلى حدّ الحرمة)، وكذلك فإنّه مستهجن عرفاً، والمؤمن ـ كما نعلم ـ لا بدّ أن يحرص على حفظ سمعته وصورته، وأن يبتعد عما يشين ولا يضع نفسه موضع التهمة، لأنّه وكما قال عليّ عليه السلام: «**من وضع نفسه في مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء الظنّ به**»[٢].

٤ ـ ولا بدّ أخيراً أن نحذر من الخداع الذي قد يمارسه بعض الناس عبر هذه الوسائل، لاستدراج بعض الفتيات إلى فخ معين، ليسجّل عليها بعض الكلمات أو المحادثات، ثم يعمل على استغلال ذلك ليبتزّها أو يضغط عليها أو يفضحها ويسيء إلى كرامتها وشرفها.

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص ٧٧.

(٢) نهج البلاغة ج ٤ ص ص٤١.

٣ ـ لغة الفايسبوك والواتس أب

ومن الأمور الجديرة بأن نتوقف عندها فيما يتصل بهذه الوسائل هي اللغة التي يستخدمها الجيل الجديد في تواصلهم عبر الفايسبوك والواتس أب .. وهي اللغة المحكيّة، ولكن مع اعتماد كتابتها بالحرف اللاتيني. وقد انتشرت هذه اللغة وأصبحت ظاهرة عامة، وغدا بعض الناس لا يتقن غيرها في التواصل مع الآخرين. وتعليقاً على هذه الظاهرة لا يسعنا إلاّ أن نسجّل استغرابنا ورفضنا لهذه الظاهرة التي ابتعدنا فيها عن لغتنا العربية مرّتين، مرّة عندما تركنا الفصحى إلى اللغة المحكية، ومرّة أخرى عندما استبدلنا الحرف العربيّ بالحرف اللاتيني، وأخشى ما نخشاه أن تكون هذه الظاهرة من قبيل «الموضة التجديدية»، والتي قد تنطلق من موقع العقدة النفسية التي يعيشها البعض إزاء انتمائه ولغته، ولذا فهو يعتمد الحرف الأجنبي.

٤ ـ الصور البديلة

وثمّة أمر آخر لا بدّ أن ننبّه عليه في المقام، يرتبط بالصور غير المحتشمة التي تضعها بعض البنات والفتيات في «الفايسبوك» أو «الواتس أب»، كبديل عن صورهن الشخصية، وقد يضع بعض الشباب صوراً لفنانين أو ممثلين عالميين، أو ما إلى ذلك، وربما يلجأ البعض إلى وضع صور أو شعارات مستفزة أو مثيرة لعصبية مذهبيّة، أو تحمل دلالات مسيئة للآخر، فما هو الموقف منها؟

والحقيقة أنّ المأمول من المؤمن أن يكون داعية للإسلام بالقول والفعل، بالشعر والقصة، بالأدب والحكمة، بالصورة والمضمون. ومن هنا، فإنّ ما يُعَرِّفُ عن المؤمن ويعكس صورته لا بدّ أن يكون مشابهاً له ولصورته الإيمانية، فما درج عليه بعض المؤمنين من وضع صور بديلة عن صورهم الحقيقية في

«الفايسبوك» أو «الواتس أب»، ينبغي أن يراعي ما ذكرناه، بأن تنسجم تلك الصور مع شخصيتهم وإيمانهم، فالصور غير المحتشمة وغير اللائقة لا تخلو من شبهة شرعية؛ لأنّ فيها ترويجاً للباطل أو السفور، بينما الأجدر بالمؤمن والمؤمنة أن يروّجا للإسلام وللقيم الإسلاميّة والإنسانيّة. وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا العمل في عمقه مُنطلقاً من التأثر بهذه الشخصيات، وبما يعبّر عن كونها ـ في نظره ـ نموذجاً يحتذى ومثلاً أعلى له في الحياة.

٤

علاقة الشباب بالآباء والأمهات

من القضايا المثيرة للجدل قضيّة العلاقة بين الشاب ووالديه، فهذه العلاقة قد يحكمها شيء من التوتر، أو لنقل: عدم تفهم الطرفين لبعضهما البعض وعدم مراعاة أحدهما حقوق الطرف الآخر، والسبب في ذلك يرجع إلى أنّ الابن بمجرّد أن يشارف على البلوغ ويصل إلى مرحلة الشباب، فإنّه يشعر برغبة في الاستقلال في الرأي وتأكيد ذاته، وأن يثبت للآخرين أنّه قد أصبح شاباً مكتمل الشخصية، ولم يعد قاصراً ليتّخذ الأبُ القرارات بدلاً عنه، ولذلك يتضجّر وينزعج من عدم التشاور معه، أو من اتخاذ القرارات عنه، وربّما يتطاول على والديه أحياناً، ويعنف لهما في القول أو الفعل، تأكيداً على رجوليته وإبرازاً لشخصيته.

وممّا يزيد العلاقة توتراً أنّ الكثير من الآباء والأمهات قد لا يدركون خطورة هذه المرحلة وخصائصها، فيتعاملون مع ابنهم الشاب وكأنّه لا يزال صغيراً، فلا يعيرون له ولرأيه أيّة أهمية، ويتعاملون معه بلامبالاة، وهذا ما يؤدّي إلى نشوء علاقة متوترة بين الطرفين.

والسؤال: كيف ندير هذه العلاقة بطريقة مرنة ومتوازنة تحفظ للأب احترامه وللابن شخصيته؟

١ ـ تفهّم خصائص هذه المرحلة

لعلّ الخطوة الأولى اللازم اتخاذها لأجل إنجاح العلاقة بين الطرفين، هي محاولة تفهم أحدهما الآخر، ولا سيّما من طرف الأبوين. فإنّ عليهما أن يدركا أهميّة هذه المرحلة التي دخل فيها ابنهما، وهي مرحلة الشباب، وأنها تستدعي نمطاً جديداً في التعامل مع الابن، فهو لم يعد طفلاً صغيراً ليتعاملا معه بمنطق الإملاءات. والمشكلة أنّ الكثير من الآباء والأمهات لا يدركون ـ غالباً ـ هذا الانتقال من مرحلة عمريّة إلى مرحلة أخرى عند أبنائهم وبناتهم، إمّا لضعفٍ في ثقافتهم (أقصد الآباء والأمهات)، أو لأنّ تواجدهم المستمرّ إلى جانب الطفل ومعايشتهم اليوميّة له جعلهم يعتادون أسلوباً معيناً في إدارة العلاقة معه، ويستصحبون هذا الأسلوب في التعامل معه إلى مرحلة الشباب، وكأنّهم لم يشعروا ولم يلتفتوا إلى أنّ ابنهم قد بلغ سنّ الشباب، وأنّ هذا البلوغ ليس بالجسد فقط، وإنّما بالعقل والوعي، ما يدفع إلى تغيير التعاطي معه، انسجاماً مع مقتضيات المرحلة العمرية الجديدة؛ ولذا فإنّ الآباء[1] والأمهات مدعوون إلى امتلاك ثقافة تربويّة تمكِّنهم من وعي مراحل الطفولة التي يمرّ بها ابنهم، وصولاً إلى مرحلة الشباب.

٢ ـ اعتماد أسلوب المصادقة

ومع امتلاك الأبوين الثقافة المشار إليها، فإنّ من الطبيعيّ أن يتمّ اعتماد أسلوب تربوي جديد مع الشاب، مختلف تماماً عن أسلوب مرحلة الطفولة. والأسلوب الجديد هو أسلوب المصادقة، وهذا ما نبّه عليه الحديث النبويّ الشريف[2] الذي يتحدث عن مراحل الطفولة المتنوعة، ويشير إلى أنّ المرحلة

(١) عن الأبوة ومفهومها ومعانيها يمكنكم مراجعة الملحق رقم (٢) في آخر الكتاب.

(٢) انظر: وسائل الشيعة ج٢١ ص٤٧٦، الحديث ٧، الباب١٣ من أبواب أحكام الأولاد، ونص الحديث كالتالي: «**الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين..**»، ولهذا الحديث صيغ عديدة ذكرناها في كتاب «حقوق الطفل في الإسلام» فلتراجع.

الثالثة منها وهي مرحلة بداية الفتوة والشباب يحكمها أسلوب: «**وصاحبه سبعاً**»، أو أسلوب: «**ووزير سبعاً**». إنّ العلاقة بين الآباء والأمهات من جهة وبين ابنهم الشاب من جهة أخرى، لا بدّ أن تتخذ طابع التشاور لا الاستبداد، وأن تعتمد أسلوب الحوار لا الفرض، لأنّك عندما تشاور ابنك الشاب فإنّك تشعره بقيمته وتعزّز شخصيته ومكانته، أمّا إذا عزمت على اتخاذ القرار بدلاً عنه وفرضت عليه رأيك، فإنّك بذلك تكون قد سحقت شخصيته وأسأت إليه وجرحت مشاعره، وهذا ما سوف يخلق لديه ردّات فعل سلبية تجاهك وتجاه الآخرين.

٣ ـ الشخصية المستقلة

إنّ الإسلام يعتبر أنّ شخصيّة الإنسان تكتمل بوصوله إلى سنّ البلوغ، فيصبح مكلَّفاً وصاحبَ شخصيّة مستقلة، وترتفع بذلك كلّ أشكال الولاية والوصاية عليه، الأمر الذي يعني:

١ ـ أنّه يغدو صاحب ذمّة مالية مستقلة، تخوّله التملك والتصرّف في أمواله وممتلكاته، فيبيع ويشتري كما يريد، ويهب لمن يشاء، شريطة أن يقترن البلوغ الجسديّ بمرتبة من النّضج العقلي والخبرة الحياتية المعبر عنها بالرشد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ**﴾[النساء: ٦]، ولذا لا يحقّ لذويه أن يتصرفوا في ماله دون رضاه.

٢ ـ وإنّ من حقّه وحدَه اختيار نوع العمل الذي يمتهنه، أو التخصص الذي يرغب به، وليس للولي إلا الإرشاد والنصيحة.

٣ ـ ومن حق الشاب أيضاً ـ ذكراً أو أنثى[1] ـ اختيار شريك الحياة، وليس لك أن تفرض على ابنك زوجة لا يريدها، ولا أن تفرض على ابنتك ـ وهذا ما يحصل

(١) أجل، ثمّة رأي فقهي يعتبر أنّ المرأة البكر ولو كانت رشيدة وإن كان لا يحق لأبيها إكراهها على الزواج بمن لا تحبّ، لكن في المقابل فإنّ عليها أن تضمن رضاه وموافقته على الزواج بمن تحبّ.

غالباً ـ رجلاً لا تريده ولا تحبّه، وإنّما لك أن تنصحها وتوجهها، أمّا أن تفرض عليها رجلاً لا تريده فهذا ظلم لها وليس لك ذلك، ولا يصح العقد في صورة الإكراه، فهي التي تريد الزواج لا أنت، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إذا أراد أحدكم أن يزوّج ابنته فليستأمرها**»(١)، ولمّا خطب أمير المؤمنين عليه السلام السيدة فاطمة عليها السلام أتاها رسول الله ﷺ فقال: «**إنّ علياً قد ذَكَرَكِ، فسكتت، فخرج فزوّجها**»(٢)، باعتبار أنّ سكوت المرأة دليل رضاها.

وفي الحديث عن أبي يعفور قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «إنّي أردت أن أتزوّج امرأة وإنّ أبويّ أرادا غيرها، قال: **تزوّج التي هويتَ ودعْ التي هوى أبواك**»(٣).

٤ ـ الاحترام والطاعة

ولكنّ ما تقدم، لا يلغي أبداً أن يكون للأبوين دور إرشادي في القرارات المصيرية التي يريد الشاب اتخاذها، أو الخطوات التي يريد الاقدام عليها، فمن مقتضيات الأدب والخلق الرفيع أن لا يستبدّ الشاب برأيه، بل يجدر به أن يستشير والديه فيما يريد الإقدام عليه، وأن يستفيد من خبرتهما وتجاربهما في الحياة، وقد يكون للأم رأي صائب ولا سيما فيما يتصل بشأن بناتها، ولذا ورد عن رسول الله ﷺ: «**آمروا النساء في بناتهن**(٤)».

إنّ حقّ الوالدين على الولد كبير وعظيم، وعليه أن يحترمهما ويوقرهما ويحسن إليهما، وأن لا يتصرّف أيّ تصرّف يؤذي مشاعرهما، ولا يجوز له بحال أن يقطع رحمهما، بل ينبغي له أن يحرص دائماً على رضاهما، ويجتنب رفع

(١) كنز العمال ج ١٦ ص ٣١١.
(٢) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٣٦.
(٣) الكافي ج ٥ ص ٤٠١.
(٤) سنن أبي داوود ج١ ص ٤٦٥.

صوته في وجههما أو إغضابهما، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾[الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

إذاً، المطلوب من الأبناء أن يحترموا آباءهم وأمهاتهم، وليس المطلوب إطاعة الوالدين، فليس ثمة ما يدل على وجوب الإطاعة فيما يأمرا به، وإنّما الواجب الإحسان والاحترام والتوقير. فهذا هو خلق الإسلام ووصايا القرآن، وتعاليم الرسول الأكرم ﷺ، ولكنّ أخلاق المسلمين في التعامل مع الوالدين آخذة بالتراجع والتردي، حيث بِتْنا نشهد الكثير من الشباب يتعاملون مع آبائهم أو أمهاتهم بقسوة واستخفاف، وهذا عقوق وجحود، وهو مدعاة لغضب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

رواية وعبرة

ويطيب لي في هذا السياق أن أنقل رواية تروى عن الإمام الصادق عليه السلام تتضمن درساً وعبرة حول فضيلة البرّ بالوالدين وأهميته، ففي الحديث عن زكريا بن إبراهيم (من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام) قال: «كنت نصرانياً فأسلمت وحججت، فدخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقلت: إنّي كنت على النصرانية وإنّي أسلمت، فقال: **وأيّ شيء رأيت في الإسلام؟** قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ** ﴾ [الشورى: ٥٢] فقال: **لقد هداك الله**، ثم قال: **اللهم اهده** ـ ثلاثاً ـ **سل عما شئت يا بنيّ**، فقلت: إنّ أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر فأكون معهم وآكل في آنيتهم؟ فقال: **يأكلون لحم الخنزير؟** فقلت: لا، ولا يمسونه، فقال: **لا بأس فأنظر أمك فبرّها، فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت**

الذي تقوم بشأنها ولا تخبرنّ أحداً أنك أتيتني حتى تأتيني بمنى إن شاء الله قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنّه معلم صبيان، هذا يسأله وهذا يسأله، فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها، فقالت لي: يا بنيّ ما كنتَ تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية (الإسلام)؟ فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا: فقالت: هذا الرجل هو نبيّ؟ فقلت: لا، ولكنّه ابن نبيّ، فقالت: يا بنيّ إنّ هذا نبيّ، إنّ هذه هي وصايا الأنبياء، فقلت: يا أماه إنّه ليس يكون بعد نبينا نبيّ ولكنّه ابنه، فقالت: يا بني دينك خير دين، أعرضه عليّ فعرضته عليها، فدخلت في الإسلام، وعلمتها، فصلّت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل، فقالت: يا بني أعد عليّ ما علمتني فأعدته عليها، فأقرّت به وماتت، فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صلّيت عليها وَنَزَلْتُ في قبرها»[1].

٥ ـ نصائح تربوية للوالدين

١ ـ كن قدوة صالحة لابنك في فعلك لا في قولك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**﴾[الصف: ٢ ـ ٣].

يقول الشاعر:

لا تنـَه عـن خلـق وتأتـيَ مثلـه ... عارٌ عليـكَ إذا فعلـتَ عظيمُ[2]

٢ ـ لا تفرض عاداتك على أولادك، ولا تسعى أن يكون ابنك نسخة عنك، فهو مخلوق حرّ وله شخصيته وإرادته ورغباته واختياراته، فلا تفرض عاداتك عليه، سواء في اللباس، فطريقة اللباس قد تتغير من زمان لآخر، وقد ورد في الحديث

(١) الكافي ج٢ ص ١٦١.

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ج٢ ص٢٤.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**خير لباس كلّ زمان لباس أهله**»[1]، أو في الأكل، فإذا أحببت أكلة معينة، فليس بالضرورة أن يحبّها أبناؤك، فمزاجهم قد يختلف عن مزاجك، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكلُ أهلُه بشهوته**»[2]، فالأول رجل متفانٍ بينما الثاني رجل أناني.

٣ـ لا تضخّم أخطاء الولد وتعتبر صغائره كبائر، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا عاتبت الحدث فاترك له موضعاً من ذنبه، لئلا يحمله الإحراج على المكابرة**»[3].

٤ ـ لا تفرض رأيك بدافع التسلط الأبويّ أو في محاولة لإثبات الذات، وإنّما حاوره وشاوره، واعلم أنّك لا تملك عليه حقّ الطاعة، وإنّما لك عليه أن يحسن إليك ويحترمك ويستمع إلى رأيك وتجربتك.

٥ ـ لا تقتحم خصوصياته، فإنّ ذلك غير جائز شرعاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿..**وَلَا تَجَسَّسُواْ** ..﴾[الحجرات: ١٢]، فأوراقه الخاصة أو خزانته هي ملك له، فإذا كان لا يرضى بالاطّلاع عليها، فلا بدّ لك أن تحترم إرادته وخصوصيته، واعلمْ أنّ تلك منطقة محرّمة عليك، وأنّه كما لك خصوصياتك التي لا ترضى أن يقتحمها أحد، فله خصوصياته أيضاً.

٦ ـ أَحْسِنْ الظنَّ بابنك، فإنّ التعامل مع الأبناء من موقع الاتهام أو سوء الظن والريبة في كلّ تصرفاتهم هو أمر خاطىء من الناحية التربوية، وله مضاعفاته السلبية، والإسلام أمرنا بحسن الظنّ مع الناس كلّهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ**﴾[الحجرات: ١٢]. نعم، لك أن تُتابع علاقاته وصداقاته، لكن المتابعة شيء، والتجسس شيء آخر، التجسس

(١) انظر: الكافي ج٦ ص٤٤٤.

(٢) الكافي ج٤ ص١٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢٠ ص ٣٣٣.

هو اقتحام لخصوصياته، أما المتابعة فهي التحسس عن بعد أو قرب، قال تعالى حاكياً لنا وصية يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿**يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾[يوسف: ٨٧].

٧ ـ لا تعنّفه أو تشتمه أو تصرخ في وجهه أو تمارس دور الجلاد معه. فكّر على الدوام أنّك أب، والأبوة ليست سلطة، وإنّما هي رعاية واهتمام. القساوة والفظاظة لا تغيّر بل تدمر، والبيت ليس ثكنة عسكرية ليدار بمنطق «نفّذ ولا تعترض»، وإنّما هو سكن ومستقرّ يدار بالحكمة والحزم المشوب باللين، أو قل: باللين المشاب بالحزم، وشتان بين منطق العنف ومنطق الحزم والرّفق.

٨ ـ لا تمارس التمييز بين أبنائك، فتورثهم العداوة وتزرع بينهم الحقد والبغضاء، فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً معه ولدان، فقبّل الأب أحدهما وترك الآخر، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «**فهلاّ واسيت بينهما**»[1].

(١) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٤٨٣.

٥

مجالس الشباب

ومن القضايا التي نشعر بأهمية خاصة تدفعنا للحديث عنها في المقام، قضية المجالس التي يرتادها الشباب، ولا سيما في عصرنا الحاضر، حيث إنّ هذه المجالس قد تكون سبباً لهداية الشاب، وقد تكون سبباً لانحرافه وتدمير حياته. والسؤال: ما هي المجالس التي ينبغي للشاب ارتيادها؟ وما هي المجالس التي ينبغي الابتعاد عنها؟

ونتناول هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

١ ـ مجالسة الناس حاجة ملحة

في البدء يجدر بنا القول: إنّ للإنسان طبيعةً مدنيّة فطره الله عليها، وهي تدفعه للاختلاط بأبناء جنسه وتملي عليه بمعاشرة الآخرين ومجالستهم، واللقاء بهم والتحدّث معهم، وانسجاماً مع هذه الطبيعة وبوحي منها، تجد أنّ الإنسان ومنذ فجر التاريخ اندفع إلى التلاقي والتواصل مع الآخرين، وتشكيل المجالس والنوادي والملتقيات.

والإسلام بدوره يشجّع على التلاقي واتخاذ المجالس، لأنّه كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لقاء الاخوان مغنم جسيم وإن قلّوا**»[1].

(١) الكافي ج٢ ص ١٧٩، ونهج البلاغة ج٤ ص٤١.

فالمجالس لها فوائد كثيرة وجمّة، وهي تحقق أغراضاً ومصالح شتّى، ولا سيّما على الصعيد الاجتماعي والتربوي، لأنّ التواصل مع الآخرين هو في الوقت الذي يُخرج الإنسان ولا سيّما الشاب من عزلته ومن سلبيات العزلة والفراغ، فإنّه يكسبه الأنصار والأعوان، ويمدّه بالخبرة والتجربة. والمجالس بما تؤمّنه له من فرصة لتلاقح الأفكار وتبادلها، فإنّها ستثري تجربته وتغني ثقافته، لأنّه كما قال الإمام علي عليه السلام: «**من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها**»[١]، وقيل شعراً:

وليس كثيراً ألفُ خلٍّ وصاحبٍ   وإنّ عَـدوًّاً واحـداً لكثيـرُ[٢]

٢ ـ أدب المجالس

وللمجلس في الإسلام آداب خاصة، تتصل بالمجلس نفسه، وبروّاده، وبكيفية الجلوس، وكيفية الحديث، ويمكننا الإشارة إلى أهمّ آداب المجلس:

أولاً: البدء بالسلام، وذلك عند الدخول إلى المجلس، وكما يحسن بالداخل البدء بالسلام فإنّه يجب على المتواجدين فيه ردّ السلام عليه؛ لأنّ «**السلام تطوّع والردّ فريضة**»، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٣]. ولا بدّ لنا أن نلفتَ النظر إلى أنّه إذا دخل الإنسان مجلساً، وكان هناك واعظ يتكلّم أو قارئ يقرأ القرآن أو مدرّس يعلّم تلامذته .. فيجمل به الدخول دون ضجيج، ودون أن يرفع صوته بالسلام على الحضور مثيراً بذلك الصخب، فضلاً عن أن يعمد إلى مصافحة الحاضرين فرداً فرداً.

---

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤١.

(٢) نسب هذا الشعر إلى أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: المستطرف في كلّ فن مستظرف ج١ ص٢٠٩، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين للسيد نعمة الله الجزائري ص٣٢٧.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٦٤٤.

ثانياً :الجلوس حيث ينتهي بالإنسان المجلس، هذه وصية رسول الله ﷺ، وعلى هذا كان سلوكه ﷺ أيضاً، ففي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن عليّ بن الحسين عليه السلام عن الحسن بن عليّ عليه السلام عن خالِه هند بن أبي هالة، قال وهو يحكي لنا أوصاف رسول الله ﷺ: «... كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه، ولا يَحْسَبُ أحدٌ من جلسائه أنّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه»[1]. ومن خلال هذه السيرة العطرة لرسول الله ﷺ، ومن وحي تلك الوصايا الجليلة، يتعلّم الإنسان التواضع واحترام الآخرين.

وعليه، فالسلوك الذي يحرص عليه البعض من الإصرار على الجلوس في الصف الأمامي مثلاً، وإذا لم يجد محلاً في صدر المجلس فإنّه ينصرف أو يُخْرِجُ بعض الجالسين ليقوم فيجلس مكانه، هو خلق ذميم ومكروه في الإسلام. لقد كان رسول الله ﷺ وهو أشرف وأكرم خلق الله تعالى، لا يجد غضاضة في الجلوس حيث انتهى به المجلس، ولا يتخذ لنفسه مكاناً مميزاً، حتى أنّ الداخل عليه كان لا يعرف من هو النبيّ ﷺ ومن هم صحابته، ولذا كان يبادر إلى التساؤل: أيّكم محمّد ﷺ[2]؟

هذا من الزاوية الأخلاقية، وأمّا من الزاوية الفقهية، فإنّ من يسبق إلى مجلس فهو أولى به ولا تجوز مزاحمته عليه، لقوله ﷺ: «**من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له**»[3]. بيد أنّ هذا لا ينفي أنّ مقتضى الأدب هو أن يوسّع المرء للآخرين

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١ ص٢٨٤، ومعاني الأخبار ص٨٢، بيان قوله: «ولا يوطن الأماكن»، أي لا يتخذ لنفسه مجلساً يعرف به، وقوله: «ويعطي كل جلسائه نصيبه» أي بالنظر والحديث والعناية به، فلا يفضل أحداً على أحد، وقوله «من جالسه صابره» أي يصبر على جليسه ولا يُظهر التبرم منه حتى يكون هو المنصرف عنه.

(٢) انظر: صحيح البخاري ج١ ص٢٣.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ج١ ص ٢٨٠.

ويفسح لهم في المجالس، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ .. ﴾[المجادلة: ١١]، وأحياناً يستحب للمرء وربما وجب عليه أن يقوم ويُجلس الآخرين، كما لو كان الشخص جالساً في أماكن العبادة كالمساجد، وقد أدّى أعماله الواجبة أو المستحبّة، ودخل إلى المسجد أشخاص آخرون يريدون القيام بأعمالهم العبادية.

ثالثاً: احترام أسرار المجالس وعدم إفشائها، فإنّ ذلك من مقتضيات الأمانة، وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «**المجالس بالأمانات، وليس لأحدٍ أن يحدّث بحديث يكتمه صاحبه إلا بإذنه**»(١). أجل، لو كان الحديث الدائر في المجلس فيه خيانة للأمة، أو تخطيط للتآمر على أحد الناس بهدف قتله أو نحو ذلك، فهنا تكون رعاية مصلحة الأمة أو مصلحة حفظ النفوس والأعراض أهمّ من مفسدة إفشاء أسرار المجالس، ولذا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**المجالس بالأمانة إلاّ ثلاثة مجالس: مجلس سفك فيه دم حرام، أو مجلس استحلّ فيه فرج حرام، أو مجلس يستحلّ فيه مال حرام بغير حقّه**»(٢).

٣ ـ المجالس المحبوبة

غير خافٍ أنّ للمجالس أنواعاً عديدة ومختلفة، فثمة مجالس مثمرة ونافعة ومفيدة للإنسان في دنياه وآخرته، وفي المقابل فهناك مجالس غير نافعة ولا مفيدة، بل إنّ بعضها مسيء له أخلاقياً وروحياً. والنوع الأول من المجالس هو المجالس العامرة بذكر الله أو التي تذكرّه الآخرة أو التي تُتلى فيها تعاليم الإسلام، أو التي تزيد المرء علماً أو عملاً، أو تفتح له أبواب التواصل المثمر مع

(١) الكافي ج ٢ ص ٦٦.
(٢) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ١٠٥، الباب ٧١ من أبواب أحكام العشرة الحديث ٤.

بني الإنسان، أو تساهم في تقريب القلوب وإصلاح ذات البين، ومجالس كهذه هي مجالس محبوبة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وإليك أهمها:

أولاً: مجالس طلب العلم

إنّ كلّ مجلس يزيد في ثقافة الإنسان ويقدّم له معلومة مفيدة، أو تجربة نافعة هو مجلس علم، وهو مبارك بل هو مجلس عبادة، ولذا يرى بعض الفقهاء أنّ إحياء ليلة القدر بطلب العلم والمذاكرة لا يقلّ عن إحيائها بالعبادة والتضرّع(١)، أو قل: إنّ مذاكرة العلم فيها هو نوع إحياء لها، ويؤجر صاحبه كما يؤجر من أحياها بالعبادة.

ويروي بعض العلماء أنّه خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلس يتفقهون، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه، فقال: «**كلا المجلسين إلى خير، أما هؤلاء فيدعون الله، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل، هؤلاء أفضل، بالتعليم أُرْسِلْتُ. ثم قعد معهم**»(٢).

ويروى أنّ فقيهاً دخل على أحد الفلاسفة يعوده، فوجده في حالة الاحتضار، فتوجه الفيلسوف وهو في هذه الحالة إلى الفقيه وسأله سؤالاً شرعياً، فتثاقل الفقيه في الإجابة رأفة به ومراعاة لحاله وقال: ليس الوقت مناسباً لذلك، فقال له الفيلسوف: أيّها الفقيه أنا أسألك سؤالاً: إذا متُّ وأنا عالم بهذه المسألة أفضل، أم أموت وأنا جاهل بها أفضل؟ قال: الثاني أفضل، قال: ـ إذاً ـ فاذكر لي حكمها.

ثانياً: مجالس المساجد

لا شكّ أنّ في التّردّد على المساجد وارتيادها فوائد كثيرة وبركات عديدة، ثقافية أو اجتماعية أو روحيّة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من اختلف إلى المسجد**

(١) قال الشيخ الصدوق: «ومن أحيا هاتين الليلتين بمذاكرة العلم فهو أفضل»، انظر: الأمالي ص٧٤٧.

(٢) منية المريد، للشهيد الثاني ص١٠٦، تحقيق: رضا المختاري ط١، دار المرتضى، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م.

أصاب إحدى ثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو سمع كلمة تدلّه على هدى، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو حياءً»(1).

ثالثاً: مجالس الدعاء وقراءة القرآن

ومن أنفع المجالس وأعظمها بركة وفائدة مجالس قراءة القرآن والتّدبر فيه وتلاوته وتجويده، وكذلك مجالس الدعاء والذكر، أو غيرها من المجالس التي يجتمع المؤمنون فيها للعبادة، أو التوبة إلى الله، ففي الدعاء: «**مالي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالت قدمي وحالت بيني وبين خدمتك سيدي**»(2).

رابعاً: المجالس الأسرية

وهي المجالس التي تجتمع فيها الأسرة بكامل أبنائها وأعضائها، ففي هذه المجالس صلةُ رحم وتداولٌ في هموم الأسرة ومشاكلها، ومحاولة إيجاد الحلول لها. والإسلام يرغبٌ في هذا الأمر، لأنّ العمل على تطويق المشاكل وحلّها داخلياً هو أجدى وأفضل بكثير من نقل المشكلة إلى المحاكم والملاحقات القضائية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا** ﴾[النساء: ٣٥]، ويحسن بالأبناء بعد أن يتزوجوا وينجبوا أولاداً أن لا ينسوا البيت الذي تربوا فيه والحضن ـ حضن الأب والأم ـ الذي ترعرعوا فيه، وينبغي لهم أن يصحبوا أبناءهم أسبوعياً ـ على الأقلّ ـ إلى بيت الجدّ، ليتلاقى الأولاد والأحفاد وأولاد العمّ والخال، ليتعارفوا ويتواصلوا، ويُدْخِلُوا بذلك السرور على الجدّ والجدّة،

(1) الخصال للصدوق ص ٤١٠.

(2) من دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، انظر مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٥٨٨.

ويستفيدوا من تجاربهم، فـ «**في التجارب علم مستأنف**»[1]. كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

خامساً: مجالس المؤمنين

وهي المجالس التي يلتقي فيها المؤمنون، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا رأيتم روضة من رياض الجنة فارتعوا فيها!** قيل: يا رسول الله وما روضة الجنة؟ قال: **مجالس المؤمنين**[2]». ومن الطبيعيّ أنّ هذه المجالس إنّما عُدّت روضة من رياض الجنة لكونها مجالس عامرة بذكر الله أو نصيحة عباد الله، أو ذكر وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته العطرة، أو تعاليم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام يخاطب ميسراً وهو أحد أصحابه: «**أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟** قلت: إي والله، إنّا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا، فقال: **أما والله لوددت أني معكم في تلك المواطن، أما والله إنّي لأحبّ ريحكم وأرواحكم، وإنكم على دين الله ودين ملائكته فأعينوا بورع واجتهاد**»[3].

سادساً: مجالس العلماء والأتقياء

إنّ مجالسة العلماء والأتقياء تثري المرء وتزيده علماً وتقى، ولذا كانت من أحبّ المجالس عند الله تعالى، فقد روي أنّه سأل بعضُ الحواريين روحَ الله عيسى بن مريم عليهما السلام من نجالس؟ قال:« **من يذكركم الله رؤيتُه ويرغبكم في الآخرة عملُه ويزيد في منطقكم عِلْمُه**»[4]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة**»[5].

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ٢٥٩.
(٢) بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٨٨.
(٣) الكافي ج ٢ ص ١٨٧.
(٤) بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٨٩.
(٥) الكافي ج ١ ص ٣٩.

سابعاً: مجالس العمل الاجتماعي والثقافي

إنّ المجالس التي تتضمن ندوات فكرية، أو اقتصادية أو صحية أو نحوها هي من أفضل وأجمل المجالس، لما فيها من فوائد جمّة للإنسان، وهكذا المجالس التي تتضمن أعمالاً ترفيهية أو رياضية.. فإنّ الإنسان ولا سيّما الشباب بحاجة ماسة إلى هذه المجالس، وقد ورد: «**روّحوا القلوب ساعة بساعة**[1]»، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم**»[2].

٤ ـ المجالس الممقوتة

وفي المقابل فإنّ ثمة مجالس يمقتها الإسلام أو يحرّمها، ويدعو إلى مقاطعتها والابتعاد عنها، وإذا تواجد المؤمن فيها فعليه أن يعمل على تغيير وجهة المجلس، من مجلس يبغضه الله إلى مجلس يحبّه الله، بأن يصدع بالحقّ وينكر المنكر وينتصر للمظلوم، فإنّ «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر**»[3]، وإن لم يستطع الإنسان الانتصار للمظلوم والردع عن المنكر، فعليه الانسحاب من المجلس، ولا يجوز له البقاء فيه.

فالمطلوب إذاً في مثل هذه المجالس إما:

١ ـ محاولة تغيير وجهة المجلس.

٢ ـ وإن لم يستطع فعليه الانسحاب.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يُعصى الله**

---

(١) انظر: كنز العمال ج ٣ ص ٣٧.

(٢) نهج البلاغة ج ٤ ص ٢٠.

(٣) كما في الحديث النبوي الشريف، انظر: الكافي ج ٥ ص ٦٠.

فيه ولا يقدر على تغييره»[1]. وفي حديث آخر عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ »: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلساً يُنتقص فيه إمام أو يُعاب فيه مؤمن»**[2].

وكان أحد أصحاب الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يتردد على مجلس يَصِفُ صاحبُه اللهَ تعالى بأوصاف البشر، فقال له الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إما جلست معه وتركتنا وإما جلست معنا وتركته**، فقال: هو يقول ما يشاء، أيّ شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ (وهذا عذر نسمعه من الكثيرين اليوم، حيث يقال: أنا لا أفعل الحرام فما شأني بالآخر) فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً»**[3].

إذاً مقاطعة هذه المجالس هي من باب:

١ ـ النهي عن المنكر.

٢ ـ عدم تشجيع الانحراف.

٣ ـ الانتصار للمؤمنين.

٤ ـ كما أنّ وجود المؤمن في بعض هذه المجالس يؤدّي إلى هتك حرمة نفسه.

٥ ـ على أنّ ثمّة أثراً وضعياً لمن يجلس في هذه المجالس، وهو أنّه في معرض أن تناله نقمة الله سبحانه وعذابه الذي قد يصيب أهل هذه المجالس.

وفيما يلي نذكر بعض المجالس المبغوضة لله تعالى:

أولاً: مجالس الاستهزاء بالدين ورموزه

وهو من أبغض المجالس وأمقتها عند الله، قال الله تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ**

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٧٤.
(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٧٧.
(٣) الكافي ج ٢ ص ٣٧٥.

يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ ﴾[النساء: ١٤٠]. وقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[الأنعام: ٦٨ ـ ٦٩].

ثانياً: مجالس الكذب على الله ورسوله

في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: «**ثلاثة مجالس يمقتها الله ويرسل نقمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم: مجلساً** (هكذا) **فيه مَنْ يَصفُ لسانَه كذباً في فتياه..**»، أي مجلس المفتي الكاذب، كالكثير من علماء السلطة الذين يمشون في ركب السلطان ويبررون له تصرفاته.

ثالثاً: مجالس تمجيد أعداء الله

وفي تتمة الحديث الآنف عنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء: «.. **ومجلساً ذِكْرُ أعدائنا فيه جديدٌ وذكرنا فيه رثّ، ومجلساً فيه من يصدّ عنّا وأنت تعلم**»[١]، أي يهان فيه أعلام الدين ورموزه، وهذا ما أشرنا إليه أولاً.

رابعاً: مجالس المعصية

ومن جملة المجالس المبغوضة لله تعالى مجالس العصيان وفعل المنكرات، من قبيل السباب والغيبة وغيرهما. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من قعد عند سبّاب لأولياء الله فقد عصى الله**»[٢]، وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «**من قعد في مجلس يُسبّ فيه إمام من الأئمة يقدر على الانتصاب** (الانتصار) **فلم يفعل ألبسه الله الذل في الدنيا، وعذّبه في الآخرة، وسلبه صالح ما**

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٨٧.
(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٩٧.

منّ به الله عليه من معرفتنا»[1]، وقد تقدم حديث الامام الصادق عليه السلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلساً ينتقص فيه إمام أو يعاب فيه مؤمن**»[2].

ومن أبرز مجالس المعصية مجلس شرب الخمر، فقد حرّم الإسلام الخمرة ودعا إلى مقاطعة شاربها، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولا تجلسوا على مائدة يشرب عليها الخمر فإنّ العبد لا يدري متى يؤخذ**»[3]، وقد أسلفنا في المحور الخامس أنّ الله تعالى إذا أبغض شيئاً لم يكتف بتحريمه بل ويحرّم كلّ المقدمات المؤدية إليه، فهو ـ مثلاً ـ عندما حرّم شرب الخمر فإنّه سدّ كلّ السبل المؤدية إلى إنتاج الخمر وتداوله، لذا فإنّه حرّم زراعة شجرة الخمر التي تكون معدّة لذلك ولا يستفاد منها إلا في ذلك، وكذلك حرّم عصرها، والجلوس على مائدتها.. وأهميّة هذا الإجراء الأخير، أنّه يخلق حاجزاً نفسياً تجاه الحرام، بينما الجلوس على مائدة الخمر أو عصره أو تقديمه للآخرين كفيل مع الوقت بإسقاط هذا الحاجز النفسي تجاهها، ممّا قد ينجرّ إلى شربها، ففي الحديث عن زيد بن عليّ عن آبائه عليهم السلام: «قال: **لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وساقيها وآكل ثمنها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه**»[4].

ويهمّني التنبيه هنا إلى أنّ واحدا من أخطر وأسوأ مجالس المعصية، هو مجلس الغيبة حيث يتناول أصحابه أعراض الآخرين ويأكلون لحومهم، والغيبة في حقيقة الأمر هي آفة المجالس.

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٧٩.
(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٧٧.
(٣) الخصال للصدوق ص ٦١٩.
(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٩٨.

خامساً: مجالس المتكبرين والمرائين

إنّ مجالس أصحاب الدنيا الذين لا حديث لهم إلاّ حديث المال والجاه والتكاثر بالأولاد، هي مجالس مذمومة ومبغوضة لله تعالى؛ لأنّها مجالس لا تفوح منها سوى رائحة التكبر والغرور ممّا يميت القلب وينسي الربّ تعالى، وهذا هو ما يرمي إليه النبيّ ﷺ ـ فيما يروى عنه ـ قال: «**أربع يمتن القلب**: إلى أن قال: **ومجالسة الموتى!** فقيل يا رسول الله ﷺ: وما الموتى؟ قال: **كلّ غنيّ مترف**»[1].

وعلى العموم، فإنّ من المناسب للإنسان أن يُصاحب أو يجالس من هم دونه في الوضع المالي؛ لأنّ ذلك مدعاة لاكتشاف عظيم النعمة الإلهية عليه، كما أنّه مدعاة لشكر الله تعالى، يروى أنّ نبي الله سليمان عليه السلام كان إذا رأى مسكيناً جلس إليه وقال: «**مسكين جالس مسكيناً**»[2]، وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ: «أين الله؟ فقال: **عند المنكسرة قلوبهم**»[3].

ونحن لا نقصد بما ذُكر الدعوة إلى تكريس نوع من الطبقية في المجالس ليكون للأغنياء مجالسهم وللفقراء مجالسهم، كلا فهذا أمر مذموم بكلّ تأكيد، بل إنّنا ندعو إلى كسر الحواجز الطبقية. فالغنيّ يجدر به أن يخرج من طبقة الأغنياء ليجالس الفقراء ويزورهم، ويحسن به أن يصطحب معه أبناءه، ليشعروا بنعمة الله عليهم، وليتحسس هو وأولاده معنى الفقر والجوع والألم.

---

(١) الخصال للصدوق ص ٢٢٨.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج٦ ص٢٩، والمحجة البيضاء في تهذيب الإحياء ج٣ ص٢٠٤، ورياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين ج ٤ ص ٣٥٤.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ١٥٧.

سادساً: المجالس المختلطة

والمجالس المختلطة هي التي يجتمع فيها الرجال والنساء، فما هو الموقف من هذه المجالس؟

والجواب: أنّ اختلاط الجنسين ليس محرماً في الإسلام إذا روعيت فيه الشروط التالية:

١ ـ أن لا يكون الاختلاط مريباً ومثاراً للشبهة ومدخلاً للشيطان، كما في حالة اختلاء الرجل والأنثى، فإنّه ما اختلى رجل وامرأة «**إلاّ كان الشيطان ثالثهما**»، كما ورد في الحديث النبويّ الشريف[1].

٢ ـ مراعاة الحشمة والعفة وعدم الابتعاد عن حدود اللياقة والأخلاق، فمجالس الرقص والغناء والمجون التي يجتمع فيها الجنسان، كلّها مجالس محرمة ويبغضها الله تعالى، وكذلك لا بدّ من اجتناب الكلام المثير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ** ﴾[الأحزاب: ٣٢].

سابعاً: مجالس الفضوليين

من المجالس التي يكرهها الإسلام، وإن لم يصل الأمر فيها إلى حدّ التحريم: مجالس الفضوليين، وهي مجالس أولئك الأشخاص الذين لا ينتفع الإنسان بمجالستهم شيئاً، لا في دين ولا في علم ولا ثقافة، فهي مجالس للترف واللّهو، والمزاح الثقيل والضحك العالي، وشرب الدخان و«الأراكيل». أجل، إنّ الإسلام لم يحرّم المزاح الخفيف ولا اللّهو البريء، لأنّه كما يقول عليّ عليه السلام: «**إنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فتخيّروا لها طرائف الحكمة**»[2]، وقال عليه السلام: «**روحّوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنّ القلب**

(١) دعائم الإسلام ج ٢ ص ٢١٤، ومسند أحمد ج ١ ص ١٨.

(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٤٥.

إذا أُكْرِهَ عمي»[1]. لكن على الإنسان أن لا يتجاوز الحدود الشرعية، فلكلّ شيء حدوده، فللمزاح حدوده، وكذلك للضحك. ومن الحدود التي ينبغي مراعاتها: عدم استهلاك الوقت في أمثال هذه المجالس، بحيث يصبح همّ الإنسان وشغله الشاغل هو ارتياد مجالس الضحك واللهو والمزاح، بعيداً عن مسوؤلياته الاجتماعية وواجباته الدينية.. ويروى أنّه دخل رسول الله ﷺ إلى المسجد فوجد جماعة متجمعين حول رجل فسأل: **من هذا؟** فقالوا: علامة، فقال: **وما العلامة؟** قالوا: إنّه يعلم بأنساب العرب وأيّام الجاهلية وبالأشعار العربية، فقال النبيّ ﷺ: «**ذاك علم لا يضرّ من جهله ولا ينفع من علمه**» ثم قال: «**إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهنّ فضل**»[2]، وما أكثر الفضول في مجالسنا وفي أحاديثنا!

(١) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام لابن ميثم البحراني ص١٦٥.

(٢) الكافي ج١ ص٣٢.

المحور السابع

الشباب ومرح الحياة

أولاً: الشباب والرياضة

ثانياً: الشباب والسياحة

ليس خافياً أنّ لدى الإنسان وخاصةً جيل الشباب ميلاً واضحاً إلى المرح واللّهو والاستمتاع بملذات الدنيا وزينتها، ومرحلة الشباب قد تكون بحاجة أكثر من سائر المراحل العمرية - باستثناء مرحلة الطفولة - إلى المرح والتصابي، ولأهمية هذا الأمر فقد عقدنا هذا المحور والذي نتناول فيه نقطتين أساسيتين:

الأولى: ويدور الحديث فيها عن الشباب والرياضة والموقف الشرعيّ من ذلك.

الثانية: ويدور الحديث فيها عن السياحة التي يميل إليها الشباب باعتبارها إحدى مظاهر الاستمتاع بملذات الدنيا.

١

الشباب والرياضة

إنّ الإسلام ـ بحكم وسطيته واعتداله ـ ينطلق في تشريعاته وأحكامه من مصالح نوعيّة، تراعي خصائص الإنسان ومتطلباته الفطريّة المختلفة، وتعمل على تأمينها. ومن هذه الخصائص الفطريّة، أنّه ـ أي الإنسان ولا سيّما الشاب ـ لا يتسنّى له أن يبقى جاداً في كلّ حالاته، بل يحتاج إلى شيء من المرح واللّهو البريء. ومن هذا المنطلق فقد راعى التشريع الإسلاميّ هذه الحاجة، ووازن بين متطلبات الإنسان المتنوعة، فوازن بين الدنيا والآخرة، وقد روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنّه قال: «**اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا**»[1]، ووازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ..﴾[الأعراف: ٣٢]، فالمرح يمثّل استجابة وتلبية لمتطلبات الجسد، والبرنامج العبادي الذي أقرّه الإسلام يمثّل تلبية لمتطلبات الروح.

إنّ ساعة اللهو البريء التي ينشغل بها الإنسان ولا سيّما الشاب، لا تلبّي حاجته الطبيعيّة لذلك فحسب، بل إنّها تساعده على تجديد نشاطه وحيويته، ليتسنّى له معاودة أعماله العبادية أو الاجتماعية أو التجارية أو غيرها بكلّ إقبال وفاعلية، وحيويّة، وفي الواقع فإنّ من خصائص النفس البشرية أنّها تستمرّ على وتيرة

(١) تقدمت مصادر الحديث سابقاً، فراجع.

واحدة، فهي تملُّ وتحتاجُ إلى التغيير، وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: «**إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة**»[١]. فهذا النصُّ يدعو إلى التخفّف من النوافلِ في حالِ إدبار القلوب.

ومن هنا، فلا يمكن للإسلام وهو الشريعة السمحة السهلة أن يمنع الفرح، كما لا يمكنُه أن يمنعَ الحزن؛ لأنّ الفرح ـ كما الحزن ـ هو حالة إنسانيّة فطريّة يحتاج إليها الإنسان.

وفيما يلي نشير إلى بعض المحطات المهمّة التي تتجلّى فيها واقعيّة التشريع الإسلاميّ، ومراعاته لطبيعة الإنسان واحتياجاته المتنوعة:

١ ـ ارتياد المتنزهات

يميل الإنسان إلى التنزه والترفيه عن نفسه وعن عياله وأطفاله، وهو ميل طبيعيّ مشروع، وقد كان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يتنزهون ويطلبون النزهة، ففي الحديث عن بعض أصحاب الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال لنا الرضا عليه السلام: **أي الإدام أجزأ؟** فقال بعضنا: اللحم، وقال بعضنا: الزيت، وقال بعضنا: السمن، فقال هو: **لا، بل الملح، لقد خرجنا إلى نزهة لنا، ونسي الغلمان الملح، فما انتفعنا بشيء حتى انصرفنا**»[٢].

ومن هنا، فلا غضاضة ولا حرج على الإنسان أن يطلب التنزّه والفسحة والتمتع بالأنهار والأشجار، ففي الحديث عن أبي الحسن عليه السلام: «**ثلاثة يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن**»[٣].

ونلاحظ، أنّ هذا الحديث اشتمل على ثلاثة عناصر أساسية يساعد النظر إليها

(١) الكافي ج ٣ ص ٤٥٤ وهو مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: نهج البلاغة ج٤ ص ٧٥.
(٢) المحاسن للبرقي ج٢ ص٥٩.
(٣) المحاسن للبرقي ج٢ ص٦٢٢.

على الارتياح النفسيّ. واللافت، أنّ هذه العناصر نفسها هي التي تمثّل العناصر الأساسية التي تملأ الجنة عرضَها وطولَها، وكأنّ الله تعالى أراد لنا أن نعيش جنّة في الدنيا وجنّة في الآخرة، والعناصر الثلاثة هي:

أ ـ **الخضرة**، وواضح أنّ عنوان الجنّة يختصر اللون الأخضر، حتى أنّ لون لباس أهل الجنة هو الأخضر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ**﴾[الإنسان: ٢١].

ب ـ **المياه**، وحديث القرآن الكريم عن أنهار الجنّة لا يكاد يخفى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ**..﴾[التوبة: ٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

ج ـ **الوجه الحسن**، وهذا العنصر ـ أيضاً ـ متوفر في الجنّة من خلال الحور العين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَحُورٌ عِينٞ * كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ**﴾[الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣].

٢ ـ المرح واللهو البريء

المحطة الثانية التي تتبدّى فيها واقعية التشريع الإسلاميّ، هي إقراره بحاجة الإنسان إلى اللهو البريء، سواء بالنسبة للصغير أو الكبير. أما الصغير فهو أكثر حاجة للهو واللعب؛ لأنّ مرحلة الطفولة تحتاج إلى مثل هذا المرح، ومن هنا ورد الحثّ على ضرورة تأمين هذه الحاجة له، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**من كان عنده صبيّ فليتصاب له**»(١). وهكذا الشاب والكبير، فإنّه يحتاج أحياناً إلى الترفيه عن نفسه، وقد روي أنّ النبيّ ﷺ كان يمازح أصحابه، وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**ما من مؤمن إلا وفيه دعابة، قلت: وما الدعابة؟ قال: المزاح**»(٢). فالمؤمن ليس مطلوباً منه أن يكون شخصيّة

(١) من لا يحضره الفقيه ج٣ ص٤٨٣.
(٢) الكافي ج٢ ص٦٦٣.

متشائمة يظهر عليها العبوس، أو تتملّكها الجديّة المطلقة، ولبس الثياب السوداء القاتمة.

وفي الحديث قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت: جعلت فداك الرجل يكون مع القوم فيجري بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال: **لا بأس ما لم يكن**، فظننت أنّه عنّى الفحش، ثم قال: **إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأتيه الأعرابي فيهدي له الهديّة، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إذا اغتمّ يقول: ما فعل الأعرابيّ ليته آتانا**»[1].

٣ـ العيد والفرح

المحطة الثالثة التي تعبّر عن واقعية التشريع الإسلاميّ، ومراعاته لمتطلبات الإنسان، هي إقراره بمشروعيّة الأعياد وممارسة اللهو والمرح والتزين فيها. ونلاحظ أنّ بعض الآيات تتحدث عن العيد باعتباره يوم الزينة ﴿**قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ**﴾[طه: ٥٩]، كما تحثُّ نصوص أخرى على تقديم الهدايا والمأكولات اللذيذة، فقد روي أنّه أهدي إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الفالوذج (وهو نوع من الحلوى) في يوم النوروز، فقال: «**نورزونا كلّ يوم**»، وقيل: كان ذلك في المهرجان، فقال: «**مهرجونا كل يوم**»[2].

وهكذا، فإنّ ثمة رأياً فقهياً يرى أنّ الغناء مباح يوم العيد، كما هو مباح في الأعراس، وذلك استناداً إلى بعض الروايات الواردة في ذلك، والبحث في ذلك موكول إلى المجال الفقهيّ.

---

(١) الكافي ج٢ ص٦٦٣.

(٢) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٧.

٤ ـ الرياضة ممارسةً وتشجيعاً

وفي هذا السياق، فإنّ الإسلام يشجّع على الرياضة البدنيّة ولا سيّما للشباب، لأنّها حاجة للجسم وللنفس معاً، وتنصّ بعض الروايات على كون ذلك من حقوق الولد على والده، قال رسول الله ﷺ فيما روي عنه: «**علّموا أولادكم السباحة والرماية**»(١)، هذا ناهيك عن أنّ الرياضة البدنية تمثّل نوعاً من إعداد المجتمع القوي، فتندرج في قوله تَعَالَىٰ: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾[الأنفال: ٦٠].

ولأهميّة التدريب الرياضي والتأهيل الجسدي، فإنّ التشريع الإسلامي وبالرغم من تشدّده في أمر القمار والمراهنات المالية، قد أباح الرهان على بعض أنواع الرياضة الجسديّة، وهي الرماية وسباق الخيل أو ما يقوم مقامه في أيامنا، كالسيارات المعدة للتدريب العسكري، وقد ورد في الحديث النبويّ الشهير: «**لا سبق إلاّ في خفّ أو حافر أو نصل**»(٢).

الضوابط والتحفظات

إنّ هذه المحطات تشير إلى المبدأ العام، والمتمثّل بالاعتراف بحاجة الإنسان إلى المرح واللهو والتنزه؛ لكنّ التشريع الإسلاميّ لديه تحفظٌ على بعض الممارسات التي يأخذ بها البعض دون ضوابط أو قيود، فالفرح مشروع، شريطة أن لا يؤدّي إلى البطر والطيش، وقد ورد في صفات المؤمن «**لا يخرق به فرح ولا يطيش به مرح**»(٣)، أي لا يصير الفرح سبباً لخرقه وسفهه، ولا يصير المرح سبباً لطيشه وخفته، وهذا ما يشير إليه قوله تَعَالَى: ﴿**لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ**﴾[القصص: ٧٦]، وذلك في خطاب موسى عليه السلام لقارون، فإنّ المراد بالفرح في الآية الشريفة هو البطر الذي وقع فيه قارون الطاغية المتجبر.

---

(١) الكافي ج ٦ ص ٤٧

(٢) الكافي ج٥ ص٤٩.

(٣) الكافي ج٢ ص٢٢٩.

٥ ـ مباريات كأس العالم وما يرافقها

ويجدر بنا أن نطلّ على مناسبة كأس العالم، وهي المناسبة التي تجذب اهتمام مئات الملايين وربما المليارات من بني الإنسان، ولا ريب أنّ اهتمام الشاب المسلم بمتابعة ما يجري من مباريات رياضية وتشجيعه لفريقٍ هنا أو فريق هناك هو أمر مشروع ولا غبار عليه، وهو يدخل ضمن مساحة المباحات الشرعية والتي قد تلبي حاجة الإنسان إلى المرح واللهو البريء.. ولكنّ الملاحظ أنّه قد يرافق هذه المناسبة «كأس العالم» أو غيرها من المباريات الرياضية بعض السلبيات التي لا بدّ أن نلفت النظر إليها في محاولة لمحاصرتها:

أولاً: التحدي بين الجماعات أو الأفراد، والذي قد يصل إلى حدّ الخصومة وخروج الإنسان عن طوره وتلفظه بكلمات السبّ والفحش، وهو أمر محرّم شرعاً. وإنّنا نلاحظ أنّ الله تعالى قد حرّم الخمر مبرراً ذلك ببعض الوجوه، ومنها: أن ذلك يثير الضغائن والعداوات بين الناس، قال تعالى في وجه تحريمها: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾[المائدة: ٩١]، وهذا ما يقع فيه الكثير من الشباب أو غيرهم من متابعي تلك المباريات، فتنشب بينهم الخصومات وتحصل القطيعة، وأحياناً تطالعنا وسائل الإعلام عن حالات طلاقٍ بين الزوجين، سببها انحياز كلّ منهما إلى فريق غير فريق الآخر، كما أنّ بعضهم ونتيجة انهماكه في متابعة المباريات، تفوته الصلاة أو يؤخّرها عن أوقاتها، فتكون تلك المباريات صادّةً عن ذكر الله تعالى.

وأمّا وقوع الكثيرين من مشجعي الفرق الرياضيّة في محذور الشتائم، والتطاول على مقدسات الآخرين وكراماتهم، فهو أمر ملحوظ وشائع، حتى صارت بعض الدول تضطر إلى إعداد فرق أمنية أو عسكرية خاصة لحماية أمن الملاعب من

الشغب، الأمر الذي يُخرج هذه الهوايات عن عفويتها وشرعيتها؛ لأنّ اللهو واللعب إذا تحوّل إلى صراعات أو حفلات شتائم، فإنه سيغدو أمراً محرماً، وفي الحديث: سمعت أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «**إنّ الله يحبّ المداعب في الجماعة بلا رفث**»[1]. والرفث هو قول الفحش، ونحوه.

ثانياً: والسلبية الثانية التي ترافق هذه المباريات تتمثّل بإزعاج الناس، وإيذائهم وإقلاق راحتهم من خلال إطلاق المفرقعات أو أبواق السيارات، ويصل الأمر بالبعض إلى حدّ إطلاق الرصاص الحيّ.. إلى غير ذلك من أشكال الضوضاء والتلوّث السمعي، وقد أفتى بعض الفقهاء بحرمة إزعاج الآخرين، حتى بأصوات قراءة القرآن أو المجالس الحسينية واللطميات[2]، فما بالك بأبواق السيارات أو المفرقعات أو نحوها من الأصوات المزعجة لراحتهم.

ثالثاً: والسلبيّة الثالثة هي وقوع الكثير من الشباب وغيرهم في فخّ المراهنات الماليّة، حيث يحصل رهان على الفريق الرابح. والخاسر من المتراهنينْ يدفع مبلغاً معيناً للرابح، وهذا نوع من القمار أو الميسر المحرم شرعاً بنص القرآن الكريم.

رابعاً: السلبية الرابعة هي تبديد المال وتبذيره، من خلال ما يُدفع ثمناً للرايات أو الصور أو اليافطات التي ترفع فوق السطوح أو توضع على السيارات، وكذا ما يُدفع ثمناً للمفرقعات أو الثياب الخاصة بذلك والتي تغزو الأسواق، إلى غير ذلك من الأشياء التي تجتاح مجتمعاتنا، ولو أنّ هذه الأموال التي تهدر على هذه الأشياء يتمّ التبرّع بها للأيتام والفقراء لكانت تُحيي العديد من العائلات المعدومة، ولو تمّ التبرّع بها لبعض الشعوب المضطهدة والمسحوقة لخفّف شيئاً من معاناتها وآلامها.

---

(١) المحاسن للبرقي ج١ ص٢٩٣.

(٢) انظر للتوسع حول ذلك ما ذكرناه في كتاب «الإسلام والبيئة ـ خطوات نحو فقه بيئي» ص٣٧٠- ٣٧١.

خامساً: السلبية الخامسة هي التعدّي على الأملاك العامة، وحرق الإطارات في الطرقات أو قطعها، بسبب نزول الناس إليها بسياراتهم ودراجاتهم النارية، ما يعيق حركة المارة.

هذه بعض المحاذير والسلبيات التي ترافق هذه الظاهرة، ويبقى الدرس البليغ الذي تكشف عنه هذه المباريات، هو هذا الضعف الكبير في إحساس الكثيرين منا بمسؤولياتهم الوطنية أو الإسلامية، حيث ينشغلون بهذه المباريات ويهتمون بها أكثر من اهتمامهم بمسؤولياتهم وواجباتهم تجاه أسرهم وأهاليهم، فضلاً عن قضايا أمتهم، ويبقى السؤال برسم الجميع: هل نتفاعل مع قضايانا العامة والخاصة كما نتفاعل مع مباريات كرة القدم؟!

٢

الشباب والسياحة

السياحة نشاط إنسانيّ ينجذب إليه جيل الشباب بشكل لافت، وهو نشاط متنوّع الأهداف والغايات، فهو وسيلة من وسائل الترفيه، وباب من أبواب المعرفة، ومصدر من مصادر التمويل تعتمدها دول كثيرة في تنشيط وتنمية اقتصادها. وقد أنشأت الدولة الحديثة لهذه الغاية وزارة خاصة باسم وزارة السياحة، وظيفتها العمل على تعزيز ودعم النشاط السياحي، ومحاولة جذب السياح بشتّى الأساليب، وتعيين وتهيئة أماكن خاصة لتكون مراكز سياحية.

والسؤال: ماذا عن موقف الإسلام من السياحة؟ وهل يشجع الأنشطة السياحية؟ أم يقف منها موقفاً سلبياً؟

أنواع السياحة وأهدافها

يمكن تنويع السياحة وتقسيمها باعتبارات عدّة، فهي بلحاظ الهدف تنقسم إلى:

١ ـ **سياحة ترفيهية**: يهدف صاحبها إلى التنزّه والاستجمام، وهي السياحة الرائجة في زماننا.

٢ ـ **سياحة معرفية تأمّلية**: تهدف إلى اكتساب المعرفة، واستكشاف العالم وأسرار الطبيعة.

٣ـ **سياحة روحيّة دينية:** وهدفها إمّا زيارة مكان مقدّس للتعبد فيه وأداء طقس دينيّ معيّن، وإمّا الابتعاد عن الناس والانقطاع إلى الله من خلال السير في البلدان، كما هو الحال في سياحة المتصوّفين والزّهاد.

كما أنّها ـ أعني السياحة ـ بلحاظ الموقف الإسلاميّ، تنقسم إلى سياحة محللة وأخرى محرمة، وسيأتي مزيد بيان لذلك، وفيما يلي نتعرض لهذه الأنواع من السياحة مع بيان الموقف الإسلاميّ منها.

١ ـ السياحة الترفيهية

انسجاما مع واقعيته التي تراعي مختلف الحاجات الإنسانية، وتوازن بين متطلبات الجسد والروح، وحاجات الدنيا والآخرة، فقد أقرّ الإسلام ـ كما أسلفنا في الفقرة السابقة ـ بحاجة الإنسان إلى الترفيه عن نفسه، والتخفيف من أعباء الحياة وضغوطها ورتابة العمل وقساوته، «**إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم**»[(١)]. وحرصاً منه على الخروج من حالة الملل هذه التي تصيب الجسد والروح معاً، فقد أحلّ الإسلام مختلف الأنشطة الترفيهية التي لا تسيء إلى إنسانية الإنسان ولا تنافي القيم الأخلاقية. وشجّع الأعمال الرياضية المختلفة كالرماية والسباحة والسباق وركوب الخيل وغيرها من الأنشطة البدنية والفكرية. وهكذا لم يمانع من القيام بمختلف الأنشطة الفنيّة الهادفة، ولم يحظر اللهو البريء بما يتضمن من مزاح ومرح ومفاكهة وغيرها.

وفي هذا السياق، يأتي موقفه الإيجابي من النشاط السياحي الترفيهي الهادف إلى الاستمتاع بمناظر الطبيعة الخلاقة، أو الاستئناس بمباهجها وزينتها وجمالها، بغية الترويح عن النفس، كما أسلفنا، قال تعالى وهو يبين الهدف

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٢١.

من خلق الحيوانات: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٥ ـ ٨]، حيث يلاحظ أنّه تعالى ذكر أنّ للأنعام نوعين من الفوائد:

النوع الأول: الفوائد المادية المعروفة وهي الاستفادة من لحومها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أو جلودها وأصوافها ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾، أو من ظهورها ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾.

النوع الثاني: الفوائد الترفيهية والجماليّة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ﴿وَزِينَةً﴾.

والفائدتان المذكورتان نجد الإشارة إليهما في موضوع اللباس أيضاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف: ٢٦]، فاللباس ليس له وظيفة مادية فحسب، وهي التستر ومواراة الجسد أو التوقّي من البرد والحرّ، بل له أيضاً وظيفة جمالية أشير إليها صريحاً من خلال كلمة ﴿وَرِيشًا﴾، لأنّ الريش كناية عن التزين والتجمل باللباس.

وهكذا فقد حرص القرآن الكريم على بيان الفوائد الجمالية المعنوية ـ كما الفوائد المادية ـ في خلق السماوات والأرض قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦، وراجع سورة ق: ٦]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧، وراجع سورة الحج ٥].

وقال أيضاً: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[النمل: ٦٠].

فالزينة والبهجة والنضارة المشار إليها في هذه الآيات، هي أغراض أساسية مقصودة لله سبحانه في خلق السماوات والأرض على أتمّ صورة وأبهى هيئة.

وخلاصة القول: إنّ الإحاطة بنصوص الإسلام ومقاصده، لا تدع مجالاً للشكّ بأنّه يُشجِّع مختلف الأنشطة التي تبعث على السرور، وتجديد الحيوية والراحة النفسية والجسدية، وتساهم في رفع الكآبة والقلق والتوتر. وليس صحيحاً، بل لا يمتّ إلى الإسلام بصلة، الإيحاء أو التصوّر الذي يقدمه البعض عن الإسلام ـ عمداً أو جهلاً ـ بأنّه يرفض الفرح والاستمتاع بملذات الدنيا والاستئناس بمباهجها، وأنّه دين ينشد الانزواء والعزلة والابتعاد عن كلّ أشكال الفرح واللهو.

الأئمة وطلب النزهة

ولعلّ من أوضح الشواهد التي تدحض التصوّر المذكور، الذي نراه مسيطراً حتى على بعض المنتسبين للإسلام، هو سلوك وسيرة قادة الإسلام وعظمائه، وعلى رأسهم النبيّ ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام فقد عُرف عن النبيّ ﷺ – كما أسلفنا ـ أنّه كان يمازح أصحابه ويحبّ استماع الطرفة اللطيفة والمزحة الظريفة، وهذا ما عرف عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً، حتى أنّ البعض لم يجد فيه مطعناً إلاّ أنّ فيه دعابة[1]! وهكذا نجد أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا ورغم عصمتهم، لا يتجنّبون الخروج في النزهات الترفيهية، فقد ورد في الحديث الصحيح عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه قصده إلى بيته فوجده قد انتقل منه إلى منزل أخيه عبد الله بن محمّد، فذهب الرجل إلى منزل أخيه ولمّا سأله عن السبب في تحوّله إلى هذا المنزل قال عليه السلام: «**طلب النزهة**»[2]، وقد جاء في رواية أخرى تقدّم نقلها،

(١) ورد ذلك عن عمر بن الخطاب في قصة الشورى، انظر: تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٤.

(٢) المحاسن للبرقي ج ٢ ص ٦٢٢، والكافي ج ٢ ص ٢٣، وعنهما وسائل الشيعة ج٥ ص٣٤٠، الباب ٢٦ من أبواب أحكام المساكن الحديث ٢.

أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يخرج إلى التنزّه مع خدمه وعياله ويأخذون معهم حيواناً (خروفاً أو شاة) بقصد ذبحه، وأكل لحمه[1].

سياحة رخيصة!

أجل، لا بدّ من التنبيه إلى أنّ السياحة قد تنحرف عن أهدافها الترفيهية البريئة والمشروعة، وتتحول إلى وسيلة فساد وإفساد في المجتمع، كما هو الحال في السياحة التي تعتمد على الجنس التجاري، وإشاعة الانحراف وتعاطي المحرمات كالمخدرات وسواها. ومع الأسف الشديد، لقد راج سوق هذه السياحة، وأصبحت الكثير من الدول التي تعتمد عليها في اقتصادها، وتوفّر للراغبين بذلك كافة التسهيلات، والظروف الملائمة. ومن الطبيعيّ، أن يحارب الإسلام هذا النوع من السياحة، لمنافاته للأخلاق والقيم، ولكونه مهيناً للإنسان ومسيئاً لكرامته.

٢ ـ السياحة الثقافية

النوع الثاني من السياحة هو السياحة الثقافية، وهي تهدف إلى اكتشاف مجاهل الكون وقوانينه الكلية، وسننه الحاكمة وأسراره المحيّرة، وكائناته الحيّة المتنوعة، وطبيعته الخلابة وما فيها من كنوز ورموز، وما تحويه من ثروات برية أو بحرية.

المفهوم والغايات

إنّ هذا النوع من السياحة يفتح أمام الإنسان أبواباً كثيرة، في كيفية التعامل مع الطبيعة والاستفادة من ثرواتها، بما يحفظ للحياة استقرارها وتوازنها، ويجنب البشرية الكثير من الكوارث والويلات؛ ولذا كان من الطبيعيّ أن يحثّ

(١) المحاسن ج ٢ ص ٥٩٢.

ويشجع عليه الإسلام، بل ربما كان في بعض الحالات من الواجبات الكفائية. وتشير إلى هذا النحو من السياحة بعض الآيات الكريمة، من خلال تأكيدها على كون الأرض مذللة ومسخرة لبني الإنسان، وما عليهم إلاّ أن يسيروا في مناكبها ويكتشفوا أسرارها ويستفيدوا من خيراتها، بعيداً عن الإفساد والعدوان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** ﴾[الملك: ١٥].

وهناك هدف آخر للسياحة المعرفية، يتصل بالتاريخ ومعرفة أحداثه وقوانينه، على اعتبار أنّ التعرّف على الأمم البائدة والحضارات المنصرمة يتمّ من خلال الوثائق التاريخية الحيّة المتمثلة بالنقوش، أو الآثار وبقايا المنازل والقبور والمعابد وغير ذلك، فهي خير دليل على حياة تلك الأمم وحضارتها، وما تمتّعت به من وعي وثقافة، كما قال الشاعر:

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

وربما يشير إلى هذا المعنى من السياحة، قول الإمام عليّ عليه السلام في وصيته للإمام الحسن عليه السلام: «**إي بني إني وإن لم أكن عمرّت عمرَ من كان قبلي فقد نظرتُ في أعمالِهم وفكرّتُ في أخبارِهم وسرتُ في آثارِهم حتّى عُدْتُ كأحدهم**»(١).

وقد عرف بعض العلماء بلقب أو وصف «الرحالة» بسبب قيامهم بالرحلات، والسفرات المتنوعة إلى شتّى أصقاع الأرض وبلدان العالم. وقد قاموا بتوثيق مشاهداتهم في كتب خاصة، عرفت بكتب الرحلات، وصفوا فيها الناس وأديانهم، وأنماط حياتهم ومعيشتهم، كما تحدّثوا بشكل تفصيليّ عن كلّ ما رأت أعينهم. فتحدثوا عن الجبال والتربة والحجر، والشجر والحيوان والأنهار

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٤١.

والبحار، واشتهر من هذه الرحلات رحلة «ابن جبير»، ورحلة «ابن بطوطة» وغيرهما، وهكذا برز لدينا أدب خاص في هذا المجال عُرِف بأدب الرحلات.

٣ ـ السياحة الروحية

ويبقى النوع الثالث من السياحة، وهو السياحة الروحية والدينية التي تهدف إلى تحقيق غاية دينية وأخلاقية سامية، كالاعتبار والاتعاظ الحاصل من خلال السير في الأرض، وملاحظة آثار الأمم البائدة والمدن الخاوية على عروشها والتأمّل في قصور ومساكن الظالمين وقبورهم الدارسة وعظامهم النخرة، فإنّ هذا النوع من السياحة يوقظ القلوب الغافلة والضمائر الميتة ويعيد الإنسان إلى رشده وتوازنه، ويبعده عن الظلم والغرور والأحقاد الضيقة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ**﴾[النمل: ٦٩]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[الروم: ٩].

كما أنّ السياحة الروحية المتأملة في آفاق السماوات والأرض، تفتح عقل الإنسان على الخالق وصفاته وأسمائه، فيرى ربّه بعين القلب والبصيرة، ويدرك عظيم قدرته وبالغ حكمته؛ لأنّ هذا الكون الفسيح المتناسق المتناغم، لا يكشف عن وجود الخالق فحسب، بل يكشف ويدلّ على وحدانيته، باعتبار أنّ وحدة النظام تدلّ على وحدة المنظّم، كما يكشف أيضاً عن الحكمة البالغة والعلم اللامتناهي لمدبّر هذا الكون. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾[الحج: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[العنكبوت: ٢٠].

سياحة الحج والزيارة

إلى ذلك، فإنّ هناك رحلة دينية روحيّة خاصة أوجبها الإسلام على المسلم المستطيع، وهي رحلة الحج الهادفة ـ من ضمن ما تهدف إليه ـ إلى غسل القلوب والأرواح من أدران الذنوب والخطايا، وتطهير النفوس والعقول من كلّ أشكال الغلّ والحقد والشنآن. ولا تبتعد زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة من أهل بيته عليهم السلام ممّا ورد الحثّ والتأكيد عليه في الروايات عن هذا السياق، فإنّ هدف الزيارة ليس هو مجرّد توجه الناس للتعلق بالقبور والأضرحة والتبرّك بها، بل هدفها أعمق من ذلك بكثير، وهو أن يعتبر الزائرون ويتّعظوا ويتزوَّدوا روحياً ومعنوياً، ويعملوا على التحلّي بأخلاق صاحب القبر واستحضار تعاليمه وهديه.

السياحة الروحية المحرمة

ويجدر التنبيه إلى أنّ ثمة نوعاً من السياحة الروحية، يعتبر عملاً غير مشروع في الإسلام، وهي السياحة المترهبة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا سياحة ولا تبتّل ولا ترهّب في الإسلام**»(١)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي عنه: «**ليس في أمتي رهبانية ولا سياحة ولاَ زمْ** ـ يعني سكوت»(٢).

إنّ السياحة المنهي عنها في الروايات وسواها، ليست هي السياحة الترفيهية أو الثقافية، بل هي السياحة المعروفة عند بعض الصوفية المتمثلة بالسفر وقطع المسافات والهيام على وجه الأرض بهدف الترهّب والانقطاع إلى الله تعالى، مترافقاً ذلك مع اجتناب الدنيا وملذاتها والابتعاد عن الأهل والعيال.

وتفسير السياحة المنهي عنها بهذا المعنى، فضلاً عن كونه مجمعاً عليه بين

---

(١) الجامع الصغير ج٢ ص٧٤٦.

(٢) وسائل الشيعة ج١١ ص٣٤٤، الحديث، ٤، الباب ١ من أبواب آداب السفر إلى الحج وغيره.

علماء المسلمين[1]، فهو ما تشهد به الروايات نفسها، ومن أوضحها دلالة على ذلك ما روي عن الصحابي عثمان بن مظعون قال: قلت لرسول الله ﷺ: «إنّ نفسي تحدثني بالسياحة وأن ألحق بالجبال، قال ﷺ: **يا عثمان لا تفعل، فإنّ سياحة أمتي الغزو والجهاد**»[2].

وفي حديث آخر، رواه عليّ بن جعفر عن أخيه الإمام موسى بن جعفر قال: «سألته عن الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح في الأرض أو يترهّب في بيت لا يخرج منه؟ قال: **لا**»[3].

ويبدو أنّ السياحة الترهبية قد عرفت قبل الإسلام، ولما أراد بعض المسلمين ممارستها رفض النبيّ ﷺ ذلك، وعمل على مواجهتها، انطلاقاً من رفض مبدأ الترهب والانقطاع عن الحياة، لذا نراه ﷺ يؤكّد تارة: على أنّ سياحة أمته في الجهاد كما مرّ، وطوراً: بأنّ سياحة أمته لزوم المساجد وانتظار الصلاة، كما في حديث آخر[4] وثالثة: بأنّ سياحة أمته في الصيام[5].

ويرى بعض العلماء أنّ السياحة الترهبية كانت مستحسنة في شريعة عيسى عليه السلام[6]. يقول العلامة الطريحي في مجمع البحرين (مادة سيح): «كان من شرائع عيسى عليه السلام السيح في البلاد»، ولكن يبدو أنّها انحرفت عن مسارها وتعدّت الحدود المشروعة، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾[الحديد: ٢٧].

(١) راجع على سبيل المثال: عمدة القاري ج١٤ ص٧٩، وكشف القناع للبهوتي ج١ ص٦١٨.
(٢) تهذيب الأحكام ج٦ ص١٢٢، ونحوه ما في سنن أبي داوود ج١ ص٥٥٧.
(٣) مسائل علي بن جعفر ص١١٦، وعنه وسائل الشيعة ج١١ ص٣٤٥، الباب ١ من أبواب آداب السفر إلى الحج وغيره، الحديث٧.
(٤) راجع مستدرك الوسائل ج٣ ص٣٠٩.
(٥) المصدر نفسه ج١٦ ص٥٥.
(٦) راجع: بحار الأنوار ج٧ ص٢٤٥، وشرح أصول الكافي للمازندراني ج٨ ص٨٥.

إلاّ أنّ الإسلام طوّر مفهوم السياحة، رافضاً السياحة الترهبية[1]، معتبراً أنّ السياحة تكون بالجهاد أو بالصيام أو بالتأمل في خلق الله. وتفسير السياحة بالصيام هو أحد الوجوه المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ..﴾[التوبة: ١١٢]، وقوله سبحانه: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَـٰتٍ مُّؤۡمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبۡكَارًا**﴾[التحريم: ٥]. وقد ورد في بعض الروايات ما يؤكد صحة التفسير المذكور[2]، بيد أنّ هناك وجهاً آخر في تفسير السياحة في الآيتين المذكورتين، وهو أنّ المراد بها السير إلى مساكن ذكر الله وعباداته، كالمساجد والمعابد كما يستقرب ذلك بعض المفسرين[3].

---

(١) نسب إلى الشيخ بهاء الدين العاملي أنّه ساح في البلدان ثلاثين سنة (بحار الأنوار ج١٠٦ ص١٠٩) فلو صحّ ذلك فإنّ من المرجح أنّ سياحته لم تكن من النوع المنهي عنه، كيف وهو الفقيه الجليل العارف بالكتاب والسنة، فربما كانت سياحته بهدف الالتقاء بالعلماء وأرباب الفضل وزيارة الأماكن المقدسة، لأنّه ـ وكما أفاد بعض العلماء ـ من البعيد أن يهدر الشيخ البهائي ثلاثين سنة من عمره في مجرد السياحة ولا سيما مع كثرة مشاغله واهتمامه بالدرس والتدريس والتأليف ومراجعات عامة الناس إليه في شؤون دينهم (راجع: مقدمة نهاية الدراية ص٤١).

(٢) راجع: الكافي ج٥ ص١٥.

(٣) راجع الميزان ج٩ ص٣٩٦.

الملاحق

ملحق رقم (١): متى نستكمل التحرير؟

ملحق رقم (٢): في محراب الأبوة

الملحق رقم (١)
متى نستكمل التحرير؟[١]

في ذكرى التحرير والانتصار، ذكرى العزة والفخار، يحقّ لنا أن نفرح ونفخر ونعتزّ، فطعم الانتصار جميل وفرحته مشروعة وضرورية؛ لأنّها تحفز على مزيد من الانتصارات، والبعض لا يريد للأمة أن تفرح بانتصارتها، يريدها أن تخجل بلحظات العزّ، إنّ أمة تخجل بانتصاراتها ولا تمجّد أيامها البيض، هي أمة غير جديرة بالحياة، وغير لائقة بالكرامة.

١ ـ التحرير: حقوق وواجبات

في ذكرى التحرير يحقّ لنا، بل هو حقّ وواجب علينا أن نمجّد كلّ التضحيات التي أنتجت هذا الانتصار من دماء الشهداء وعذابات الأسرى ووجع الثكالى وصبر الناس، فإنّ الحريّة لم تأت ولن تأتي يوماً من دون ثمن ولن تمنح من أحد، بل إنّها تُنتزع بالقوة وتؤخذ ببذل الثمن الغالي، وهذا ـ في الحقيقة ـ ما يعطي الحرية قيمتها، كما أسلفنا في المحور الرابع.

وإذا كان التحرير يعطي المنتصر حقوقاً، فإنّه في الوقت عينه يرتّب عليه واجبات ومسؤوليات:

---

(١) من كلمة ألقيت في مناسبة عيد المقاومة والتحرير في حسينية بلدة سحمر – لبنان بتاريخ ٢٤ أيار ٢٠١٤م.، وقد أدرجناها هنا ربطاً بما جاء في المحور الرابع من حديث عن الحرية كفضاء ضروري لا بدّ منه في عملية نهوض الأمة.

١ ـ وأولى تلك الواجبات: أن نحفظ الانتصار ولا نضيّعه. ودروس التاريخ قد علمتنا، أنّ مهمة حفظ الانتصار هي أكثر عناءً ومشقة من مهمة صنع الانتصار نفسه.

٢ ـ وثاني هذه الواجبات: أن نستكمل الانتصار والتحرير، فلا تزال لنا أرض محتلة ووطن سليب وهو فلسطين، واحسرتاه على فلسطين، أين هي من اهتمامات العرب والمسلمين؟! لقد باعوها بأبخس الأثمان، وأصبحت عبئاً عليهم، فعملوا على التحرّر منها بدل تحريرها!

٣ ـ وثالث المسؤوليات: هي مسؤولية بناء الأوطان بعد زوال الاحتلال، وأعتقد أنّ من لا يريد للاحتلال الذي خرج من الباب أن يعود من النافذة، فإنّ عليه أن يساهم في بناء الأوطان على أساس قيم العدل والمساواة، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، فبالعدل تستقرّ الأوطان وتعمر البلدان.

٢ ـ تحرير الإنسان

إنّ من أهم ما يلزمنا التفكير به هو أن نسأل أنفسنا: هل اكتمل التحرير؟

قد يكون تحرير الأرض في معظمه قد اكتمل من رجس الاحتلال، ولكن هل الاحتلال هو للأرض فقط؟ وهل الغزو الذي أصاب الأمة هو غزو أراضيها فحسب؟ فماذا عن غزو العقول والإرادات وغزو النفوس؟

ولهذا فإنّي أعتقد أنّه ليس لطلاب الحرية وعشاقها أن يستريحوا أو يسترخوا حتى يكملوا المعركة، وعلينا بعد معركة تحرير الأرض أن نبدأ بالخطوة الثانية، وهي معركة تحرير الإنسان.

ألم يحن الوقت لنبدأ معركة تحرير الإنسان، ليس في هذا البلد الصغير لبنان فحسب، بل على امتداد هذا الوطن العربيّ والإسلاميّ؟

أن نعمل على تحرير الإنسان من الآصار الجاهلية التي لا تزال تكبله، وأن نعمل على تحرير الإنسان من رجس العصبيات المذهبية والطائفية القاتلة، وأن نعمل على أن نحرّر الإنسان من دنس الأحقاد ورجس الجهل، وأن نحرر الإنسان من نير الاستبداد وسياسة الإفقار والإذلال.

فإنساننا إن لم يعش جوهر الحرية، وإن لم يُعط حقّه في العيش الكريم، فإنّه حتى لو استطاع أن يطرد المحتل من الباب، فإنّ الاحتلال والغزو قد يدخل إليه من الشباك؛ ولذا لا يمكن للثائر والمقاوم الحرّ أن يواجه الظلم القادم من الخارج، ويحابي أو يتحالف مع الظالم في الداخل، فالموقف الرافض للظلم لا يمكن أن يتجزأ، وقد قالها عليّ عليه السلام للحسنين عليهما السلام، ولكلّ من وصلته وصيته ورسالته: «**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**»[1]. ولا فرق عند عليّ عليه السلام بين ظالم وآخر. وبين مظلوم وآخر، فالظلم لا يتجزأ، والعدل لا يتجزأ. وإذا كان ظلم العدوّ الخارجي قبيحاً ومرفوضاً، ويستدعي القيام لمواجهته والتخلص من شرّه، فإنّ ظلم المستبد والحاكم الفاسد في الداخل، لا يقلّ خطورة عن ذاك.

٣ ـ تحرير العقول

وإنّ معركة تحرير الإنسان لا يمكن أن تنجح إلاّ بالعمل على تحرير العقول، تحريرها أولاً من الغزو الفكري الذي أصابها تحت وطأة الانبهار بالآخر والتبعية له وتقليده، ما جعل الأمّة تنهزم نفسياً وتستسلم للآخر حتى أدمنت المذلة.

وأنّ نعمل ثانياً على تحرير العقول من الجمود والتحجّر، وأتحدث هنا عن العقل الإسلامي، فهذا العقل لا بدّ أن ينعتق من أسر الماضي لينطلق إلى آفاق المستقبل، ففرق كبير بين أن تعود إلى الماضي لتعيش فيه وتقدسه، وبين أن تعود

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٦.

إلى الماضي لتقرأه بوعي وتستلهم منه الدروس والعبر لمستقبلك. وإنّه بغير هذه المراجعة النقدية لتاريخنا وماضينا، فإنّنا لن نبدع ولن نتطور، فالعقل المبدع هو الذي ينظر إلى الشمس ويتطلع إلى الأمام ويحلم بالتغيير.

٤ ـ تحرير النفوس

وتبقى أمامنا الخطوة الأهمّ في رحلة التحرير، ألا وهي العمل على تحرير النفوس. أجل، إنّها المعركة الأهمّ، ولست أنا من يقول إنّها المعركة الأهمّ، إنّه رسول الله ﷺ هو مَنْ يقول ذلك، فقد قالها لجمع من صحابته وقد رجعوا من المعركة: «**مرحباً بقوم قَضَوا الجهادَ الأصغرَ وبقي عليهم الجهادُ الأكبرُ**، قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ **قال: جهاد النفس**»[1].

ودعوني أقولها بصراحة: كثيرون على مرّ التاريخ حتى من أصحاب الأنبياء عليهم السلام نجحوا في معركة الجهاد الأصغر ورسبوا في معركة الجهاد الأكبر، استطاعوا أن يهزموا العدو ولكن انهزموا أمام النفس الأمّارة بالسّوء، فتحولوا إلى طغاة ومستبدين، وتحولوا إلى لصوص أرادوا استغلال الانتصار وتوظيفه بطريقة رخيصة، عندما انتقلوا من مرحلة الثورة إلى مرحلة السلطة، فأغرتهم السلطة بزخارفها وجاهها فسقطوا ضحايا على أعتابها، ﴿**كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ**﴾[العلق: ٦ ـ ٧]. ومن هنا تكون الحاجة ملحة لرادع أخلاقيّ يمنع النفس من الطغيان والتجاوز على الآخرين؛ لأنّ النفس الإنسانية بحسب ما تمتلكه من غرائز قد تميل إلى التسلط، وقد تتحكم بها الأنانية وتبتلي بالكثير من الأمراض، ولا يشعر الإنسان بها إلاّ بعد أن ترديه صريعاً، وهكذا يصاب بالغرور وبتضخّم الشخصية وتورّمها، يقول المتنبي لسيف الدولة:

أُعيذُهـا نظـراتٍ منـكَ صادقـةً   أن تحسبَ الشَّحْمَ فيمنْ شحمُهُ وَرَمُ

(١) الكافي ج٥ ص١٢.

إنّ طغيـانَ النفـس قد يبلـغ حـدّاً يـؤلّه الإنسـان معـه نفسه وذاته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ النفس الأمّارة بالسّوء قد تغدو في حال افتقاد الإنسان إلى الرادع الأخلاقي المذكور، أشدّ ضرراً على صاحبها من أعدائه وخصومه، «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»[1].

ولهذا فإنّ علينا أن لا نسترخي، فمهمّة التحرير لم تنتهِ بعد.. فثمة احتلالات واجتياحات أخطر من احتلال الأرض واجتياحها، ويأتي على رأس ذلك الاجتياحات الناعمة المتمثلة باجتياح المنظومة الأخلاقية التي يقوم عليها مجتمعنا المقاوم. ووسيلة هذا الاجتياح هي نشر الرذيلة والفساد الأخلاقي، وشراء النفوس والذمم. ويحاول العدو في هذه الحرب الناعمة أن يصل حتى إلى الرموز التي قاومته، فينشر الفساد في بيوتهم، ويشتري ذمم البعض منهم، ويحوّلهم إلى مخبرين عنده! أمام هذا المشهد الواقعي، ندرك مغزى الآية المباركة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج: ٤١].

(١) تقدمت مصادر الحديث سابقاً.

الملحق رقم (٢)
في محراب الأبوة[1]

في محراب الأب تخجل الكلمات وتخشع الأصوات وتخرس الألسنة..

وإلى عرين الأب يدخل المرء متهيباً خائفاً وجلاً.

وعلى جثمان الأب يقف الابن محدودب الظهر فقد بدأت مرحلة الشيخوخة والهرم، فإنّك حتى لو كنت في مقتبل العمر ستبقى تشعر بطفولتك وأنت تعيش في كنف أبيك فإذا ما فارق الدنيا شعرت بالكهولة.

وفي رثاء الأب يقف الخاطر الملهم عاجزاً حائراً لا يهتدي بياناً، فماذا عساه يقول؟ وأياً كان ما يقول شعراً أو نثراً فإنّه لن يلامس شرف الأبوة.

في محراب الأبوة وقفت حائراً بين حديث الفكر وحديث الوجدان، ودون وعي وجدتني أنشدّ إلى حديث الوجدان، فقلت لنفسي: وما الضير في ذلك؟ أليس الإنسان عقلاً وقلباً، وكما يحتاج العقل إلى غذاء فإنّ القلب يحتاج إلى غذاء أيضاً، لهذا فليكن الطابع العام لحديثي في هذه المناسبة طابعاً وجدانياً، ولا سيما أننا في زمن تراجعت فيه العواطف وتخشبت الأحاسيس.

(١) وفاءً لروحي والدي المرحوم الحاج المؤمن أحمد نجيب الخشن رحمه الله وبمناسبة مرور سنة على رحيله أضع بين أيدي الأخوة الكلمة التي ألقيتها في ذكرى أسبوعه في حسينية بلدة سحمر، وذلك في ٢١ رمضان ١٤٣٥ هجري، وهي تتصل بشكل وثيق بما جاء في المحور السابع عن علاقة الشباب بالآباء والأمهات.

ما أحوجنا إلى حديث الروح

فما أحوجنا في هذه الأيام إلى حديث القلب والروح والوجدان، إلى حديث يثير فينا الأحاسيس الإنسانية ويحرّك العواطف النبيلة، فإنّ كلّ ما يجري في أمتنا ومن حولنا من توحشٍ وسفكٍ للدماء يشي بأمر واحد، وهو أنّ القلوب قد قست وأنّ الإنسان فينا قد قُتل، وأنّ الإنسانية هي الذبيحة قبل أن يكون الإنسان هو الذبيح. وإنّ الرصاصة التي تطلقها على الآخر إنّما تقتل إنسانيتك قبل أن تصل إلى الآخر لتقتله، فقد قست القلوب حتى غدت كالحجارة أو أشدّ قسوة، وما أعجب هذا الإنسان وما أغرب أمره فبينما تراه حملاً وديعاً سرعان ما يتحوّل إلى وحش كاسر ضارٍ ينهش لحم أخيه الإنسان بدمٍ باردٍ!

وبكلّ أسف أقول: لقد غادرتنا القيم والأخلاق، ومن أشرف وأنبل هذه القيم المغادرة قيمة الأبوة، فلم يعد الابن يعي معنى أن يكون فلان أباه؟ ولا الأب يعي معنى أن يكون أباً!

معنى أن يكون لك أب

أن يكون فلان أباك يعني أنّه أصلك وأنت فرعه ولا قيمة للفرع بدون الأصل، أن يكون فلان أباك يعني أنّه الشجرة وأنت الغصن وإذا انفصل الغصن عن الشجرة أصابه الذبول واليباس.

أن يكون فلان لك أباً فهذا يعني أنّ أقل ما يلزمك تجاهه أن تبرّه وتحسن إليه وأن تكون في خدمته وتنحني إجلالاً واحتراماً له، وأن تبقى في خدمته كلّما احتاج إليك، فخدمة الأب هي عبادة لله تعالى، وطاعتك لأبيك هي من طاعتك لله تعالى، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء: ٢٣].

أن يكون فلان لك أباً فهذا يعني أن تعرف حقوقه عليك، وقد سئل الحبيب المصطفى ما حقّ الوالد على ولده؟ قال: **لا يسميّه باسمه ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له**»[1]. أي لا يجلب له المسبّة.

وقد جاء أحدهم ذات يوم إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه أباه ويخاصمه فقال: يا رسول الله هذا أبي وقد ظلمني ميراثي من أمي فسأل النبيّ ﷺ الوالدَ عن ذلك، فأجابه أنّه أنفقه على الولد وعلى نفسه، فقال النبيّ ﷺ حينها للولد: «**أنت ومالك لأبيك**»[2]، فما أقلَّ حياء هذا الشخص إذ يتجرأ ويقدِّم أباه للمحاكمة ويشتكي عليه!

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لوالديه: «**اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرهما بر الأم الرؤوف، واجعل طاعتي لهما وبري بهما أقر لعيني من رقدة الوسنان وأثلج لصدري من شربة الظمآن**»[3].

معنى أن تكون أباً

وأمّا أن تكون أباً فليس معناه أن تكون قادراً على الإنجاب، فكلّ ذكر لديه قدرة على الانجاب حتى لو لم يكن من جنس البشر، وقدرة بعض الحيوانات على الإنجاب تفوق قدرة البشر.

أن تكون أباً يعني أن تكون الحضن الدافئ لأبنائك، وأن تكون المرشد الناجح لهم، وأن تكون الحصن المنيع الذي يحميهم، وأن تكون أباً يعني أن توزّع عاطفتك على جميع أبنائك دون انحياز، فقد روي أنّ النبيّ ﷺ رأى رجلاً معه ولدان وقد قبّل أحدهما وترك الآخر فقال: «**هلا واسيت بينهما!**»[4].

---

(١) الكافي ج٢ ص١٥٩.
(٢) الكافي ج٥ ص١٣٥.
(٣) الصحيفة السجادية، والوسنان هو من غلبه النعاس.
(٤) عدة الداعي لابن فهد الحلي ص٧٩.

إنّ انحيازك العاطفيّ لولد دون آخر يعني أنّك تزرع الأحقاد بين الأبناء، ولذا فعندما تطلب من ابنك أن يبرّك فعليك أن تعينه على برّك، من خلال أخذك بأساليب التربية الناجحة، يقول النبيّ الأكرم ﷺ فيما روي عنه: «**رحم الله من أعان ولده على برّه**، قال: قلت: وكيف يعينه؟ قال: **يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به**»(١).

إنّ معنى أن تكون أباً يحتّم عليك أن تهتمَّ لأمر ابنك وتتحسس همومه وآلامه وآماله، وأن تعلم أنّ ابنك هو كنفسك فتحبّ له ما تحبّ لها وتكره له ما تكره لها، من وصية الإمام عليّ عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام: «**ووجدتك بعضي بل وجدتك كُلّي حتى كأنّ شيئاً لو أصابَكَ أصابني وكأنّ الموتَ لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي**»(٢).

أن تكون أباً أن تهتمَّ بغذاء أبنائك المعنويّ والروحيّ كما تهتمّ بغذائهم المادي، وأن تهتمّ بجمالهم الروحي والخُلقي كما تهتمّ بجمالهم الجسدي.

أن تكون أباً أن تهتمّ بمستقبل أبنائك وكثيراً ما نسمع البعض يقول: «بدي أمّن مستقبل أولادي» وهذا جميل، ولكن الأمر المستغرب أننا نهتمّ لمستقبلهم القريب ولا نهتمّ بمستقبلهم البعيد يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم: ٦].

الأبوة المعنوية

في محراب الأبوة لا بدّ أن أطلّ على معنى آخر من معاني الأبوة ألا وهو الأبوة المعنوية، فلكلّ منّا أب بيولوجي، ولكن من المفترض أن يكون لكلّ منّا أيضاً

(١) الكافي ج٦ ص٥٠.

(٢) نهج البلاغة ج٣ ص٣٨.

أباً معنوياً، وما أجمل أن يكون أبونا المعنويّ هو أبونا البيولوجي نفسه! والأبوة المعنوية هي أبّوة الفكر وأبوة الرسالة وأبوّة الإمامة، يقول النبي ﷺ: «**يا عليّ أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[1]، فرسول الله ﷺ هو أبونا في الرسالة ونحن أبناؤه في الاتباع والاقتداء، وعيسى ابن مريم عليهما السلام هو أبونا ونحن أبناؤه في الحبّ والانتماء، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام أبونا ونحن أبناؤه في الحبّ والولاء.

وإذا كان رسول الله ﷺ أبانا جميعاً فهذا يعني أننا أخوة، فكيف يستحلّ الأخ أن يأكل لحم أخيه! ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحجرات: ١٢] ويا ليته يأكل لحم أخيه بالغيبة فحسب، فقد صار يأكله بالحقيقة! لقد كانت هذه الآية تشير إلى معنى مجازي في أكل لحم الأخ وهو أكله بالغيبة وإذا بمرور الزمان يرينا العجائب حيث إنّ الأمر أصبح حقيقياً!

وإذا كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام أبانا جميعاً (ونحن في هذه الأيام في ذكرى استشهاده) فلماذا يريد البعض منّا أن يقزّم عليّاً ليكون أباً لجماعة أو طائفة دون أخرى، عليٌّ عابر للطوائف والمذاهب هو بفكره ملك الإنسانية.

يقول بولس سلامة:

هو فخر التاريخِ لا فخرُ شعبٍ ... يَـدّعيـهِ ويصطفيـه وليّـا
لا تقـُل شيعةٌ هـواةُ عليٍّ ... إنّ فـي كلّ منصفٍ شيعيّا
إنّمـا الشمسُ للنواظِـرِ عيـدٌ ... كلّ طرْفٍ يرى الشُّعاعَ السّنيّا
جلجلَ الحقُّ في المسيحيّ حتى ... عُـدَّ مِـنْ فـرْطِ حبِّـهِ علويّـا
يا سماءُ اشهدي ويا أرضُ قرّي ... واخشـعي إنّنـي ذكـرتُ عليّـا

(١) علل الشرائع للصدوق ج١ ص١٢٧.

إنّ أبوة عليّ عليه السلام للمسلمين تجسدت في كلّ حياته فهي التي دفعته ليتنازل عن حقّه من أجل مصلحة الأمة، يقول عليه السلام: «**لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن بها جور إلاّ عليّ خاصة**»(١).

وإنّي أتساءل معكم أين الآباء الروحيون لهذه الأمة في هذه المرحلة ؟! ما أحوجنا اليوم إلى أبوة تجمع ولا تفرّق بين أبناء الوطن الواحد، أبّوة تحبّ ولا تكره، أبّوة تحتضن ولا تذبح، أبوة تلّم أبناءها جميعاً وتجمعهم وتحتضنهم تحت سقف بيت واحد.

الأبوة المجازية

وهناك شكل ثالث من أشكال الأبّوة، وهو الأبّوة المجازية التي دعت وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام إلى تكريسها بين بني الإنسان وبين الطبيعة، فالأرض التي نعيش في كنفها هي أمنا وأبونا، فمنها خُلقنا وإليها نعود، يقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**تمسحوا بالأرض فإنّها أمّكم وهي بكم برّة**»(٢)، وفي حديث آخر: «**أكرموا عمّتكم النخلة**»(٣).

فإذا كانت النخلة عمتنا فما يمنع أن تكون الزيتونة هي خالتنا وأن تكون التينة هي ابنة خالتنا.. وأن تكون الأرض هي أبونا كما هي أمّنا.

إنّ هذه الأحاديث ترمي إلى تأكيد معنىً سامٍ ورائع، ألا وهو أنّ بينك ـ أيّها الإنسان ـ وبين هذه الأرض التي تعيش في كنفها علاقة نسبية، فهي أبوك وهي أمّك، فانظر كيف تتعامل معها، فلا تعتدي على جمالها، ولا تعبث بنواميسها،

(١) نهج البلاغة ج١ ص١٢٤.
(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢٦٩، ودعائم الإسلام للقاضي نعمان المصري ج ١ ص١٧٨، المصنف لابن أبي شيبة ج ١ ص ١٨٧.
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ج٥ ص٣٩.

كما يحصل اليوم حيث أصبح الكوكب معرضاً للمخاطر بكلّ ما فيه ومن عليه، وكلّ ذلك بما جنته أيدي الناس، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

وإذا كانت الأرض هي أمّنا فعلينا أن نرأف بها كما نرأف بالأمّ، وأن لا نقسوَ عليها، فعندما تضع قدميك على النبات فامشِ بهدوءٍ ولا تسحقه، يقول الشاعر:

ارحـمِ الغصْـن لا تنلـهُ بسـوءٍ ... قـد يحـسُّ النبـاتُ كالإنسـانِ

واسـتمعْ للحفيـفِ منـه تجـدْهُ ... بات يشـكو الإنسـانَ للرحمانِ

وإذا كانت الأرض هي أبونا وأمّنا وهي مبدأنا وإليها معادنا، وهي مدفن آبائنا وأجدادنا، فمهلاً مهلاً أيّها الإنسان لا تقسو عليها، واعلم أنّك عندما تمشي عليها فإنك قد تضع قدمك على بقايا أجساد الآباء والأجداد، كما قال الإمام عليّ عليه السلام في بعض كلماته عند تلاوته لقول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾: «.. **تطأون هامهم وتستثبتون في أجسادهم**»[1]، وقد أخذ عنه المعري عنه عليه السلام هذا المعنى حيث يقول:

خَفِّفِ الوطءَ ما أَظنُّ أديمَ الأرضِ ... إلاّ من هذه الأجسادِ

وقبيح بنا وإن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد

سِرْ إنِ اسطَعْتَ في الهواءِ رويداً ... لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ

علّمته الأرض

وحديث أبوّة الأرض هذا يأخذني إلى الوالد الحبيب رحمه الله، فقد وعى أبوّة الأرض للإنسان جيداً، ولذا يمكنني وصفه بكلمة مختصرة وهي أنّه ابن

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٠٥، بيان: الهام جمع هامة وهي أعلى الرأس، وتستثبتون أي تحاولون إثبات ما تحتاجونه من الأعمدة ونحوها في الأرض، فأنت تثبتون ذلك في أجسادهم.

الأرض، وقد أقام علاقة صداقة معها وتعلّم منها دروساً لا تعدّ ولا تحصى، فالأرض مدرسة ونعم المدرسة لمن كان له بصيرة.

فقد علّمته الأرض معنى الأبوة، وذلك عندما تحتضن البذرة وتحنو عليها وتسقيها وتنميها حتى تغدو شجرة باسقة.

علّمته الأرض الكرم والعطاء، فهي تعطيك بمقدار ما تعطيها، فهي لا تعرف البخل أبداً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

علّمته الأرض أن يكون حرّاً رافضاً للظلم، لأنّ الأرض لا يمكن أن تقبل عرقاً ظالماً فيها وغريباً عليها، فهي تلفظ العرق الذي ليس من بيئتها ولا ينتمي إلى طينتها ولا تسمح له بالبقاء طويلاً.

علّمته الأرض أن يكون صلباً قوياً في مواجهة الأعاصير، فإنّ «**الشجرة البرية أصلب عوداً**»(١) كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

علّمته الأرض أن لا يخضع ولا ينقاد إلاّ لله، فالأرض لا تعرف التمرّد على خالقها، فكما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١].

هذا ما علّمته الأرض أمّا هو فقد بادلها الجميل بالجميل والحبّ بالحبّ، فأعطاها من عَرَقِه ومن دمه، أعطاها كلّ حياته ولم يبخل بشيء وكانت الأرض وصيته الأخيرة وظلّ محباً ومهتماً لأمرها إلى أن نزل في حناياها ملتحداً.

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٧٣.

أشعر بالفخر والاعتزاز

لهذا ولغيره، فإنّي عندما أدخل محرابك يا أبتاه أشعر بالفخر والاعتزاز.

فقد كنت العبد الصالح المؤمن، كنت الصابر المحتسب إلى الله تعالى، لقد كنت جبلاً من الصبر، ولذا لم يستطع المرض أن ينال من إيمانك وعزيمتك، لقد استطاع أن ينهك الجسد لكن الروح بقيت محلّقة مع الله تعالى، كنتَ تتلوى من وطأة الأوجاع على فراشك ومع ذلك لم تصدر منك كلمة «آخ»، بل كان وِرْدُك الدائم هو ذكر الله تعالى، ولطالما أيقظتنا وأنت تناجي الله تعالى قائلاً في ذروة الوجع: «**لا إله إلاّ الله الحليم الكريم لا إله إلاّ الله العليّ العظيم سبحان الله ربّ السماوات السبع ورب الأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين**»، أو قائلاً: «**عفوك يا رب عفوك يا ربّ**».

ولا أنسى عندما استدعينا لك الطبيب على عجل، فبينما كان يعاينك وأنت تترنم بكلمات، قال لي الطبيب: إنّه يريد شيئاً، فأجبته: كلا، إنّه لا يريد شيئاً، وإنّما هو يردّد الدعاء مع الداعي الذي كان يسمع صوته عبر المذياع.

وإن أنسَ فلا أنسى حرصك على المصلحة العامة وتفكيرك في الشأن العام حتى وأنت تتلوّى وجعاً على فراش الموت، فكم قلت لي في أيامك الأخيرة: إنّ البلدة تحتاج إلى مقبرة جديدة فقد ضاقت المقبرة بأهلها، وكنت تقدّم لي اقتراحات عمليّة في هذا المجال، وكلما دخلت عليك كنت تسألني ماذا فعلتم؟ وقد أخذني الفضول ذات مرة فسألتك: لماذا يهمّك هذا الأمر؟ فقلت لي: أليس في ذلك أجر وثواب؟ فقلت لك وقد طابت نفسي بنبل مقصدك: بلى فإنّ «**الدالّ على الخير كفاعله**»[١].

(١) كما في حديث النبي الأكرم ﷺ، انظر: من لا يحضره الفقيه للصدوق ج ٤ ص ٣٨٠.

وإن أَنسَ فلا أنسى حرصك واهتمامك بضرورة التواصل بين الأرحام، فقد زارك بعض الأرحام وأنت على فراش الموت ونظر إليك ولم يتمالك دموع عينيه عندما رأى ما صرت إليه، فقلتَ له: يا فلان هل لي عندك كرامة؟ فأجاب قائلاً: أنا بخدمتك يا حاج، فقلت له: إذاً إذهب صالح أختك فلانة، وكان لك ما أردت وأحضرنا الطرفين وتعانقا وتصافحا في محضرك.

هذا بعضٌ من سيرتك وما كنت عليه يا والدي، وإنّي إنّما أذكره هنا للعبرة، وعسى أن نوفيك بعض حقوقك علينا.

سامحنا يا أبتاه على تقصيرنا وعقوقنا، فهذا العقوق يثقل أوزارنا وكاهلنا، وآمل أن لا يستمرّ هذا العقوق بعد الموت.

رحمك الله يا والدي وأسكنك الفسيح من جنانه وحشرك مع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

فهرس المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الصحيفة السجادية.
٣ ـ رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام.
٤ ـ الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، ١٩٨٣م.
٥ـ الأبشيهي، محمد بن أحمد (٧٩٠ ـ ٨٥٠هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان.
٦ـ الأشتري، ورّام بن أبي فراس (ت: ٦٠٥هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٨هـ. ش.
٧ ـ أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٧٥م)، سنن أبي داوود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٨ ـ ابن حنبل، الإمام أحمد، (ت: ٢٤١هـ)، مسند أحمد، دار صادر، بيروت.
٩ ـ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.
١٠ ـ ابن جعفر، علي (ابن الإمام الصادق) (القرن الثاني الهجري)، مسائل علي بن جعفر ومستدركاتها، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١١ ـ ابن أبي الحديد المعتزلي، (ت: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية.

١٢ـ ابن عبد البر، الاستيعاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٣ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٤ـ ابن الأثير، المبارك بن محمد المعروف بـ «ابن الأثير»(ت:٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، إسماعيليان ـ بالأوفست عن طبعة بيروت، قم، إيران، الطبعة العاشرة، ١٣٦٤هـ.

١٥ـ ابن هشام، محمد بن إسحاق (ت:١٥١هـ) السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر سنة ١٣٨٣هـ.

١٦ ـ ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر (ت: ٦٦٤هـ)، الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ. ق.

١٧ـ ابن الأثير (بن أبي الكرم)، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بالشيباني(ت:٣٦٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١٨ ـ ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨هـ ـ ٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطبعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م.

١٩ ـ ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علامة، قم ـ إيران.

٢٠ ـ ابن طيفور، أحمد بن طاهر (ت: ٢٠٨هـ)، بلاغات النساء، انتشارات الشريف الرضي، قم ـ إيران، لا. ط، لا. ت.

٢١ ـ الإربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح، (ت: ٦٩٣هـ)، كشف الغمّة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت ـ الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٢٢ ـ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٢٣ ـ الآمدي، القاضي ناصح الدين أبي الفتح عبد الواحد بن محمد التميمي (ت: ٥٥٠هـ)، غرر الحكم ودرر الكلم، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٤ـ الآملي، السيد حيدر (ت: ٧٨٢هـ)، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، تحقيق: السيد محسن الموسوي التبريزي، مؤسسه فرهنكي ونشر نور على نور، إيران، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

٢٥ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

٢٦ ـ البغدادي، أحمد بن علي الخطيب (ت: ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢٧ ـ البغدادي، محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي (ت: ٦٤٣هـ)، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢٨ـ البحراني، ميثم بن علي بن ميثم (ت: ٦٧٩هـ)، شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، مركز النشر الإسلامي التابع لجامعة المدرسين، قم.

٢٩ـ البحراني، نفسه، شرح نهج البلاغة، مكتب الإعلام الإسلامي، قم- إيران، ٤٤٩هـ.

٣٠ـ البرقي، أحمد بن محمد بن خالد(ت: ٢٧٤هـ)، المحاسن، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٧٠هـ.

٣١ـ البهوتي، منصور بن يونس (ت: ١٠٥١هـ)، كشف القناع عن متن الاقناع، تقديم: كمال عبد العظيم العناني، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٢ـ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت:٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر ـ بيروت.

٣٣ـ الترمذي، محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهّاب عبد اللطيف، دار الفكر- بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣٤ ـ التستري، الشيخ محمد تقي، قاموس الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ.

٣٥ ـ الجزائري، السيد نعمة الله (١١١٢هـ)، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، منشورات آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

٣٦ـ الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب (ت: ٢٥٥هـ)، البخلاء، قدّم له وشرحه: الدكتور عباس عبد الساتر، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م.

٣٧ ـ الحراني، حسن بن علي بن الحسين بن شعبة (ق: ٤هـ)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم- إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٨ـ الحلي، أحمد بن فهد (ت: ٨٤١هـ)، عدة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق: أحمد الموحدي القمي، مكتبة وجداني، قم ـ إيران.
٣٩ـ الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ـ ٧٢٦ هـ)، تحرير الأحكام، تحقيق: الشيخ إبراهيم البهادري، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٠ـ الحلي، علي بن يوسف المطهر (ت: نحو ٧٠٥هـ)، العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٨هـ.
٤١ـ الحر العاملي، محمد بن الحسن، (ت:١١٠٤هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المعروف اختصاراً بـ «وسائل الشيعة»، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٤٢ـ الحميري، عبد الله بن جعفر (القرن الثالث الهجري) قرب الإسناد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى قم ـ إيران ١٤١٣هـ .
٤٣ـ الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.
٤٤ـ الخشن، الشيخ حسين، حقوق الطفل في الإسلام، دار الملاك، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.
٤٥ـ الخشن، نفسه، وهل الدين إلا الحب، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م.
٤٦ـ الخشن، نفسه، الإسلام والبيئة- خطوات نحو فقه بيئي، دار الملاك، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٤٧ـ الخشن، نفسه، عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء، دار الملاك، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٤٨ـ الخشن، نفسه، أصول الاجتهاد الكلامي، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.
٤٩ـ الخشن، نفسه، العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي، المركز الثقافي الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
٥٠ـ الخشن، نفسه، مفاهيم ومعتقدات بين الحقيقة والوهم، الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤.
٥١ـ الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشه، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.
٥٢ـ الدميري، محمد بن موسى (ت: ٨٠٨هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
٥٣ـ الدارمي، عبدالله بن بهرام (ت: ٢٥٥هـ)، سنن الدارمي، مطبعة الإعتدال ـ دمشق، ١٣٤٩هـ.
٥٤ـ دراز، الدكتور محمد عبد الله، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٥٥ـ الدويش، الشيخ أحمد بن عبد الرزاق، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية، الرياض.
٥٦ـ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.
٥٧ـ رضا، الدكتور رائف، الجنس الطبي، حقائق وإثباتات علمية، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٥٨ـ رحيميان، الشيخ حسن، «أنوار العروج ـ خواطر وذكريات عن حياة الإمام الخميني»، ترجمة: علي شرف الدين، المستشارية الثقافية في سفارة الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة، بيروت ـ لبنان، ١٤١١ هـ .

٥٩ـ الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
٦٠ـ السبزواري، الملا هادي(ت ١٣٠٠ هـ) ، شرح غرر الفرائد ـ قسم الأمور العامة والجوهر والعرض، تحقيق: مهدي محقق، انتشارات جامعة طهران، ١٣٦٩هـ.
٦١ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، الجامع الصغير، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٦٢ـ السماوي، الشيخ محمد (ت: ١٣٧٠هـ)، إبصار العين في أنصار الحسين، تحقيق: الشيخ محمد الطبسي، مركز الدراسات الإسلامية التابع لممثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٦٣ـ الشهيد الأول، محمد بن مكي الجزيني (ت: ٧٨٦هـ)، المزار، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٦٤ـ الشهيد الثاني، زين الدين الجبعي (ت: ٩٦٦هـ)، منية المريد، تحقيق: رضا المختاري، دار المرتضى، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٦٥ـ الشريف الرضي، محمد بن الحسين (ت: ٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تعليق وشرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٦٦ـ الشريف الرضي، نفسه، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، مكتبة بصيرتي ـ قم.
٦٧ـ الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
٦٨ـ الشامي، يوسف بن حاتم المشغري (ت: ٦٦٤هـ)، الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
٦٩ـ الصدر، حسن الصدر (ت: ١٣٥٤هـ)، نهاية الدراية، تحقيق: ماجد الغرباوي، نشر المشعر، تاريخ مقدمة المحقق: ١٤١٣هـ.

٧٠ـ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت:٣٨١هـ)، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣هـ.

٧١ـ الصدوق، نفسه، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٩٦٦م.

٧٢ـ الصدوق، نفسه، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٣٨٧هـ.ش.

٧٣ـ الصدوق، نفسه، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٧٤ـ الصدوق، نفسه، الأمالي، مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٧٥ـ الصدوق، نفسه، معاني الأخبار، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٣٧٩هـ.

٧٦ـ الصدوق، نفسه، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.

٧٧ـ الصدوق، نفسه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

٧٨ـ الصدوق، نفسه، مصادقة الأخوان بضميمة فضائل الشيعة وصفات الشيعة وفضائل الأشهر الثلاثة، الدار الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٧٩ ـ الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت:٢١١هـ)، المصنف، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٨٠ـ صدر المتألهين، محمد الشيرازي (ت: ١٠٥٠ هـ)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

٨١ ـ الطوسي، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٨٢ ـ الطوسي، نفسه، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، ط١، ١٤١٤هـ.
٨٣ ـ الطوسي، نفسه، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ط٤، ١٣٦٥ هـ ش.
٨٤ ـ الطبراني، سليمان بن أحمد (ت: ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
٨٥ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت: ٥٤٨هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٨٦ ـ الطبرسي، نفسه، جوامع الجامع، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٨٧ ـ الطبرسي، الحسن بن الفضل (ت: ٥٤٨هـ)، مكارم الأخلاق، الناشر: منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٨٨ ـ الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٨٩ ـ الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (من أعلام القرن الخامس الهجري)، دلائل الإمامة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٩٠ ـ الطبطبائي، محمد حسين (ت: ١٤١٢هـ)، تفسير الميزان، منشورات جامعة المدرسين.
٩١ـ العاملي، علي بن يونس النباطي (ت: ٨٧٧هـ)، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

٩٢ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت: ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
٩٣ـ العسكري، الإمام أبي محمد الحسن بن علي، التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، دار الكتاب الإسلامي، بيروت ـ لبنان.
٩٤ـ عياض، اليحصبي المعروف بالقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.
٩٥ـ العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، (ت: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٦ـ غارودي، روجيه، الإسلام الحي، ترجمة: دلال بواب ضاهر، ومحمد كامل ضاهر، دار البيروني، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٩٧ـ الغريفي، السيد عبد الله، الجفاف الروحي (الأسباب والعلاجات)، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ.
٩٨ـ الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٩٩ـ الفياض، الشيخ محمد إسحاق، النظرة الخاطفة في الاجتهاد، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
١٠٠ـ فرج، مرتضى، أفي الله شك؟، الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
١٠١ـ القضاعي، القاضي محمد بن سلامة (٤٠٤هـ)، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
١٠٢ـ الكليني، محمد بن يعقوب، (ت: ٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨هـ.

١٠٣ـ الكاشاني، محمد محسن، المعروف بالفيض الكاشاني (ت:١٠٩١هـ)، تفسير الصافي، مؤسسة الهادي، قم ـ إيران، ١٤١٦هـ.

١٠٤ـ الكاشاني، نفسه، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ط٢، لا.ت.

١٠٥ ـ الكفعمي، الشيخ إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح العاملي، المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٠٦ـ الكراجكي، أبي الفتح محمد بن علي (ت:٤٤٩هـ)، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ. ش.

١٠٧ـ الكراجكي، نفسه، معدن الجواهر ورياضة الخواطر، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.

١٠٨ـ كاشف الغطاء، محمد حسين (ت: ١٣٧٣هـ)، أصل الشيعة وأصولها، طبع دار القرآن الكريم، قم ـ إيران،١٤١٠هـ، .

١٠٩ـ المدني، السيد علي خان الحسيني الحسني (١١٢٠هـ)، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تحقيق: السيد محسن الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤١٥هـ.

١١٠ـ المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (٨٨٨ ـ ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١١١ـ المجلسي، محمد باقر(ت: ١١١١هـ)، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١١٢ـ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١١٣ـ المفيد، نفسه، الأمالي، تحقيق: الحسين أستاذ ولي، وعلي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.

١١٤ـ المصري، القاضي نعمان بن محمد بن منصور، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، مصر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

١١٥ـ المازندراني، المولى محمد صالح (ت: ١٠٨١هـ)، شرح أصول الكافي، تعليق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١١٦ـ النوري، الميرزا حسين (ت: ١٣٢٠هـ)، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١١٧ـ الهادي، الشيخ جعفر، الله خالق الكون، مؤسسة سيد الشهداء العلميّة، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١١٨ـ الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (ت: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨م.

١١٩ـ الواسطي، علي بن محمد الليثي (القرن السادس الهجري)، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: السيد حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث ـ قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٢٠ـ جريدة الرياض السعودية في عددها الصادر في يوم الأربعاء ١٢ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، والرابط الإلكتروني لها هو التالي:

http://www.alriyadh.com/153157

محتويات الكتاب

المقدّمة: مع الشباب ٥

المحور الأول: مزايا الشباب

مميّزات مرحلة الشباب ١١
١ ـ الطاقة والحيوية ١٣
٢ ـ الفطرة السليمة ١٤
٣ ـ مرحلة تحديد المسارات ١٦
٤ ـ قوة الأحاسيس العاطفية ١٨
٥ ـ المثاليّة ٢٠
٦ ـ الشجاعة ٢٢
٧ ـ الشباب والقدوة ٢٥
٨ ـ زَهْوُ الشباب وانتفاخ الشخصيّة ٢٧
ـ حيوية الشباب وحكمة الشيوخ ٢٩

المحور الثاني: مسؤوليات الشباب (علم وعمل)

١ـ الشباب والمسؤولية ٣٤
١ ـ كيف نفهم المسؤولية؟ ٣٤
٢ ـ ما هي مجالات المسؤوليّة وحدودها؟ ٣٤
٣ ـ كيف نمارس المسؤولية؟ ٣٧
ـ الموظف وحسّ المسؤولية ٣٨

٢ ـ الشباب في خط العلم والمعرفة ٣٩
١ ـ العلم واجب إلهيّ ٤٠
٢ ـ العلم وتنمية العقل ٤١
ـ الطيران بجناحين ٤٣
٣ ـ الشباب وثقافة السؤال ٤٦
أ ـ من نسأل؟ ٤٧
ب ـ كيف نسأل؟ ٤٨
ج ـ ماذا نسأل؟ وماذا لا نسأل؟ ٤٩
د ـ القرآن وترشيد الأسئلة ٥٢
٣ ـ العمل سرّ النجاح ٥٤
١ ـ الإسلام ومحاربة الكسل ٥٥
٢ ـ لا منافاة بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ٥٦
٣ ـ عندما يتسوّل الشباب! ٥٧
٤ ـ بالعمل نواجه سياسة الإفقار ٥٨
٥ ـ وبالعمل نواجه سياسة الاستغلال ٥٩
٤ ـ الشباب والعمل الرسالي ٦٢
١ ـ دور الشباب في العمل الرسالي ٦٢
٢ ـ امتلاك الذخيرتين الثقافية والأخلاقية ٦٣
٣ ـ لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة سالكيه ٦٤
٤ ـ نكسةٌ للإسلاميين ولكن ٦٥
٥ ـ قدِّموا الإسلام بلغة العصر ٦٦

المحور الثالث: الشباب والعلاقة مع الله

١ ـ الشباب ومشكلة الإلحاد ٧٣
١ ـ الإلحاد قديماً وحديثاً ٧٣
٢ ـ وقفات منهجية على طريق المواجهة ٧٤
أ ـ النفي يحتاج إلى دليل ٧٤

ب ـ بين الفرضيات والحقائق ٧٦
ج ـ الإيمان والعقل........ ٧٨
د ـ العلم بالعلم ٧٩
هـ ـ بين ثوابت الدين ونظريّاته........ ٨٠
٣ ـ أسباب الإلحاد ودوافعه ٨٤
أ ـ الألفة بالمحسوس ٨٤
ب ـ الغرور العلمي ٨٥
د ـ ملاءمة هوى النفس ٨٥
هـ ـ الاحتجاج على الواقع الديني ٨٦
٤ ـ هل الله خَلَقَنَا أم نحن خلقناه؟........ ٨٨
٢ـ الشباب والعلاقة مع الله تعالى ٩٣
١ ـ خطوات على الطريق........ ٩٤
٢ ـ فضل الشاب العابد........ ٩٥
٣ ـ لصوص الطريق ٩٧
ـ النوازع المتصارعة........ ٩٨
٤ ـ أمثل الأساليب في عمليّة تهذيب النفس ١٠٠
أ ـ التزام منهج الكتاب والسّنة ١٠٠
ب ـ بناء العلاقة مع الله على أساس الحبّ ١٠١
ج ـ أهميّة القدوة في حياة الشباب ١٠٢
٥ ـ من عرفاء مدرسة الوحي ١٠٣
١ ـ الصحابي المتيقّن ١٠٣
٢ ـ مصعب بن عمير: من حياة الترف إلى الشهادة ١٠٤
٣ ـ الشاب التائب ١٠٥
٤ ـ نماذج شبابية ذكرها القرآن الكريم........ ١٠٦
٣ ـ الطرق غير المشروعة في تهذيب النفس ١٠٨
١ ـ طريق الإرجاء........ ١٠٨
٢ ـ طريق المتصوّفة........ ١٠٩

٣- طريق العرفان المزيّف ١١٢
ـ أحبتي الشباب.. .... ١١٥
٤ ـ الشباب ومشكلة الجفاف الروحي ١١٧
١ ـ من مظاهر الفراغ الروحي ١١٧
٢ ـ أسباب هذه الظاهرة ١١٩
أولاً: الانغماس في الدنيا ومحرّماتها ١١٩
ثانياً: الانحرافات الفكريّة والوساوس النفسيّة ١٢٠
٣ ـ الملينات للقلب ١٢١
أولاً: محاسبة النفس ١٢١
أ ـ ثمرة المحاسبة ١٢٢
ب ـ نقد الغير ونقد الذات ١٢٢
ج ـ محكمة الضمير ومحكمة العدل ١٢٣
د ـ كيفية المحاسبة ١٢٤
ثانياً: المواعظ المنعشة للروح ١٢٤
ثالثاً: البرنامج الإسلامي للتعبئة الروحية ١٢٦
أ ـ محطات متنوعة وهدف واحد ١٢٧
ب ـ دور المسجد في التربية الدينية ١٢٨
ـ عزوف الشباب عن المساجد ١٢٩
٥ ـ تشوّه العبادة في زمن التصحّر الأخلاقي ١٣٢
١ ـ تحويل العبادة إلى طقوس ١٣٢
٢ ـ تقزيم العبادة ١٣٤
ميزان قبول الصلاة ١٣٦
٣ ـ العبادة عز للمؤمن ١٣٦
٤ ـ العبادة الواعية ١٣٧

المحور الرابع: الشباب ودوره في عملية النهوض

١ ـ الأمّة وأزمة الهوية ١٤٢

١ ـ الأمّة وسؤال الهُويّة ١٤٢
٢ ـ فقد الثقة بالذات: أعراض ومخاطر ١٤٤
٢ ـ ركائز عمليّة النهوض ١٤٨
١ ـ المراجعة النقدية ١٤٨
ـ خلاصات ونتائج ١٥٠
ـ المشكلة في الثقافة ١٥١
ـ التاريخ قاعدة انطلاق المستقبل ١٥٣
٢ ـ الثقة بالذات ١٥٤
٣ ـ الحاجة إلى حركة إصلاحية ثورية ١٥٦
أولاً: أُسس الممارسة الثورية ١٥٨
ـ التغيير الثوري في واقعنا المعاصر ١٥٩
ثانياً: أسس العمليّة الإصلاحيّة ١٦١
ـ أضواء على مسيرة العمل الإصلاحي ١٦٦
١ ـ المصلح ومنهجه الإصلاحي ١٦٧
٢ ـ هدي القرآن في مواجهة الفساد ١٦٩
٣ ـ عملية النهوض: مقدمات وشروط ١٧٣
الشرط الأول: حُسن إدارة الوقت واستثماره ١٧٣
١ ـ قيمة الزمن ١٧٤
٢ ـ استثمار الوقت ١٧٥
٣ ـ الفراغ مفسدة الشباب ١٧٥
٤ ـ البرنامج الأمثل ١٧٧
٥ ـ فرصة التدارك ١٨٥
الشرط الثاني: فضاء الحرية ١٨٦
١ ـ قيمة الحرية ١٨٧
٢ ـ عبودية الله منطلق الحرية ١٨٨
٣ ـ تعميق الحرية في النفوس ١٨٨
٤ ـ ثمن الحرية ١٨٩

٥ ـ الحريّة في مواجهة الغريزة ١٩٠
٦ ـ الحرية والتحرير ١٩٠
الشرط الثالث: إيقاظ البصيرة ومحاصرة الغوغاء ١٩١
١ ـ الغوغاء: المفهوم والمخاطر ١٩٢
٢ ـ الغوغاء وافتقاد الميزان ١٩٣
٣ ـ محاصرة الغوغاء ومواجهتهم ١٩٥
أولاً: الحلّ الظرفيّ ١٩٥
ثانياً: الحل الجذري ١٩٦
٤ ـ البصيرة ومصادرها ١٩٦
ما هو مصدر البصيرة؟ ١٩٧
٥ ـ القائد والبصيرة ١٩٨
٦ ـ الإمام عليّ عليه السلام صاحب البصيرة النافذة ١٩٩
٧ ـ توازن الشخصيّة ٢٠١
٤ ـ دور الشباب في عملية النهوض ١٧٣

المحور الخامس: الشباب والغريزة الجنسية

١ ـ الغريزة في ضوء التصوّر الإسلامي ٢١١
١ ـ التكريم الإلهي ومجالاته ٢١١
٢ ـ الجسد وطن الروح ٢١٢
٣ ـ حقوق الجسد ٢١٣
٤ ـ مخاطر «تجسيد» الإنسان؟ ٢١٤
٥ ـ «أنسنة» الجسد ٢١٤
٦ ـ الغريزة ليست دنساً ٢١٦
٢ ـ التشريع الإسلامي ومواجهة الرذيلة ٢١٧
ـ سدّ منافذ الرذيلة ٢١٩
٣ ـ الشباب والغريزة الجنسيّة ٢٢٢
١ ـ صمود الشباب في معركة الغريزة ٢٢٢
٢ ـ الحلول الواقعيّة لمشكلة غليان الغريزة ٢٢٤

النوع الأول: الحلول الجذريّة ٢٢٥
النوع الثاني: الحلول المؤقّتة ٢٢٧
٣ ـ الزّواج المؤقّت ٢٢٨
أولاً: شرعية العقد المنقطع ٢٢٨
ثانياً: المتعة عقد الاستثناء ٢٣٠
ثالثاً: تنظيم العقد المنقطع ٢٣٢
٤ ـ يوسف الصديق نموذج الشاب العفيف ٢٣٣
ـ النبي والغرائز ٢٣٧
٥ ـ النساء ومشكلة العنوسة ٢٣٩
٤ ـ الشذوذ الجنسي ٢٤٣
١ ـ تفاقم المشكلة ٢٤٤
٢ ـ وقفة مع التسمية ٢٤٥
٣ ـ في الأسباب ٢٤٧
٤ ـ في الدليل على الحرمة ٢٤٧
أ ـ دليل حرمة اللّواط ٢٤٨
ب ـ دليل حرمة المساحقة ٢٤٨
٥ ـ فلسفة تحريم الشّذوذ ٢٥٠
٦ ـ هل ظَلم الشّرعُ الشاذين؟ ٢٥٢
٧ ـ سُبلِ العلاج.. واجبنا وواجبهم ٢٥٥
أولاً: الخطاب الجاذب ٢٥٥
ثانياً: تضافر الجهود ٢٥٦
ثالثاً: العمل المؤسّسي المتخصّص ٢٥٦
رابعاً: النظر إلى القضيّة باعتبارها ابتلاءً ٢٥٧
خامساً: تهيئة الأجواء ٢٥٨
٥ ـ أسئلة متنوّعة حول الحبّ وملك اليمين والحور العين ٢٦٠
١ ـ الحبّ بين الجنسَين ٢٦٠
٢ ـ استغلال الموضوع الجنسيّ في لعبة الدم ٢٦٢

٣ ـ بين المهر المؤجّل والمعجّل غير المقبوض ٢٦٤
٤ ـ «داعش» وسبي النساء!.. ٢٦٦

المحور السادس: الشباب والعلاقات الاجتماعية

١ ـ التواصل فن ورسالة ٢٧٢
١ ـ التواصل: أهدافه ونتائجه ٢٧٢
٢ ـ مع من نتواصل؟ ٢٧٤
٣ ـ كيف نتواصل؟ أو ما هي شروط التواصل الناجح؟ ٢٧٥
أولاً: الشروط الدينية والأخلاقية: ٢٧٥
ثانياً: الشروط الموضوعية: الفنية والتخصّصية:........................ ٢٧٦
ثالثاً: الشروط الأخلاقية: ٢٧٦
٤ ـ أشكال التواصل وأساليبه.. ٢٧٧
٥ ـ الحكم الشرعي للتواصل.. ٢٧٨
٢ ـ التواصل بين أسلوبي المداراة والمداهنة........................ ٢٧٩
١ ـ المراد بالمداراة ٢٧٩
٢ ـ الداعية والمداراة.. ٢٨٠
٣ ـ إيجابيات المداراة.. ٢٨١
٤ ـ المداراة والمداهنة ٢٨١
٥ ـ الأخوّة الصادقة والمصارحة ٢٨٢
٦ ـ مداهنة النفس ٢٨٣
٣ ـ الشباب ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة ٢٨٤
١ـ الأنترنت نعمة أم نقمة.. ٢٨٤
٢ـ زواج الفايسبوك.. ٢٨٧
٣ ـ لغة الفايسبوك والواتس أب.. ٢٨٩
٤ ـ الصور البديلة ٢٨٩
٤ ـ علاقة الشباب بالآباء والأمهات ٢٩١
١ ـ تفهّم خصائص هذه المرحلة ٢٩٢

٢ ـ اعتماد أسلوب المصادقة ٢٩٢
٣ ـ الشخصية المستقلة........................ ٢٩٣
٤ ـ الاحترام والطاعة........................ ٢٩٤
ـ رواية وعبرة ٢٩٥
٥ ـ نصائح تربوية للوالدين ٢٩٦
٥ ـ مجالس الشباب ٢٩٩
١ ـ مجالسة الناس حاجة ملحة........................ ٢٩٩
٢ ـ أدب المجالس........................ ٣٠٠
٣ ـ المجالس المحبوبة ٣٠٢
أولاً: مجالس طلب العلم ٣٠٣
ثانياً: مجالس المساجد........................ ٣٠٣
ثالثاً: مجالس الدعاء وقراءة القرآن ٣٠٤
رابعاً: المجالس الأسرية ٣٠٤
خامساً: مجالس المؤمنين ٣٠٥
سادساً: مجالس العلماء والأتقياء........................ ٣٠٥
سابعاً: مجالس العمل الاجتماعي والثقافي........................ ٣٠٦
٤ ـ المجالس الممقوتة........................ ٣٠٦
أولاً: مجالس الاستهزاء بالدين ورموزه ٣٠٧
ثانياً: مجالس الكذب على الله ورسوله ٣٠٨
ثالثاً: مجالس تمجيد أعداء الله ٣٠٨
رابعاً: مجالس المعصية ٣٠٨
خامساً: مجالس المتكبرين والمرائين ٣١٠
سادساً: المجالس المختلطة ٣١١
سابعاً: مجالس الفضوليين ٣١١

المحور السابع: الشباب ومرح الحياة

١ ـ الشباب والرياضة ٣١٦
١ ـ ارتياد المتنزهات ٣١٧

٢ ـ المرح واللهو البريء ٣١٨
٣ ـ العيد والفرح ٣١٩
٤ ـ الرياضة ممارسةً وتشجيعاً ٣٢٠
ـ الضوابط والتحفظات ٣٢٠
٥ ـ مباريات كأس العالم وما يرافقها ٣٢١
٢ ـ الشباب والسياحة ٣٢٤
ـ أنواع السياحة وأهدافها ٣٢٤
١ ـ السياحة الترفيهية ٣٢٥
ـ الأئمة وطلب النزهة ٣٢٧
ـ سياحة رخيصة! ٣٢٨
٢ ـ السياحة الثقافية ٣٢٨
ـ المفهوم والغايات ٣٢٨
٣ ـ السياحة الروحية ٣٣٠
ـ سياحة الحج والزيارة ٣٣١
ـ السياحة الروحية المحرمة ٣٣١

الملاحق

الملحق رقم (١) ٣٣٧
ـ متى نستكمل التحرير؟ ٣٣٧
١ ـ التحرير: حقوق وواجبات ٣٣٧
٢ ـ تحرير الإنسان ٣٣٨
٣ ـ تحرير العقول ٣٣٩
٤ ـ تحرير النفوس ٣٤٠
الملحق رقم (٢) ٣٤٢
ـ في محراب الأبوة ٣٤٢
ـ ما أحوجنا إلى حديث الروح ٣٤٣

ـ معنى أن يكون لك أب ٣٤٣
ـ معنى أن تكون أباً ٣٤٤
ـ الأبوة المعنوية........................ ٣٤٥
ـ الأبوة المجازية ٣٤٧
ـ علّمته الأرض ٣٤٨
ـ أشعر بالفخر والاعتزاز ٣٥٠

فهرس المصادر والمراجع ٣٥٣

محتويات الكتاب........................ ٣٦٥

مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم

نبذة عن المؤلف

حسين أحمد الخشن

* أستاذ الدراسات العليا في مادتي الفقه والأصول في المعهد الشرعي الإسلامي في بيروت.
* دكتوراه في الإلهيات والفلسفة الإسلامية.
* المشرف على المعهد الشرعي الإسلامي في بيروت.

* صدر له العديد من المؤلفات، منها:

1 ـ الإسلام والعنف.. قراءة في ظاهرة التكفير. (طبعة ثانية).
2 ـ الإسلام والبيئة.. خطوات نحو فقه بيئي. (طبعة ثانية).
3 ـ في فقه السلامة الصحية.. التدخين نموذجاً. (طبعة ثانية).
4 ـ فقه القضاء 1 و2 تقريراً لدروس المرجع الراحل السيد فضل الله.
5 ـ الشريعة تواكب الحياة.
6 ـ من حقوق الإنسان في الإسلام. (طبعة ثانية).
7 ـ عاشوراء.. قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء.
8 ـ الحر العاملي.. موسوعة الحديث والفقه والأدب.
9 ـ حكم دخول غير المسلمين إلى المساجد. (دراسة فقهية).
10 ـ مشغرة في التاريخ.
11 ـ علامات الظهور.
12 ـ هل الجنّة للمسلمين وحدهم؟
13 ـ تنزيهاً لرسول الله(ص).
14 ـ ظواهر ليست من الدين.
15 ـ في بناء المقامات الدينية.. المشروعيّة، الأهداف، الضوابط.
16 ـ تحت المجهر.. قراءة نقدية في مفاهيم وسلوكيات ومعتقدات.
17 ـ إليكِ يا ابنتي ـ رسالة أبويّة حول الحجاب وحجاب الموضة.
18 ـ العقل التكفيري ـ قراءة في المنهج الإقصائي. (طبعة ثالثة).
19 ـ تنزيه زوجات الأنبياء(ع) عن الفاحشة
20 ـ وهل الدِّين إلا الحُبّ؟
21 ـ أصول الاجتهاد الكلامي (دراسة في المنهج).
22 ـ الفقه الجنائي في الإسلام ـ الردة نموذجاً.
23 ـ حقوق الطفل في الإسلام. (طبعة ثانية 2015).
24 ـ مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم.

المواقع الإلكترونية

www.al-khechin.com
www.facebook.com/hussein.alkhechin